حول نظرية

التغير الاجتماعى

تأليف
ألفريد ا. هاجين

ترجمة
عبد المغنى سعيد



حول نظرية التغير الاجتماعي

تأليف

افيرت ا. هاجين

أستاذ علم الاقتصاد

في معهد ماسوشوستس التكنولوجي

ترجمة

عبد المغنى سعيد

وكيل وزارة القوى العاملة سابقا

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

ON THE THEORY OF SOCIAL CHANGE

by

Everett E. Hagen

Adapted from the original book and reproduced by permission of the author and publisher. Originally published in English by The Dorsey Press, Inc., Homewood, Illinois, U.S.A.

المؤلف

مؤلف الكتاب افيرت أ٠ هاجين أستاذ للاقتصاد فى معهد ماسوشوستس التكنولوجى ، بكمبردج ، ماسوشوستس ، الولايات المتحدة٠ وهو أيضا أستاذ فى العلوم السياسية ٠ وقد عمل لمدة عامين فى أوائل الخمسينات مستشارا اقتصاديا لحكومة بورما ٠ وعمل فترات أقصر كمستشار لحكومتى اليابان وسلفادور فى مشاكل التنمية الاقتصادية ٠ كما أجرى بحوثا ميدانية بشأن التغير الاقتصادى والاجتماعى فى كولومبيا والأرجنتين ، وبالنسبة لقبيلتين من الهنود الأمريكيين فى الولايات المتحدة ٠ وقد هيأت له هذه التجارب أساسا لمقترحاته بشأن التغيير الاجتماعى التى عرضها فى هذا الكتاب ٠

وبالاضافة الى « حول نظرية التغيير الاجتماعى » فهو مؤلف « اقتصاديات التنمية » (هومود ، اللينوس ، ايرون ، ١٩٦٨) كما نشر أيضا بعض المقالات الفنية فى المجلة الاقتصادية ، ومقالات أخرى بشأن التغيير الاجتماعى فى المجلات الامريكية الاجتماعية والسياسية ٠٠٠ الخ ٠

هذا الكتاب طبعة مبسطة لكتاب « حول نظرية التغيير الاجتماعى ـ كيف يبدأ النمو الاقتصادى » ، تأليف ايفرت أ٠ هاجين (مطابع دورسى ، هومود ، ايلينوس ، الولايات المتحدة : ١٩٦٢ وعدد صفحاته ٥٥٧) وقد أعدها ريتشارد و٠ هاتش ، بموافقة واقرار المؤلف ، تيسيرا على غير المختصين ٠ وهى بذلك أقصر وأقل تعقيدا فنيا من الطبعة الأصلية ٠

مقدمة

يسعى هـــذا الكتاب لأن يضيف الى المعرفة الخاصـــة بعمليـة النمو الاقتصادى ، وهو بهذا يضيف الى المعرفة الكلية للنظرية الاجتمـاعية • وهو مبنى على الاعتقـــاد القوى بأن الدراسات الخاصة بالحضارة والجمـــاعات فى المجتمعات المنخفضة الدخل والتى يقوم بها علماء الأجناس ، وتلك الخاصـــة بالبنيان الاجتماعى للمجتمعات التى يقوم بها علماء الاجتماع ، وتلك الخاصة بتكوين الشخصية التى يقوم بها علماء النفس ، قد بلغت نقطة يتعين عندها العمل على تكاملها وربطها بعضها بالبعض الآخر فى نظرية للتنمية الاقتصادية والتغيير الاجتماعى •

وثمة فكرة شعبية سائدة عن العلاقة بين الشخصية والديموقراطيـة ، وهى أن الناس فى كل مكان يفضلون الحكومة الذاتية • وانها لفكرة سائدة أيضا أن الحكومات التسلطية – أى تلك التى تطالب بالطاعة بلا نقاش – قد وجدت فى فترات طويلة من التاريخ لأن فئات قليلة وضعت باقى أعضـــاء المجتمع تحت سيطرتها بالقوة • وهذا الاعتقاد يكاد يكون خاطئا بالتأكيد • وانه لأقرب الى الاحتمال أن البنيان الاجتماعى التسلطى والمطلق المؤسس على الطبقة ما كان ليبقى الا لأن جمهرة الناس لا تفضل الحكم الذاتى • وانه لمن الافتراضات التى ساقها هذا الكتاب أن البنيان الاجتماعى التسلطى والمطلق انما قبله الناس بحكم طبيعة طفولتهم •

ان تاريخ أى مجتمع يتأثر تأثرا قويا بنمط العلاقات بين الأفراد الذى وجده أعضاء الجماعة مرضيا وهم أطفال • ففى بعض المجتمعات يسوى الأطفال خلافاتهم بما هـــو أقرب الى الصراع العدوانى • وفى مجتمعـــات أخرى قد يتعلمون أن يثقوا فى مقدرتهم على تسوية خلافاتهم سلميا ، بدون أية أفكار مسبقة عن رغبات أى منهم تلك التى يجب أن تسود • بل قد يتعلمون فى مجتمعات أخرى قواعـــد الرئيس والمرؤوس ، السلطة والاذعـان ، وتسوية الخلافات بواسطة السلطة المختصة وليس عن طريق المساومة • واذا ما بقى مجتمع تسلطى مطلق لعدة قرون (كما هو الحال فى المجتمعات التقليدية) يحتمل أن يعتاده أعضاء المجتمع ويرونه مرضـــيا ، ويفعلون ذلك لأنهم فى

طفولتهم وجدوا فى مثل هذا التكوين للعلاقات أفضل حل لمشاكلهم مع غيرهم من الناس • وعندما يتحول مجتمع ارتضى الحكومة التسلطية الى حكومة ديموقراطية ، فانه لمن المحتمل أن تكون بيئة الطفولة قد تغيرت بحيث لم يعد هناك شعور فى الطفولة بالحاجة الى الائتمار فوق وتحت الفرد • ومع هذا فان الاكتشاف بدون التوجيه التسلطى لعلاقات الفرد مع أنداده يبدو مأمونا ومرضيا • ومن ثم فهو يبدو مأمونا ومرضيا فى وقت البلوغ كذلك •

حقيقة ، أن الشخصية تتغير من خلال الحياة ، والعلاقة بين الطفولة والبلوغ أكثر تعقيدا بكثير مما تعنيه هذه الاشارة العابرة • ومع هذا فان تأثير الأنماط المكتسبة فى الطفولة يكون دائما كبيرا على تصرف البالغ • ونموذج المجتمع الذى لا يسلم بهذه الحقيقة يكون محدود الفائدة •

وأقترح أن العلوم الاجتماعية يجب أن تلم أيضا بالعلاقة المضادة بين المجتمع والطفولة • فاذا ما أدى التغير فى بيئة الطفولة الى تغير أساسى فى المجتمع ، فانه لصحيح أيضا أن ثمة شىء قد تسبب فى التغيرات فى بيئة الطفولة ولعل السبب الأكثر احتمالا للتغير فى بيئة الطفولة فى مجتمع ظل حتى آنذاك مرضيا لأعضائه الى حد معقول ، هو ظهور مصادر جديدة للتلهف أو التطلع فى المجتمع •

فاذا تسبب موقف اجتماعى جديد فى تلهف وقلق احدى الجماعات ، بعد أن كانت تشعر بالرضا الى حد معقول ، فان هذا التلهف سيؤثر على سلوكهم فى البيت ، ومن ثم على البيئة التى ينمو فيها أطفالهم وأرى أن مثل هذه التوترات التى تمتد لبضعة أجيال ، هى سبب أساسى للتغير الاجتماعى • وبهذا قد يكون لنموذج المجتمع الذى يتضمن مثل هذه التوترات ، وتأثيرها على بيئة الطفولة فائدته فى تفسير التاريخ •

هذه التوترات ترجع اما الى تعرض جماعات دخيلة على المجتمع ، واما الى عوامل داخلية فى المجتمع نفسه • وليست التوترات بسبب مطلق ونهائى ، لأنه يجب أن يسعى فى أثرها التحليل التاريخى باحثا لماذا وقعت الأحداث التى أدت الى حدوث توترات جديدة • ولكننا اذا أخذنا هذه المواقف التاريخية كنقط بداية ، وكونا نماذج تفسر سياق الأطوار المتلاحقة للتغير الاجتماعى ، انما نحقق بذلك ما فيه الكفاية •

الفصل الأول

النمو الاقتصادى فى النطاق الأوسع للتاريخ

من المفروض أنه كان هناك دائما ثمة تحسين بطىء فى ظروف الانسان ، ومع هذا فلم يحدث حتى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر فى انجلترا مثل تلك السلسلة من التحسينات التكنولوجية والفنون الصناعية وما صحبها من ارتفاع فى متوسط انتاج الفرد . وكانت هذه التغيرات من السرعة بحيث لوحظت آثارها فى كل جيل ، بل وفى كل حقبة ، أى فترة ١٠ سنوات . ويمكن اطلاق اصطلاح التقدم الاقتصادى على التغير بمثل هذا المعدل السريع .

ولقد كان انتشار التقدم الاقتصادى عملية مستمرة ، منذ بدايته فى انجلترا . ويبدو الآن أن عملية التقدم التكنولوجى قد توطدت واستقرت فى أنماط سلوك ، فى دول تكون فى مجموعها نحو ثلث سكان العالم وتنتج أكثر من ٨٠٪ من دخله ، وأنه ما لم تحدث كارثة عسكرية ، سوف يستمر مستوى الكفاية الانتاجية فى ارتفاعه السريع فى المستقبل الممكن رؤيته . وفى دول أخرى يعيش فيها ٦٠٪ من سكان العالم يسير فى هذا التقدم التكنولوجى بمعدل مقبول ، على الرغم من أنه لا يزال فى مراحله الأولى . وانه ليعيش نحو عشر أو أقل من عشر سكان العالم فى دول لا تعطى البيانات المتوافرة عنها دليلا واضحا على وجود تقدم تكنولوجى بمعدل محسوس .

وتوزيع الدول بين هذه المجموعات الثلاث لا يخلو من مغزى جغرافى . فالتقدم الاقتصادى سائد فى دول أوروبا وأمريكا الشمالية ، وأقل شيوعا فى أمريكا اللاتينية ، وأقل ادراكا فى كثير من دول آسيا وافريقيا . ومع هذا فهناك ثمة دليل على النمو فى بعض الدول فى كل قارة .

ويسبب التقدم التكنولوجى ارتفاعا فى مستوى الدخل على خطوتين وهما : اكتشاف معرفة جديدة تجعل من المستطاع تحقيق زيادة فى انتاج السلع والخدمات بالنسبة للوحدة المستخدمة من العمل والرأسمال والخدمات

فى عملية الانتاج • وكذلك استخدام هذه المعرفة فى العمليات الانتاجية • ويتضمن هذا التقدم فى ابتكار منتجات أكثر اشباعا ووسائل انتاج أكثر كفاية • انه يتضمن عملية التطوير والاختراع بكاملها ، أو تهيئة وسائل حديثة ، بادئا بالتقدم العلمى البحت ، ثم بمطابقته هندسيا الى تطبيقه فى الانتاج • وفى مجال الوسائل لا يتضمن التقدم مجرد التقدما تالعلمية والفنية فحسب ، بل يشمل أيضا نماذج جديدة للتنظيم أو وسائل لاجراءات من شأنها جعل المجتمع أكثر كفاية فى الانتاج • وكل هذه الأنشطة المنوعة الى حد ما تشترك معا فى استجلاء مفاهيم جديدة هى جوهر التقدم التكنولوجى •

قد يرتفع الدخل فى المجتمع نتيجة لانتشار استخدام الأدوات والآلات، حتى فى حالة غياب التقدم التكنولوجى • ولكن اذا كانت هذه العملية قاصرة فقط على انشاء أدوات معروفة بالفعل ، ولا تتضمن أفكارا جديدة ، فان الزيادة فى الدخل لا تلبث أن تتناقص بالتدريج لتتوقف نهائيا • فالزيادة المستمرة فى الدخل ، أو بعبارة أخرى فى النمو الاقتصادى ، لا تتحقق الا بالتحسين المستمر فى الوسائل التكنولوجية وفى المنتجات • ولا يوجد طريق آخر غير هذا •

ولسوف أصف عملية التغيير فى أى مجتمع ـ بادئا بالتقدم التكنولوجى البطىء الذى لا يكاد يلاحظ من جيل لآخر ، الى التقدم السريع بمعدل تظهر آثاره من حقبة لأخرى ـ كعملية تحول للنمو الاقتصادى • فما هى أسباب التحول :

بعض التفسيرات المقبولة :

ان الجواب واضح فى النطاق الأوسع للتاريخ : ان المدخل الى النمو الاقتصادى انما ينتج عن الاسراع فى تنمية المعرفة العلمية والفنية ، أى نموها بمعدل سريع • ويحدث التقدم العلمى والتكنولوجى اعارض فى المجتمعات التقليدية عن سبيلين الأول عن طريق اكتشافات العقول الذكية ، التى قد تكون أو لا تكون بفعل الصدفة ، ولكنها لم تحدث آثارا هامة • والثانى بظهور أفراد غير عاديين وغير متوائمين فى المجتمع ، ولكن ظروفا معينة فى حياتهم الفردية جعلتهم مختلفين عن الآخرين ، ودفعت ببعضهم بلا شك الى توجيه طاقاتهم الى مشاكل التكنولوجيا • وهكذا تكتشف من وقت لآخر حقائق جديدة عن العالم الطبيعى وتستحدث وسائل انتاجية فنية جديدة ، ويجرى تطبيقها بدون أن تهدد مركز الفئات القوية ، أو تناقض القيم السائدة فى

المجتمع . واذ تضيف هذه التقدمات فى التكنولوجيا الى أساس المعرفة تزيد بمعدل متزايد السرعة من امكانيات اضافات أبعد . وبالتالى عندما يكون التغيير محسوسا أو قابلا لملاحظة الناس ، فان المعرفة الاضافية فى حد ذاتها تساعد على تكريس الطاقة المتزايدة لدراسة العلم والتكنولوجيا ، طالما أن مثل هذه الدراسة أصبحت أوفى جزاء . الا أن التغيرات الاجتماعية الناجمة عن التقدم الفنى ، قد تولد ضغوطا ضد هذا التقدم ، ان لم تسبب العودة الى قصور التقدم . فاذا لم يحدث هذا ، فقد ثبت منذ قرون مضت (وان لم يشعر الناس بذلك بالضرورة) أن تقطر التقدم التكنولوجى قد يتحول فى النهاية الى مد متدفق ، يهز البنيان الاجتماعى التقليدى ، ويأتى بالتغيرات اللازمة فى النظام الاجتماعى والضرورية لدعمه .

ان التاريخ يؤكد ذلك . حيث أعقب فترات التقدم العلمى فى الأزمنة الماضية ، عودة الى قصور التقدم بسبب كراهية الأفكار الجديدة والدمار الذى أحدثته الحروب . ومع هذا عاد التقدم فبدأ من جديد فى أوربا بين القرنين السادس والخامس عشر . فقبل قيام الثورة الصناعية بأكثر من ألف سنة ، وهى الثورة التى بدأت فى انجلترا حوالى عام ١٧٦٠ ، وعدة قرون قبل عودة الانفتاح التجارى فى القرن الحادى عشر بين دول البحر الأبيض المتوسط ، ونمو المدن ، كانت التكنولوجيا تتحرك قدما . ففى وقت مبكر كالقرن الرابع كانت العجلات المائية معروفة فى أوربا ، وانتشر استخدامها بسرعة خلال عدة قرون تالية . وصنع الصابون اكتشف أيضا فى الجزء الأخير من القرن الرابع . وواضح أن زراعة الشعير والشوفان أدخلت ما بين القرنين السابع والعاشر . كما أكتشفت أيضا طريقة صنع الزبد ، كما استحدث نظام الحقول الثلاثة الذى أدى الى زراعة ثلثى الأرض بدلا من نصفها ، حيث جعلت الأمطار الصيفية حرث الربيع مفيدا . كما أدى تطوير المحراث فى القرن الحادى عشر ، باستخدام قطعة حديد مقوسة الى زيادة كفاية الحرث فى بعض الأراضى . وفى خلال القرنين الثانى عشر والخامس عشر ، حدثت تقدمات فنية أخرى هامة مثل تجديد صناعة الطوب قبيل عام ١٢٠٠ . وأدخلت تحسينات كبيرة على طاحونة الهواء . كما استحدثت طرق لتسخين وصهر الحديد على نحو جعله خلوا من الشوائب ، مما ساعد على تقدم سباكة الأدوات . وساعد تقدم صناعة الصلب والسباكة على صناعة ابر حقيقية بعيون تامة . وقد أدت عجلة الغزل الى مضاعفة كمية الغزل التى يستطيع الفرد الواحد غزلها . كما استحدثت أدوات نسيج خفضت من الجهد المبذول فى عملية النسج . وكذلك حدث تطوير فى ترويض الجياد ، باستخدام سياجين بدلا من سياج واحد ،وفى ترويض الحيوانات بصفها الواحد بعد الآخر . وباستخدام سرج الحصان بدلا

من حزام الصدر زاد ما يجره الحصان الى الثلاثة أو الأربعة أمثال ، حيث كان الحزام يرهق الحصان مع شدة الحر ٠

هذه الاختراعات تمت قبل وبعد اعادة فتح طريق التجـــارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وكثيرا من الاختراعات التى حـدثت فيمـــا بعد لم تكن مرتبطة ٠ وهكذا فان اعادة فتح طريق التجارة أنعش التغيير ولكنه لم يكن البادىء به ويحتمل أن تكون دفعة الاختراع التى تولدت عن هذه الاختراعات السابقة هى التى يسرت نمو المدن فى القرن الثانى عشر بعد أن ظهرت بوادر هذا النمو بالانفتاح التجارى خلال القرن الحادى عشر ٠ وعقب هذه التطورات وبعد فترة تراخى فيها التقدم نسبيا ، وبعد الصدمة الكبرى للوباء المروع المعروف بالموت الأسود فى القرن الرابع عشر ، عاد معدل الاختراع الى التزايد سرعة وكما ٠ ولم يلبث التقدم التكنولوجى أن انبثقت عنه الثورة الصناعية فى انجلترا فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ٠

وما أن أينعت شجرة التقدم ، حتى امتدت غصونها الى أراضى جد بعيدة عن طريق رياح التجارة ، وبأقدام الجيوش الغازية وقد حملت معها بذور التغير الاجتماعى الجوهرى ٠ وما من أحد يشك أن المصادر الأساسية للتغيير فى مجتمعات أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا فى العصور الحديثة انما هى ترجع الى انفتاح هذه المجتمعات على العالم الغربى وتأثيرها بما له من قوة اقتصادية ومهارة ٠ ويسير التغير الحضارى بمعدل بطىء فى أى مجتمع ، ما لم تكن هناك ضغوط داخلية خطيرة ، وقوى خارجية فعالة ٠ وفى اعتقاد كل عالم اجتماع أنه ما لم يكن قد حدث الاتصال بالغرب والاقتداء به ، لما حدث فى عصرنا الحاضر تغير يذكر فى البنيان الاجتماعى وفى الأوضاع الفنية التى كانت تتسم بها المجتمعات التقليدية ، فى القرن السادس عشر مثلا ٠

أسئلة بلا اجابة :

ولكن هذه الحقائق التاريخية لا تعطى تفسيرا كافيا ٠ انها لا تفسر معدل تقدم المعرفة عبر القرون ٠ ونحن فيما يبدو نقبل بدون نقاش معدل التقدم البطىء صوب العصور الحديثة ٠ ويخيل الينا أن التقدم كان بطيئا لأن قاعدة المعرفة كانت صغيرة ٠ وهذا التفسير غير مقنع ٠ كيف يكون البطىء بطيئا ؟ لماذا ظهر التقدم التكنولوجى السريع فى بقاع جد متناثرة ؟ فمنذ أواخر القرن الثامن عشر على الأقل كانت المعرفة التكنولوجية الكافية للنمو الاقتصادى فى متناول أى مجتمع فى العالم ٠ فلماذا حدث ذلك التباين الكبير بين مختلف

المجتمعات فى مدى افادتهم منها ؟ لماذا كان بين مجتمعات العالم التى ظلت تقليدية لفترة أطول من الغرب ، من حقق التحول الى النمو الاقتصادى قبل وأسرع من المجتمعات الأخرى ؟ لكم كان بودنا أن تكـــون قادرين على أن نستنبط أى من المجتمعات التى لا تزال غير متقدمة فنيا سوف يأخذ قريبا ، وايها سيأخذ أقرب أو أبعد منه بسبيل النمو الاقتصادى ؟ بودنا أن نفهم القوى المنوعة المؤثرة ، وذلك لأننا نتوق لفهم عملية التغيير الاجتماعى من جهة ولأننا نريد التعجيل بها اذا استطعنا من جهة أخرى ·

ويرى بعض المتتبعين أن اختلاف أوقات الأخذ بسبيل النمو الاقتصادى يرجع الى حد كبير الى عوامل اقتصادية · فهم يلاحظون أن ادخال الوسائل المتقدمة يتطلب استثمار قدرا محسوسا من الموارد · ويرون أن مستوى الدخل فى المجتمعات التقليدية جد منخفض بحيث لا يتيح للأفراد أن يدخروا ما يكفى لتمويل مثل هذه الاستثمارات ، أو يكون السوق من الصغر بحيث لا يرى أحد أية جدوى من انشاء مصانع كبيرة تستخدم وسائل متقدمة ·

وقد يترتب على الرأى الأول أنه ما من دولة منخفضة الدخل تستطيع التنمية بدون عون اقتصادى من الخارج · الا أن هذا ليس بصحيح ، اذا أخذنا فى الاعتبار أن اليابان بدأت تنميتها حقا بدون أية معونة خارجية ، وأن كولومبيا بدأتها بمعونة جد قليلة · وحتى بدون هاتين الحالتين لشد اهتمامنا ، فانه لا يوجد ما يبرر الافتراض بدون تفسير أن الأفراد فى المجتمعات المنخفضة الدخل لا يمكنهم أن يوجهوا الى النمو الاقتصادى موارد كافية لتحقيقه اذا ما أرادوا ذلك · وحتى فى المجتمعات الفلاحية التى تعانى أدنى مستويات الدخل المنخفض ، لا يهبط مستوى الدخل الى الحد الذى يكرسه كله لاشباع ضرورات الحياة · فهذا لا يصح الا بالنسبة للطبقات الأدنى دخلا · وثمة فئات أخرى فى هذه المجتمعات يمكنها ادخار نحو ١٠٪ أو أكثر من الدخل القومى بدون مشقة أو عناء جسمانى · فهذه الفئات تستطيع أن تمول النمو الاقتصادى · وما كانت القرارات المناسبة تتخذ بحكم الضرورة ، وانما نتيجة للاختيـــار الاجتماعى ·

وبالمثل لا يوجد ما يبرر أن نفترض بدون استقصاء للحقائق أن الأسواق فى الدول المنخفضة الدخل تكون من الصغر بحيث لا تسمح بادخال الوسائل المتقدمة · فعندما نقوم بالاستقصاء الواجب ، نجد أن هذه الأسواق ليست بالصغيرة تماما · ومن شأن الفحص الموجز لبعض جوانب تاريخ الدول التى أخذ بسبيل التقدم التكنولوجى المستمر ، أن يوحى لنا بالطابع العام لنظرية قد تعطينا تفسيرا لاختلاف معدلات النمو فى الدول المختلفة ·

المجتمع الزراعى ـ نقطة البداية :

لم يبدأ النمو الاقتصادى ، حتى الآن في تاريخ العـــالم ، سوى فى مجتمعات زراعية (أو فى مجتمعات جديدة أنشأها قوم هاجروا من مجتمعات زراعية أو صناعية) ولا يبدو أنه يمكن أن يبدأ فى مجتمعات لم تكن قد بلغت مرتبة الزراعة المستقرة ، فالناس الذين يحيون حياة الترحل ، لا يمكنهم أن يجمعوا الكثير من الأدوات اللازمة للأخذ بسبيل التحول الى التقدم التكنولوجى المستمر ، ما لم يستقروا ٠

التحول كعملية تدريجية :

اذا كان ظهور النمو الاقتصادى يبدو مفاجئا اذا نظرنا اليه فى مجرى النطاق العام للتاريخ الانسانى الا أنه يبدو تدريجيا الى حد كبير اذا قيس بمقياس الحقبات ، أو حتى الأجيال ٠

ونحن نميل للاعتقاد بأ النمو قد بدأ شبه فجأة فى روسيا تحت حـــكم الشيوعيين ، أو أنه بدأ فى أوائل القرن العشرين اذا كنا أكثر علما بالحقائق ٠ ولكن أحد الباحثين القادرين الفطنين قدر تزايد ثروة روسيا القومية بمعدل ٢٪ سنويا من عام ١٨٦٠ الى أوائل الثمانينات ، ثم بمعدل ٣٪ بعد ذلك حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وأن متوسط انتاج الفرد زاد بنسبة ٣/٤٪ ثم بنسبة ١ ١/٤٪ خلال تلك الفترتين على التوالى(١) ٠ كما يتبين من البحث التفصيلى أن النمو لم يبدأ فى الصين فجأة مع وصول النظام الشيوعى الى السلطة ٠ بل ان النمو الحديث انما بنى على النمو السابق المتصاعد والمستقر ، والذى تعرقل بالغزو اليابانى ، والحرب العالمية الثانية ، والحرب الأهلية بعدها ٠ وكان ذلك النمو قد بدأ فى الثمانينات فى القرن التاسع عشر ٠

ولعل التاريخ المتفق عليه عموما كبداية النمو الاقتصادى فى اليابان هو فى الثمانينات من القرن التاسع عشر بعد أن حققت نهضة مايبجى الاشراف المحكم للمصلحين على الاقتصادى ٠ ومع هذا فان دراسة تاريخ عصر التوكوجاوا من عام ١٦٠٠ الى عام ١٨٦٨ ، تبين بوضوح أن الانتعاش التكنولوجى كان

---

(١) رايموند و٠ جولد سميث : النمو الاقتصادى لروسيا القيصرية (١٨٦٠ ـ ١٩١٣)
Raymond W. Coldsmoth, "The Economic Growth of Tsarist Russia". 1860-1913.
Raymond Economic Development and Cultural Change, April 1961, pp. 441-473.

كبيرا قبل نهاية تلك الفترة ، كما توحى أيضا بأن متوسط دخل الفرد قد بدأ يتزايد منذ عام ١٧٠٠ على الأقل ٠ والمثل يقال عن تاريخ التنمية فى أمريكا اللاتينية وما أحاط بها من سوء فهم ٠ فالاقتصاديون ورجال الأعمال فى كولومبيا يرجعون بداية النمو الاقتصادى فى كولومبيا الى كساد ١٩٣٠ ٠ ولكن الدراسة التى قامت بها اللجنة الاقتصـــــادية للأمم المتحدة فى أمريكا اللاتينية E.C.L.A. ترجعها مبكرا الى العشرينات بدلا من الثلاثينات(٢)٠ وبدراسة التاريخ الاقتصادى لكولومبيا يتضح أن متوسط انتاج الفرد قد بدأ فى التزايد منذ انتشار زراعة البن على الأقل ، حوالى عام ١٨٦٠ ٠ كما بدأ التصنيع قبل عام ١٩٠٠ ونما بسرعة خلال الفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٢٠ ٠ ولم يكن النمو الصناعى البارز بعد عام ١٩٢٠ الا مجرد استمرار له

وفى الأرجنتين أيضا حيث تفترض حداثة النمو الاقتصادى ، توضح الحقائق المتوافرة امكانية ظهور النمو لفترة أطول ٠ فدراسة اللجنة الاقتصادية لامريكا اللاتينية تبين أن كلا من الناتج القومى والانتاج الصناعى كان يتزايد باطراد منذ عام ١٩٠٠ ، ولم تزداد سرعة معدل التزايد بعد عام ١٩٣٠ عمـا كانت عليه من قبل(٣) ٠ وهناك اعتقاد أقوى ، بأنه لو كانت الحقائق متوافرة عن فترات أسبق ، لأمكن ارجاع بدأ النمو الى القرن التاسع عشر ٠ وهكذا يمكننا أن نقرر من واقع الأمثلة المتعـددة أن التحـــول الى النمو الاقتصادى يستغرق فترة تبلغ عدة أجيال ٠

وثمة استنتاج مناقض يمكن الوصول اليه أحيانا من تجربة انجلترا ٠ فبالرجوع الى أفضل البيانات المتوافرة نجد أن الانتاج الصناعى فى انجلترا وويلز كان يزحف متصاعدا وبدون انتظـام خـــلال الفترة بين عام ١٧٢٠ ومنتصف الستينات فى القرن الثامن عشر ، ولكن بعد انتعاش قوى لفترة سابقة قصيرة من ١٧١٠ الى ١٧٢٠ ٠ وفى الفترة التالية من منتصف الستينات الى عام ١٧٨٠ كان أقرب ما يكون الى الثبات ٠ ولم يلبث أن عاد يرتفع بسرعة

---

(٢) الأمم المتحدة ، تحليل الاقتصادى الكولومبى
United Nations, Analisis y Proyecciones del Desarrolo Economico, III, El Desarrolo Economico de Colombia (Mexico 1957).

(٣) الأمم المتحدة ، اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ، النمو الاقتصادى فى الأرجنتين
United Nations, Economic Commission for Latin America, El Dessarrollo Economico de la Argentina, Anexo, Algunos Estudios Especiales y Estadisticos Macroeconomicos Preparados para El Informe (Mimeographed, Santiago, Chile, June 30, 1958).

لحقبات تالية تمثل بداية الفترة الاقتصادية الحديثة . وقد جاء هذا الارتفاع السريع الفاجىء ومعدل التقدم ، مقترنا بعدد مرموق من الاختراعات على مدى ٢٠ سنة . ففى الفترة بين عامى ١٧٦٤ و ١٧٨٤ ظهرت فى صناعة النسيج آلة غزل جديدة ، ونول ميكانيكى للنسيج ، وطريقة جديدة لطبع التصميمات على القماش . كما أدخلت عدة تحسينات متتابعة على الآلة البخارية، واكتشفت فى صناعة الحديد طريقة محسنة لتنقية الحديد من الشوائب . وقد أدى التطبيق الفعلى لهذه المجموعة الفذة من الاختراعات الى استمرار التزايد السريع فى الناتج الصناعى .

وهكذا لم تكن مفاجأة بدأ الارتفاع راجعة الى قوة كان من المتوقع تكرار حدوثها فى أماكن أخرى . كما أنها لم تكن أيضا وفيما يبدو مقترنة بتغيير مفاجىء مماثل فى معدل ارتفاع الناتج القومى فى جملته . ان أحد الباحثين البارزين فى نمو انجلترا الاقتصادى يقدر زيادة الدخل القومى لانجلترا وويلز بمعدل سنوى قدره ٣ر٠٪ خلال الفترة ١٧٠٠ — ١٧٤٠ ثم بمعدل سنوى قدره ٩ر٠٪ خلال الفترة ١٧٤٠ — ١٧٧٠ ثم بمعدل سنوى قدره ٥ر١٪ خلال الفترة ١٧٧٠ — ١٨٠٠ ، ولم يلبث أن تجاوز هذا المعدل ٢٪ سنويا بعد عام ١٨٠٠ . وهكذا جـاء الاسراع فى معدل النمو وئيـدا وعـلى مدى فترة طويلة(٤) .

ولا يجوز أن نفترض أن التحول فى الأماكن الأخرى أيضا جرى بسهولة وبخطوات أكيدة . ومع أنه لا توجد لدينا بيانات تاريخية كافية ومؤكدة ، فان النمو الاقتصادى فى روسيا يحتمل أن يكون قد أسرع الخطى عقب تحرير العبيد والارقاء مباشرة فى القرن التاسع عشر . وفى اليابان بعد أن كانت الطاقات مكبلة بالبنيان الاجتماعى طوال الأجيال الأخيرة لحكم « التوكوجاوا »، شقت طريقها الى الانطلاق بعد نهضة « المايبجى » . ولو كانت لدينا حقائق أوفى لوجدنا أ نمعدل النمو الاقتصادى قد تصاعد فجأة خلال الحقبتين التاليتين لعام ١٨٦٨ . وقد يكون ممكنا سرد حالات أخرى لتحطيم الحواجز والعجز

---

(٤) وضع هذه التقديرات فيليس دين Phyllis Deane ونقلها عنه سيمون كوزنتس Simon Kuznets « الجوانب الكمية للنمو الاقتصادى للدول » ، الاتجاهات الطويلة الأمد فى نسب تكوين رؤوس الأموال — « التنمية الاقتصادية والتغيير الحضارى » المجلد ٩ العدد ٤ الجزء الثانى (يوليو ١٩٦١) والتقديرات المحددة بمدة ٣٠ سنة ويمكن الاعتماد عليها ، ولكن النمو كان متصاعدا خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن الثامن عشر ، واستمر بعد ذلك بوضوح فى القرن التاسع عشر .

المحتمل فى تواصل خطى التغيير الاقتصادى • ولكننا اذا بالغنا فى ابراز فترات التغيير ، لتركنا أنفسنا ننخدع بظهورها الفجائى وبأهميتها الظاهرة• فلقد وجدت بين طياتها وقبلها قوى ودفعات للتغيير عملت على مدى فترات أطول • وما كانت هذه الفترات لتتضح للمتابع العارض للتاريخ ، الا اذا تغير مدى ومعدل عملية التتبع • ان أهميتها لا تتضح الا اذا سألنا أنفسنا فى أية تحركات وتفاعلات كانت تعمل ، وكونا نظرية كافية للكيفية التى يعمل بها المجتمع •

الاتصال بالغرب :

لئن كان النمو الاقتصادى يتطلب قدرا أدنى من الاتصال بمعرفة الغرب الا أن توقيت وخطى النمو الاقتصادى فى المجتمعات المنخفضة الدخل لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمقدار الاتصال بالمجتمعات المتقدمة فنيا • بل وأكثر من هذا ، هى لا ترتبط فى جميع الحالات بمقدار الاستثمارات التى تستثمرها المجتمعات المتقدمة فى المجتمعات المنخفضة الدخل ، أو بدرجة ما أحدثه الاتصال بالغرب من هزة فى النظام الاجتماعى التقليدى •

ولا تتوافر امكانيات كثيرة للمقارنة ، لأن الدول التى أخذت بالتأكيد بسبيل النمو الاقتصادى تقدر فى حدود ٢٤ دولة تقريبا • ومع هذا فهناك حالات قليلة ملائمة • فكولومبيا مثلا كان معدل الهجرة اليها ضئيلا بعد القرن الثامن عشر ، وحتى حقبات حديثة كانت أقل اتصالا بكثير من البرازيل والمكسيك مثلا بالأوربيين والمراكز الأوروبية ، أو الولايات المتحدة • كما لم تحظ كولومبيا سوى باستثمارات أجنبية قليلة جدا حتى بعد الحرب العالمية الثانية • ورغم هذا فقد أخذت بسبيل تقدم مستمر فى التكنولوجيا وفى متوسط دخل الفرد قبل حقبة أو حقبتين من البرازيل والمكسيك • ولقد فشل الشرق الأدنى بأسره فى اظهار أية دلائل للنمو حتى منتصف القرن العشرين • وفشله هذا ، رغم ارتباطه بالتاريخ الأوروبى خلال عدة قرون ماضية ، لدليل قوى على أن الاتصال لا يكفى فى حد ذاته لاحداث النمو • ولعل أقوى دليل يبرز فى التاريخ المقارن لأربع دول أسيوية كبرى وهى أندونيسيا، الهند ، الصين واليابان •

لقد أقام البرتغاليون جسور اتصال مع جميع هذه الدول الأربع خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، ولكن اتصال هذه الدول الأربع بالغرب فيما بعد تباين الى حد كبير • لقد حل الهولنديون والانجليز محل

البورتغاليين فى اندونيسيا فى نهاية القرن السادس عشر · ومع بداية القرن السابع عشر وطد الهولنديون أقدامهم · وظلوا يحكمون المنطقة ويستثمرون فيها ، بل ويعيشون فيها بأعداد محسوسة ، منذ ذلك الوقت حتى منتصف القرن العشرين · وفى الهند حصلت شركة الهند الشرقية على أول امتياز أو منحة تجارة عام ١٦٠٨ · ولم يلبث الانجليز أن وطدوا أقدامهم ببطء فى شبه القارة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ·

فحتى عام ١٧٨٥ لم يكونوا قد أخضعوا سوى البنغال وشريط من الأرض على طول الساحل الشرقى · أما غزوهم لشبه القارة الهندية بأكملها فحدث خلال القرن التاسع عشر · وفى الصين ، باستثناء عمل الارساليات ، لم يحدث أى توغل أكثر من اقامة عدد من مؤسسات التجارة والتصنيع فى المدن الساحلية التى كانت تتخذ منافذ يفرض منها على الدولة الاتجار مع الداخل · أما اليابان فكانت أبعد وأفقر من أن تجذب اهتمام الدول الغربية مثل الدول الثلاث الأخرى · بينما نجح التوكوجاوا منذ عام ١٦٣٠ فى فرض سياسة عدم الاتصال بالغرب · الا عن طريق مركز تجارى هولندى صغير فى نجازاكى وقد سمحوا له بالبقاء كنافذة على الغرب ·

هكذا كان اتصال الدول الأربع بالغرب ·· اتصال مبكر وأوثق مع اندونيسيا ، وتليها فى ذلك الهند (ولو أن الفرق بين الدولتين لم يكن كبيرا) واتصال أقل مع الصين ·· والاتصال الأقل كثيرا مع اليابان · أما عن تأثر الحضارة الوطنية بهذا الاتصال فكان غالبا بنفس القدر ، ولكنه كان بالتأكيد الأقل فى اليابان · ولقد كان مستوى الدخل فى اليابان أعلى قليلا منه فى الدول الثلاث الأخرى فى القرن السابع عشر · أو لعله كان أقل · ولقد كانت الموارد الطبيعية بالنسبة للفرد فى المتوسط هى الأشد فقرا فى اليابان بين الدول الأربع · ولعله يصح أن نقول ان هذه الموارد كانت أكبر فى الهند واندونيسيا منها فى الصين · ورغم هذا فقد اقتحمت اليابان مجال التقدم التكنولوجى السريع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر · بينما تدخله الصين حاليا بقوة · أما الهند فقد أخذت بسبيله ولكن بخطوات أبطأ · وفى اندونيسيا ترجح العودة الى المستويات الأقدم على وجود التقدم · ومن ذلك يتضح أن آثار الاتصال بالغرب ، والتأثير فى الحضارة التقليدية ، وتوافر الموارد ليس لأى منها ارتباط بالتقدم ، كما لم تقض عليها أية مؤثرات أخرى ·

التغير الاقتصادى والاجتماعى والسياسى :

لقد خرجنا من نقاشنا التاريخى الموجز بأن النموذج الذى يفسر النمو الاقتصادى يجب أن يأخذ فى الاعتبار الجوانب غير الاقتصادية بقدر ما يأخذ الجوانب الاقتصادية للسلوك الانسانى • وهذا ما يترائى لنا أيضا من حقيقة كون الوضع الاقتصادى للمجتمع يرتبط ارتباطا وثيقا بوضعه السياسى ، وأن القوى التى تحدث التغيير فى أى من الوضعين تحدث نوعا من التغيير فى الوضع الآخر •

ان المجتمع الذى لا يحدث تغيير فى تكنولوجيته لا يحدث ثمة تغيير أيضا فى عناصر حضارته • ان الافتقار الى التقدم المتصل فى الوسائل الفنية طابع مميز لجميع المجتمعات التقليدية ، ولهذه المجتمعات التقليدية وحدها • وبالعكس حدث فى الدول التى تحولت الى النمو الاقتصادى تغيير بعيد الأثر وفى نفس الوقت فى نظمها السياسية • وبنيانها الاجتماعى ومواقفها من الحياة • فالعلاقة بين هذه المتغيرات من الوضوح ومن العموم بحيث يكون افتراض انعزال أحد هذه الجوانب للتغيير الاجتماعى عن الجوانب الأخرى شيئا لا يمكن تبريره وتحميلا لمذهب المصادفة أكثر مما يحتمل •

ولنلقى نظرة على سجل التاريخ • ففى بريطانيا جاءت الثورة الصناعية التى تجمعت قواها بالتدريج فى القرن الثامن عشر ، عقب بضعة قرون من التواترات الاجتماعية والدينية • واستطاع سكان المدن عن طريق ممثلى أجيالهم المتعاقبة فى البرلمان أن يحطموا تدريجيا صرح القوة السياسية • وفى نفس الوقت ظهرت معتقدات دينية غير اصلاحية • فقد كانت الكنيسة الكالفينية هى الكنيسة فى اسكتلندا ، وكانت مستندة الى معاونة الحكومة • وفى انجلترا حظت الكنيسة الانجليزية بنفس المركز • الا أن بعض الاسكتلنديين فى الأرض المنخفضة لم يقبلوا مذهب كالفن ، بينما كانت بعض الطوائف فى انجلترا لا ترى مذهب الكنيسة الانجليزية ممثلا للمسيحية الحقة • وقد كانت نسبة هؤلاء المتبرمين فى انجلترا واسكتلندا من بين الأناس الذين خلقوا التغيرات الاقتصادية أكبر بكثير من نسبتهم الى مجموع السكان عموما •

وفى دول غرب أوروبا بدأت الثورة الصناعية أثناء أو بعد التغيرات العنيفة فى الحكومة وفى النظام الاجتماعى التى امتدت من الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر الى ثورات منتصف القرن التاسع عشر • ولقد اقترنت

من حيث التوقيت بالغـــاء معظم عناصر العبودية والرق ، وبالتغير الملموس في مفاهيم العلاقات الملائمة بين الطبقات الاجتماعية ، وبنمو الحكومة البرلمانية. وفي اليابان جاء التقدم الاقتصادى المثير فى أواخر القرن التاسع عشر ، بعد فترة جمود طويلة حاول خلالها حكام التوكوجاوا ابقاء النظام الاجتماعى على ما هو عليه ، وجعلوا حكمهم متمكنا أو متغلغلا فأحدث من التواترات الاقتصادية والاجتماعية ما أضعف البنيان التقليدى للمجتمع اليابانى .

وفى روسيا قام بطريارك موسكو عام ١٦٦٧ بتعديل شعائر الكنيسة الارثوذكسية بما يتفق مع ما هو معمول به في الكنيسة اليونانية . وبدا هذا التعديل للكثير من أبناء الطبقات الأدنى المنخرطين فى الكنيسة ، تهديدا لعبوديتهم لله . وقد وقع الاضطهاد على هـــؤلاء المعتقدين القدامى بوسائل اختلفت غلظة وقوة من أواخر القرن السابع عشر حتى أوائل القرن العشرين. ولم تكن بالمصادفة أبدا أن يكون المعتقدون القدامى من أبرز رواد التطبيقات الاقتصادية الجديدة التى غيرت وجه روسيا فى القرن التاسع عشر .

وأخيرا ، نحن اذا قسمنا دول العالم الأقل تقدما الى ثلاث مجمـــوعات تبعا لما اذا كان نظامها السياسى سلطويا ، أو متنافس جزئيا ، أو متنافس بالكامل ، ثم نصنف هذه المجموعات تبعا لمستواها الاقتصادى مقيسا بمعايير معقولة ، أمكننا رؤية ما يؤكد بجلاء الترابط التاريخى . فاذا كان (أ) نظاما سياسيا متنافسا تراعى فيه مصالح مختلف الفئات قبل اتخـــاذ القرارات السياسية . فانه يبدو بصفة عامة أن الدول السلطوية هى التى يكون مستواها الاقتصادى هو الأكثر هبوطا ، وأن الدول المتنافسة جزئيا تكون أعلى مستوى ، وأن الدول المتنافسة بالكامل هى الأعلى مستوى . وحالات الاستثناء من هذه العلاقة الوثيقة هى فريدة من نوعها ، ولا تنال من وضوح الارتباط بين الانجاز الاقتصادى والبنيان السياسى(٥) .

تركيز القيادة :

يبدو من النماذج السابقة أن النمو الاقتصادى انما يجرى تحت قيادة أفراد ينتمون الى فئة اجتماعية قائمة بذاتها ، وليس بقيادة أفراد موزعين بالصدفة من خلال الجماعة .

ففى النصف الأخير من القرن الثامن عشر كانت نسبة غير المتمثلين من سكان انجلترا وويلز تقدر فقط بنحـــو ٧٪ . ولا يحتمل أن تزيد نسبة

المتبرمين الاسكتلنديين الذين لا يرتضون مذهب الكنيسة البرسبيترية على تلك النسبة ٠ وأعتقد أن ثمة حقيقية لها دلالتها بالنسبة للنظرية الاجتماعية الا وهى أن هذه الفئات المتبرمة وغير الممثلة كانت تضم نصف رجال الأعمال الذين طبقوا وسائل جديدة فى بريطانيا خلال القرن الثامن عشر وفى أوائل القرن التاسع عشر ٠ وبنسبتها العددية الى مجموع السكان فان هذه الفئات زودت التقدم بعشرة أمثال ما كان يمكن أن تزوده به من مخترعين ورواد فى تطبيق الوسائل الحديثة ٠ وذلك بالمقارنة بباقى فئات المجتمع ٠

وفى اليابان كانت قيادة التغيير الاقتصادى متركزة فى أيدى أبناء طبقة « الساموراى » الدنيا ، والعسكريين ، ومن سموا بالفلاحين الأغنياء ٠ ولو أنه لا توجد تقديرات للسكان مصنفين تبعا لفئاتهم الاجتماعية ، الا أنه من الواضح أن هذه الفئات هيأت أعداد غير متكافئة من القادة ٠

ولنأخذ كولومبيا كمثل أخير ٠ لقد جاء الغزاة الأسبان الى كولومبيا خلال ثلاثينات القر السادس عشر واحتلوا الهضبة العليا حول باجوتا الحالية (السابانا) ، ووادى نهر الكاوكا الأعلى (الذى يسمونه الوادى ببساطة) ووادى الانتيوكيا ٠ لقد كانوا يجدون فى البحث عن الذهب والمغامرة ٠ ولم يجدوا الا القليل من الذهب أو الفضة فى سابانا وفى الوادى ، ولكنهم وجدوا أرضا خصبة وصحية استقروا فيها كملاك لعزب أو حظائر ماشية كبيرة ، مستعينين بالهنود الوطنيين فى العمل اليدوى ٠ أما فى انتيوكيا فقد وجدوا بعض الذهب والفضة ، وتابعوا بعد ذلك اغتنام ذلك النوع من الثروة الذى تركز عليه الاهتمام فى انتيوكيا أكثر منه فى سابانا أو الوادى ٠ ونظــرا لصعوبة الحصول على ما يكفى من الأيدى العاملة تحول كثيرون من أصحاب الأرض الى عمال مناجم ٠

ولقد كان الغزاة فى جميع المناطق الثلاث من أحط الطبقات الاقتصادية والاجتماعية فى أسبانيا غالبا ، وليس من الطبقة الأعلى ٠ ولما صار المستوطنون فى المنطقتين الأخرتين مزارعين ومربى ماشية ، وكونوا بجهدهم طبقة جديدة مختارة ، نظروا نظرة الازدراء الى جيرانهم الأقذار فى انتيوكيا ممن يعملون بأيديهم ٠ وبدا هذا الشعور بالازدراء واضحا فى الكتابات الأدبية والتاريخية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ٠ الأمر الذى أثار ضغينة الاينوكيوس باعتبارهم كأسبان متساوين معهم فى الدم الأسبانى والحضارة الأسبانية ٠

وقد كانت بوجوتا هى المدينة المركزية الرئيسية فى كولومبيا خلال

فترة الاستعمار ، ثم تحولت الى عاصمة الدولة بعد الاستقلال . ولأهل باجوتا اتصالات أوسع بمختلف دول غرب أوربا من سكان انتيوكيا . هذا فضلا عن أن الطريق من كالى ، المدينة الرئيسية فى الوادى الى كل من باجوتا والمحيط الهادى ، أسهل بكثير من الطريق من انتيوكيا ومدينتها الرئيسية ماديلين . وهكذا كانت انتيوكيا أكثر المناطق الثلاث عزلة . ورغم هذا عندما بدأ النمو الاقتصادى كان أهل انتيوكيا هم الأكثر بين هؤلاء الـــذين طبقوا الوسائل الحديثة .

يتضح من هذه المراجع التاريخية الموجزة أن قادة التحول الى النمو الاقتصادى لم يأتوا عفو الصدفة موزعة على السكان ، كما لم يستقطبوا من فئات الطبقة الأعلى . كما لم تتوافر لهم أوسع فرص الحصول على المعرفة ورؤوس الأموال الأجنبية ، فهم على عكس ذلك جاءوا من الفئات الأقل حظوة ، والتى فقدت مكانتها فى النظام الاجتماعى ، بعد أن احتفظت بها تقليديا ، ولم تلبث أن وجدت نفسها الآن فى مرتبة أدنى .

ومن الصعب اعتبار هذا الجانب الاجتماعى المشترك لعملية التحول فى المجتمعات الثلاثة من نتاج الصدفة . وفى اعتقادى أن ظواهر مماثلة يمكن أن نجدها فى مجتمعات أخرى بحث نموها الاقتصادى بدقة . وما من تحليل لعملية التحول الى النمو الاقتصادى الا ويجب أن يأخـــذ هذه الظاهرة فى الاعتبار .

وجدير بالذكر أن نضيف أن الظاهرة ليست ظاهرة فئة غير مقبولة تماما من المجتمع . فقادة التحول كانوا أعضاء فى فئة كان لها وضعها المتقبل فى المجتمع التقليدى ، ثم لم يلبثوا أن وجدوا هذا الوضع فى طريق الزوال . لقد كانوا جزءا أساسيا فى المجتمع ، ثم لفظهم المجتمع جزئيا ، من الناحية النفسية على الأقل . ان لهذه الظاهرة دلالتها وقوامهـــا ولا يمكن أن تكون مجرد مؤثر خارجى .

الحاجة للابتكار الخلاق :

وآخر صفة مميزة للنمو الاقتصادى يبدو من المفيد مناقشتها فى هذا المدخل الى المشكلة ، هى أنه يتطلب دائما الابتكار أو التغيير الخلاق .

ان الابتكار الخلاق أساسى للتقدم التكنولوجى . فبدونه يتوقف التقدم . ولكن التقدمات التى تحققت فى الغرب ، هى هنا فى متناول ملاحظة العالم

أجمع · وفى استطاعة الاقتصاديات الأقل تقدما أن تطبقها · ومن هنا يقال انها قابلة للتقدم عن طريق المحاكاة بكل بساطة ، وانها ليست فى حاجة الى الخلق ·

ولكن اتضح رغم ذلك أن هذا غير صحيح · حقيقة أن التقدم التكنولوجى السابق وفى الخارج من شأنه أن يجعل هذا التقدم أيسر لمجتمع معاصر منخفض الدخل · وهذا صحيح لأن المجتمع يكون له الخيار بين بديلين ، اما نقـــل ومطابقة وسائل الغرب ، أو ابتكار وسائله الخاصة · وبدون التقدم السابق فى الخارج لا يجد فى متناوله الا البديل الثانى · ومع هذا فلابد من توافر قدر كبير من الابتكار الخلاق لكى يتحقق التقدم التكنولوجى فى أى مجتمع تقليدى معاصر ، تماما كما حدث فى المجتمعات المستمرة فى التقدم التكنولوجى، والتى بدأ فيها هذا التقدم أولا · والمدهش أنه مطلوب لأسباب تكنولوجية بحتة بالاضافة الى أسباب ثقافية واجتماعية أيضا ·

أولا ، أن مجرد محاكاة وسائل الغرب وببساطة أمر مستحيل · ان المشكلة الأوضح ، وليست المشكلة الأهم ، هى أن القوة العاملة المتاحة تختلف الى حد كبير ففى الغرب تستطيع جمهرة الناس قراءة التعليمات والبيانات · فضلا عن تفهمهم لسير الآلات ، ومن ثم لتشغيلها وصيانتها ، بحكم نشـأتهم فى مدينة ميكانيكية · ومن بينهم الكثير ممن حصلوا على مستويات أو درجات تدريب منوعة فى الهندسة والمعلومات والخبرات الفنية فى العلوم والمالية والمحاسبة والادارة · وانه لمن المستحيل تهيئة الرجال اللازمين لتيسير مشروع ما فى اقتصاد أقل تقدما ، أى تهيئة الأفراد المقابلين لهؤلاء ·

وأهم من هذا ، نرى الاقتصاد الغربى مركبا أو معقدا من الناحية الفنية (والحضارية) ، وليس بمجموعة من المفردات التكنولوجية المنعزل بعضها عن البعض الآخر ، والتى يمكن انتزاع أى مفردة منها واستخدامها بكفاءة فى مكان آخر بدون حاجة الى تكييف المهارة · فكل صناعة غربية تعتمد فى كفايتها على صناعات أخرى · وهى تفترض دائما توافر المواد وأجزاء الآلات والأدوات كما تعتمد أيضا على مشروعات تكميلية تقدم ما يطلب منها من خدمات فنية ومالية وادارية ، وعلى شبكة مركبة من تيسيرات وسائل النقل والمواصلات ، وعلى نظام معقد لخبرات الأعمـــال · أما فى المجتمع الأقل تقـدما فيفتقر الى الصناعات المكملة وصرح الخبرة فى الأعمال جد مختلف ·

والمحاكاة ببساطة ليست بالمستحيلة أحيانا فحسب · ولكنها أيضـــا

عندما تكون ممكنة تكون عادة غير ذات كفاءة . فالوسائل الغربيـــة تستخدم الكثير من التجهيزات المنتجة المكثفة للعمالة أو رؤوس الأموال الثابتة من آلات وأدوات ومبان وطرق وخزانات ومحطات قوى ونظم مواصلات . والمجتمعات الأقل تقدما أقل قدرة على تجميع مقادير سنوية كافية من الرأسمال ، حتى ولو تلقت مساعدات اقتصادية سخية من الغرب . وحتى اذا حاولت التقدم عن طريق استيراد الآلات والتجهيزات المطورة من الغرب ، فانها لا تطيق الحصول الا على ما يكفي لفائدة نسبة صغيرة من عمالها . وبحساب متوسط ما يستخدمه العامل من رأس المال في الغرب ، يتضح أن الدولة الأقل تقدما انما تستطيع أن تهيىء سنويا نفس القدر من الرأسمال/عامل لعدد من العمال أقل من معدل الزيادة السنوى في القوة العاملة . وبهذا يستمر في التزايد عدد العمال الذين لا يسعهم الا استخدام وسائل وتجهيزات العمل التقليدية . فيكون بذلك انتشار التقدم الفنى في سائر أنحاء الدولة عن طريق وسائل الغرب ، أمرا غير ممكن .

قد يتساءل القارىء متعجبا كيف لا يمهد استيراد الاقتصاديات الأقل تقدما لوسائل الغرب ، مستعينة بالمساعدات الاقتصادية والفنية بالاضافة الى جهودها الذاتية ، طريقها الأمثل . والجواب على ذلك انما هو في الصورة التى تنعكس لجهودها في نظرة الغرب . ولكن الواقع ، هو أن الدول التى تنمى اقتصادها بسرعة هى تلك التى تطبق الوسائل الغربية لأغراض مختارة فقط (مثل صناعة الصلب) وحتى في هذا المجال نرى هذه الدول تكيف هذه الوسائل بحيث تستخدم المزيد من العمـــال والأقل من التجهيز الآلى في العمليات التكميلية أو المساعدة . كما تعمل خلال اقتصادها في جملته على تطوير وسائل لاستخدام مبادىء الغرب بأدوات وتجهيزات أبسط ، وفي حالات كثيرة ، وابتكار وسائل جديدة لحل المشاكل القائمة .

ان الصعوبة الأعمق بكثير من هذه المشاكل الفنية . ولعله لا يكون من المبالغة اذا ذهبنا الى أن حل المشاكل الفنية هـــو أسهل جوانب التقـــدم التكنولوجى للدول المعاصرة المنخفضة الدخل . فهناك نوعان من العوائق الانسانية . أولهما أن الناس قد يجدوا في أنماط النشاط الجديدة تهديدا لوضعهم . فقد يرى صاحب المهنة أو المزارع المنتمى الى طبقة ملاك الأرض ، في مجتمع تقليدى ، في استخدام الآلات والأدوات مساسا بكرامته ، لأنها تستخدم عادة بواسطة الطبقة العاملة . بل قد يجد أبناء هـــذه الطبقة في استخدام الآلات نوعا من العبودية يشعرهم بالضيق . وأكثر من هذا ، فهم اذا قبلوا عملا يتطلب تواجدهم في أحد المواسم وغيابهم في موسم آخر ، قد

يجدوا أنفسهم مضطرين لوقف تأدية مهام استقرت فى وجدانهم أهميتها بالنسبة لعائلاتهم ، أو مجتمعاتهم أو دينهم .

ولعله من الأكثر أهمية أن البحث عن حل لمشكلة فى مجال موضع الاهتمام ، يتطلب سلوكا ذهنيا معينا . وهناك ما يبعث على الاعتقاد بأن واحدا من شروط ابقاء المجتمع مجتمعا تقليديا ، هو غياب هذا السلوك ، فيما عدا بالنسبة لعدد قليل من الأفراد . بل بالعكس تؤدى مواجهة المشاكل الى التوتر . وتجنبا للتوترات التى تنجم عن محاولات حل المشاكل ، يحدث تخوف من محاولة الأخذ بسبيل التغيرات الفنية ، حتى من جانب قادة الجماعة. ومن ثم فان التغيرات فى السلوك التقليدى التى تعد ضرورية للنمو الاقتصادى، لا تطبق الا اذا كرس قدرا محسوسا من الابتكار الخلاق الى مهمة العمل على جعلها مقبولة للناس ، أو اذا وجدت توترات وضغوط اجتماعية تكون من الشدة بحيث تحدث تغييرا فى سلوك الناس . أو قد يكون هذان الشرطان ضروريين معا . فقد يكون صحيحا أنه ما من مجتمع بدأ تغيره التكنولوجى فى الماضى ، أو بصدد الأخذ بسبيله فى المستقبل ، الا وينجز ابتكارات خلاقة فى حل مشاكله الاجتماعية والفنية على السواء . وقد يصح أيضا أن الابتكار الخلاق لا يتأتى الا حيثما تبدأ التواترات داخل المجتمع فى احداث تغيير فى الناس . فكيف تحدث التواترات الاجتماعية ذلك ؟ هذا هو محور البحث فى هذا الكتاب .

فلكى نحقق جدوى الابتكار التكنولوجى الذى تقوم به قلة من السكان ، يجب أن تتقبل الفئات الأكبر الأخرى هذا التغيير ، مع تكييف نفسها له . ولسوف أعطى فى هذه الدراسة أهمية أولى الى عملية الابتكار والاختراع . وما كنت لأفعل هذا لاعتقادى بأن المبتكر الحق يستطيع أن يذلل كل ما يعترضه من عوائق ، ولكن لأن ظهور مجرى من الابتكار التكنولوجى فى مجتمع كان يفتقر اليه من قبل الى حد كبير ، هو فيما يبدو الأكثر صعوبة والأكثر اثارة للاهتمام من هاتين المشكلتين . ومع هذا فسوف أناقش باختصار مشكلة تقبل التغيير .

الفصل الثانى

الأساس التاريخى لنظرية النمو

من شأن الأحداث التاريخية التى سردتها أن توحى بأن عوائق النمو الاقتصادى هى داخلية أكثر منها خارجية ، وأن أسباب النمو قد تكون أيضا داخلية • ومن هنا يجب علينا أن نفهم طبيعة المجتمعات التقليدية ، وما بينها من اختلافات ، اذا أردنا أن نفهم لماذا تأخذ بعض المجتمعات التقليدية بسبيل النمو الاقتصادى قبل البعض الآخر • ويعالج هذا الفصل السمات المميزة للمجتمع التقليدى والعلاقات التى من شأنها أن تجعل الطابع التقليدى يستمر لعدة قرون • ويهمنا هنا بوجه خاص المجتمعات التقليدية الفلاحية ، لأن الناس فى مجتمعات الصيد والرعى ، ليس لهم مساكن مستقرة ومن ثم يصعب عليهم تجميع أشياء كثيرة والأخذ بسبيل التقدم التكنولوجى المتواصل •

ويكون المجتمع تقليديا اذا كانت العادات هى التى تحكم التصرف ، واذا ظلت أساليب التصرف لا تتغير الا القليل من جيل لآخر • كما تكون الطبقات الاجتماعية فى المجتمع التقليدى هرما تتكون قاعدته من الفلاحين والعمال وقمته من مجموعة صغيرة من الأفراد الأقوياء • وتنتقل مراكز الأفراد فى المجتمع عادة بالوراثة وليس بالجهد الشخصى ، وذلك فيما عدا حالة نجاح احدى الفئات أحيانا فى أن تفرض بالقوة سيطرتها السياسية على الدولة • وتكون الكفاية الاقتصادية منخفضة •

لقد تواجدت المجتمعات التقليدية الفلاحية قبل قيام الثورة الصناعية بآلاف السنين • ولكنها لم تظل تقليدية تماما طوال هذه السنين • فلقد تخللتها من وقت لآخر فترات اتسمت بتكثيف نشاط الابتكار ، وقد امتدت هذه الفترات فى بعض المجتمعات الى قرن أو نحو قرن ، وامتدت فى مجتمعات أخرى الى أكثر من ذلك ، ولكنها لم تصل فى أى منها الى الألف عام • لقد تكونت امبراطوريات تمخضت عنها حياة المدن ، والتنظيم السياسى ، والادارة بعيدة الأثر ، وقامت ببناء وصيانة مرافق عامة ممتدة ونظم تسجيلية أو حسابية مركبة ، ومواصلات أو وسائل اتصال • لقد نما التطور الحضارى على

حافة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتواصـــل خطوة بخطوة من الكتابة التصويرية الى استخدام حروف الهجاء ، من الوسائل الأولية للتسجيل الى نظام استخدام الأرقام أو الأعداد ، ومن الفن البدائى الى انجازات الاغريق • لقد أصبح الفينيقيون تجارا ورجال بحر ومستعمرين • وحدث تقدم علمى محسوس فى عدة دول كبرى فى آسيا وفى اليونان وروما • وانبثقت فلسفات نبيلة فى الهند والصين ، وفى اليونان وأماكن أخرى • وأثناء العصور الوسطى ـ وهى العصور التى توسطت بين العصور القديمة والحديثة ـ حدثت فى غرب أوروبا سلسلة متعاقبة من التطويرات الفنية فى الزراعة أدت الى زيادة كفاية الانتاج •

لقد كانت هناك حاجة الى الابتكار الخلاق لانجاز هذه التغيرات ، وفى كل حالة توقفت لبعض الوقت هيمنـــة التقاليد • وفى معظم ان لم يكن كل فترات التغيير لم تعد الوراثة وحدها هى التى تحدد مركز الفرد الاجتماعى • وفى كل حالة ازدادت الكفاية الانتاجية بمدلولها الواسع • ولكن مع ذلك كان المصير المشترك لهذه التباعدات السابقة للصناعة عن التقاليد هو توقفها جميعا فى النهاية •

لقد كانت المجتمعات التقليدية الفلاحية هى باختصـــار حالة مستقرة ابتدأت منها التحركات ، ولكنها كانت فى المدى الطـــويل مجرد تحركات مؤقتة • ولئن كان كثير من الناس يظنون أن الفترة الحاضرة للتقدم التكنولوجى قد أحدثت تبديلات دائمة فى الصفات الأساسية للمجتمعات التقليدية ، فان التأكد من ذلك سابق لأوانه • وعلى أية حال ، ففى كثير من المجتمعات فى عصرنا الحاضر لا يزال المركب التقليدى الكامل قائما ، أو يكون قد أخـــلى الطريق لتغيير تلاه حديثا مع بقاء الخطوط الرئيسية القديمة واضحة الرؤيا •

ولما كانت هذه هى المجتمعات التى يهمنا بوجه خاص سلوكها المستقبل، فانى سأعرض المجتمعات التحضيرية فى وضعها القائم • ولعل من المفيد تقديم شرح واف ، ولو اجمالى ، لبعض العلاقات داخل المجتمعات التقليدية ، ليكون أساسا خلق نموذج للعلاقات التى تسبب بقاء الوضع التقليدى للمجتمـــع مضادا للتغيير من قرن لآخر •

المجتمع التقليدى كمجتمع زوجى أو ثلاثى :

لا يتكون المجتمع التقليدى الزراعى من الفلاحين والقرويين فحسب • فكل مجتمع تقليدى ذى أهمية هو مجتمع مزدوج • انه يتكون من عدد من

القرى من جهة • ومن بعض المدن الأكبر ، فضلا عن مدينة مركزية كبيرة أو أكثر • والمدن الكبرى هى مراكز الحكومة ، والمراكز الاقليمية القوية ، والمراكز التجارية(١) • وتتألف الجماعة من الفلاحين وطبقات حرفيين أخرى على نفس المستوى الاجتماعى تقريبا ، ومن جهة أخرى من فئات مختلفة على مستوى اجتماعى أعلى • وسوف أشير الى الفلاحين والحرفيين والعمال وصغار التجار بالعامة (عامة الشعب) والى الطبقات الأخرى بالصفوة(٢) ، مع فصل كبار رجال المال أحيانا كطبقة ثالثة قائمة بذاتها •

ومحور الصفوة هو بالذات طبقة لها قوتها السياسية من كبار ملاك الأرض ، كما لا تزال فى جل دول أمريكا اللاتينية وفى الشرق الأوسط ، ولو أنها بدون نفوذ سياسى فى مصر والعراق ، وفى سيريلانكا ، وحتى فى الهند حيث بدأ تحطيم أغلال التقاليد ، وانخفض الى حد كبير النفوذ الاقتصادى والسياسى لهذه الطبقة • وحول أو تحت هذا المحور المركزى ، نجد قليلا من الموظفين ، والأطباء والمحامين وغيرهم من أرباب المهن الحرة ، والكتاب ، والمعلمين وغيرهم من المثقفين ، ورجال الدين ، والعسكريين • وقد تؤلف الصفوة من ملاك الأرض وعائلاتهم نحو ١٪ فقط من مجموع السكان • بينما تؤلف الصفوة فى مجموعها على المستوى القومى باضافة أفراد عائلاتهم وباستثناء الفئات الأدنى من رجال الدين وموظفى الحكومة ، نحو ١٪ من مجموع السكان • وقد ترتفع هذه النسب الى الأربعة أو الخمسة أمثال تبعا لتاريخ الدولة الحضارى والاجتماعى •

ويأتى تحت الصفوة ، الفلاحون ، والعمال غير الفنيين ، والعمال المهرة وأرباب الحرف الذين يبيعون منتجاتهم فى حوانيت يعملون فيها ، وليسوا تجارا • والفلاحون يفوقون جميع الفئات الأخرى عددا • وعادة يكون وضعهم

---

(١) أوضح سيوبرج كيف أن المدن فى المجتمعات المنخفضة الدخل فى عصرنا هذا تشابه مدن المجتمعات التقليدية الأخرى عبر التاريخ ـ انظر جيديون سيوبرج : « المدينة قبل الصناعية فى الماضى والحاضر » ، ١٩٦٠
Gidean Sjoberg, "The Pre-Industrial City, Past and Present" (Free Press of Glencoe, Inc. 1960).

(٢) انظر مثلا : روبرت ردفيلد ، « المجتمع الفلاحى والحضارة » •
Robert Redfield, "Peasant Society and Culture" — Chicago, University of Chicago Press, 1936.

أعلى من وضع العمال المهرة وأصحاب الحرف ، الذين يتعالون بدورهم على العمال الزراعيين الذين لا يملكون أرضا وعمال المدن غير المهرة ٠

التجار الكبار :

توجد فى المجتمعات التقليدية ، فيما عدا الصغير والمنعزل منها ، طبقة من كبار التجار المولين الذين يمارسون التجارة على نطاق واسع ، ويقومون بأعمال الاستيراد والتصدير والتجارة المنفصلة عن الانتـــاج ٠ وقد يقدمون القروض للفلاحين والأمراء ٠ الا أنهم على الرغم من قوتهم الاقتصادية لا تتقبلهم الفئات الأخرى من الصفوة كأنداد ، ولا تعطيهم نفس الوزن أو المكان الطبيعى المناسب فى المجتمع ٠

وفى قرى معظم المجتمعات التقليدية يعطى الناس أهمية كبيرة لواجب المعونة المتبادلة والتكافل الاجتماعى ، وبين العامة والشرائح المتتالية للصفوة يوجد شعور بالالتزام الجمـاعى والتكافل ٠ انهم يكونون ما يمكن أن يسمى بالرجال الاقتصاديين الأوائل ، الذين يرعون أنفسهم أولا وبطريقة لا تنطبق على أفراد المجتمع الآخرين ، ولا يراها هؤلاء اجتماعية ولا يرونها أخلاقية ٠ ولا شك أن هذا هو سبب عدم وجود ممولين تجار فى بعض الجماعات ٠

وازاء هذه النظرة التقليدية الى الممولين التجار لا يحسن اعتبارهم ضمن الصفوة ، ويتعين بذلك اعتبار المجتمع التقليدى ثلاثيـا ، وليس مزدوجا فى تقسيماته الطبقية الرئيسية ٠ ولكن الممولين التجار أقرب الى الصـفوة بحكم قوتهم الاقتصادية ، وقوتهم السياسية أحيانا ٠ وعليه ولأسباب أخرى كثيرة قد يكون من الأوفق ابراز الطابع المزدوج للصرح الطبقى ٠

الفلاحون :

القرية :

تتكون القرية الفلاحية ، كنموذج سائد ، من عدد البيوت المكومة على طول شارع قذر أو بضعة شوارع قذرة يقطع بعضها البعض الآخر ٠ ويتكون البيت الواحد عادة من حجرة واحدة ٠ وفيما عدا الدول الباردة ، تكون الأرضية هى تراب الأرض ٠ وحيثما ينمو نبات البامبو ، يتألف البيت عادة من جدران من عيدان البامبو وسقف معلق على برواز من الواح البامبو ويصنع السقف من أوراق البامبو أيضا ٠ وفى المناطق الأخرى قد تصنع الجدران من الطين ، أو الطوب اللبنى ، أو القش ، أو الألواح ، وربما من حزم من الغـــاب أو

الجريد . أما بيوت العمد وكبار الملاك من الصفوة وقليل من الفلاحين الأغنياء فتكون جدرانها من الخشب أو الطوب وأرضيتها خشبية .

وفى مكان ما فى الشارع يوجد منسك أو معبد القرية ، واذا وجدت مدرسة فانها تعلم فقط المبادىء الأولية للقراءة والكتابة ، وتركز جهودها بوجه خاص على التعاليم القدسية والفضائل التقليدية . ويكون مكان الاجتماعات فى القرية هو المدرسة أو دار العبادة . وفى وسط أو على حافة أكوام المساكن ، قد يوجد بئر القرية أو صهريج مياهها . وبالقرب منها توجد حظيرة وشادر للأخشاب . وفى الفدادين المحيطة بالقرية توجد الحقول . وحوالى نصف سكان العالم فى الوقت الحاضر يعيشون فى مثل هذه القرى .

اقتصاد القرية :

فى معظم المجتمعات التقليدية تقوم كل عائلة فى القرية بزراعة الأرض، فيما عدا عائلات المدرس ، ان وجد ، والقس أو الكاهن . وفى كل قرية يوجد نسيج يدوى ، وصناعة نعال ، ونجارة ، وصناعة شمع وما الى ذلك من الأنشطة . تلك ومع اضافة متجر أو مخزن قرية صغيرة ، ان وجد ، هى حرف تكميلية تزاولها بعض الوقت عائلات تتخذ من الزراعة حرفة أساسية . وفى بعض المجتمعات التقليدية قد توجد حرف كل الوقت . وفى القرى الأكبر والمدن قد توجد متاجر يديرها أفراد ليسوا بحرفيين ولا يمارسون حرفة أخرى غير التجارة . والوسائل الفنية بدائية فى كل مكان . وأداة نقل الأثقال الصغيرة هى القفة على الرأس . وحراثة الأراضى تجرى بمحراث خشبى له طرف من الصلب ، أو الزحافة أو البتانة اذا تطلب المحصول ذلك . وهذه الأدوات تجر بواسطة البقر أوالجاموس أو الجمال . ويجنى المحصول بالمنجل أو باليد . وتخرج الحبوب بأن تدهسها أكثر من مرة الثيران أو الحيوانات الأخرى ، ثم تقلب من أعلى الى أسفل الأرض عدة مرات بغية أن يذهب الهواء بغير المفيد منها . وفى هذه الأنشطة وأمثالها ، باستثناء القليل ، يحل أعضاء المجتمع التقليدى مشاكل الحياة بعمل ما كان يعمله أجدادهم من قبل .

وانها لاحدى أفكارنا عن السمات المميزة لحياة الفلاح ، أن العديد من ملايين الفلاحين يناضلون من أجل الكفاف على قطع صغيرة من الأرض لا تجاوز مساحتها الفدانين أو الثلاث . وهذا صحيح بالنسبة للصين ، وكوريا واليابان ، وجاوة ، وسيريلانكا ومصر . وفى مجتمعات فلاحية أخرى قليلة العدد ، تتوافر الأرض نسبيا وتكون حيازة العائلات الفلاحية من الأرض

بقدر كاف بالنسبة للعائلة الواحدة التى تستخدم الوسائل والأدوات الشائعة الاستعمال • ولما كانت الأرض بالنسبة للفلاح هى مركز الحياة ، فان ملكيتها أو اذا تعذر ذلك ادارتها ، الأمر الأكثر حيوية عنده من أى جانب آخر للحياة المادية • ففى معظم المجتمعات التقليدية (باستثناء الصين ، واليونان وروما فيما مضى) كانت تغلب على الفلاح غريزة الاستخدام بالتملك كما يسميها علماء الأجناس الذين يدرسون تقاليد الأجناس ، وذلك قبل ادخال الغربيين لنظم نقل أو تداول ملكية الأرض باسم التقدم(٣) • لقد كانت الاقامة فى القرية رهنا بحيازة الأرض • ولم يكن الفرد ليملك الأرض ، بل كانت تملكها العائلة ، طالما تبقى العائلة فى القرية • واذا ما اضطرتها كارثة الى ترك القرية ، تركت الأرض ليحوزها آخرون وكان السيد الأعلى ، ان وجد ، يجبى اتاواته ، ولكن الأرض لم تكن ملكا له •

والقرية الفلاحية النموذجية لا تتمتع تماما بالاكتفاء الذاتى • ومجموعات القرى تعقد أسواقا دورية مشتركة بين بعض القرى والبعض الآخر فى فترات تتراوح عادة بين خمسة وعشرة أيام • ويتم فى هذه الأسواق تبادل المنتجات الحرفية المتخصصة على مساحة أوسع • واذا كان فلاحو القرية ينتجون منتجات هامة للأسواق الدولية ، يقوم وكلاء كبار التجار بشراء هذه المنتجات من الفلاحين ، الذين يشترون بدورهم من العائد عليهم المنتجات الصناعية المستوردة وبعض السلع الهامة القليلة التى يؤتى بها من الخارج أو من المدن التجارية المركزية • وكانت هذه العمليات التجارية تتم بواسطة أكثر وسائل النقل والمواصلات بدائية ، ما لم يكن الحكام المستعمرون قد عملوا على تحسينها •

القوة المحدودة للفلاح :

وثمة قوة حاكمة تؤثر فيما يبدو فى كل من نموذج العلاقات الاجتماعية وشخصية الفلاح ، الا وهى ادراك الفلاح لمحدودية قوته • فالحياة تبدو للفلاح لغزا بمعنى الكلمة بينما لا تبدو للرجل العصرى كذلك • ان محاصيله تزدهر عندما يكون الجو موائما • فاذا حل الجفاف أو هطلت الأمطار بغزارة تدهورت

---

(٣) كانت الأرض فى الهند قابلة للتحويل قبل دخول الانجليز • ولم يكن الحائزون ليطردوا من أراضيهم فى الواقع ، كما كان الملاك يتلافون فقدان الوضع الاجتماعى فلا يبيعون الأرض الا لأقاربهم • وكانت الملكية بالحيازة هى السائدة وقد يصح هذا أيضا بالنسبة للصين فى الفترات الأولى لتاريخ الصين ، وكذلك بالنسبة لروما واليونان القديمة •

المحاصيل · أو قد تهشمها العواصف · وما شيته تعيش لتدر عليه الرخاء المعقول ، وتموت فتصيبه بكارثة · وفوق كل هذا فان زوجته وأولاده يعيشون أو يموتون لأسباب لا يستطيع فهمها بوضوح · ان نصف أولاده يموتون قبل سن الخامسة ، أو يموتون قبل اكمال سنة واحدة اذا كان يعيش فى بيئة أقل مواءمة · وهو يشعر بالعجز فى مواجهة هذه الأحداث ، اللهم الا اذا تصور امكان دعوة الأرواح لمساعدته · ان السمات الرئيسية لشخصيته، وعلاقاته الداخلية فى المجتمع ترتبط فى نظرى ارتباطا وثيقا بشعوره بعجز قدرته ·

العلاقات الشخصية المتداخلة فى القرية :

فى عالم كهذا ، تتكون فيه الأسرة من الزوج والزوجة واولاد ، يكون عدد الأولاد الذين يتيتمون بوفاة والدهم كبيرا ، لأن الموت ينقض على البالغين كما ينقض على الأطفال · ومن ثم فالوحدة المنطقية للأسرة هى العائلة الممتدة على عدة أجيال ، والتى يشعر جميع أفرادها بمسئوليتهم عن الجميع · وفى هذه العائلة الممتدة بأقصى صورها تجمع الموارد الاقتصادية للعائلة فى صندوق مشترك يكون لكل فرد حق أخذ ما يحتاج منه بشرط موافقة كبير العائلة وبهذا لا يكون للفرد ماله الخاص الذى يستغله فى أعماله الخاصة · فالفرد ليس بالوحدة الاقتصادية ، ولكن الوحدة الاقتصادية فى القرية هى العائلة الممتدة وحدها ·

وحتى اذا لم توجد الأسرة الممتدة فى صورتها القصوى ، فان المجموعة العائلية تمتد عادة الى سلالة عدة أجيال فى الأشخاص الأحياء الذين تولدوا عن رب العائلة الكبير ، ولا يتفتت هؤلاء الى مجموعات أصغر الا بعد وفاة هذا الكبير وتكوين كل من أبنائه لمجموعة عائلية من خلفه ·

والعائلة المتحدة بصرف النظر عن الناحية الاقتصادية تكون وحدة وثيقة العرى متماسكة فى الدفاع والهجوم · فكل فرد يدرك أو يعى شرف عائلته ، وتبعاتها الدينية والاجتماعية وسائر حقوقها والتزاماتها كجماعة وكل فرد يمثل العائلة بأسرها · وكل تصرف حسن يصدر عن أى من أفراد العائلة يشرفها كلها وكل تصرف سىء يسىء اليها كلها ·

ومن وسائل دفاع الفلاحين عن أنفسهم ضد طوارىء ومصاعب الحياة اقامة نظام من المعونة المتبادلة بين أفراد القرية أو أفراد العشيرة فى عدة قرى · فأفراد المجموعة يعاون بعضهم البعض الآخر فى وقت الزرع وفى وقت

الحصاد وربما فى صيانة الممرات وقنوات نقل المياه الى الحقول · وفى بعض المجتمعات تتعاون المجموعات فى بناء البيوت ، وفى مناسبات الولادة والوفاة والزواج وأية حفلات بمناسبات أخرى ، وتتعـاون فى كل مكان حيثما تقـع الكارثة · ان الحياة تعتمد على هذا العون المتبادل ، وبدونه لا يمكن انجاز الكثير من المهام الاقتصادية والمهام الدينية التى لها دلالتها العاطفية الكبرى · وما من عقوبة أقسى على نفس الفلاح فى حياته الاجتماعية من أن تمنع عنه معاونة المجموعة بسبب انتهاكه لعلاقاتها التقليدية · وما كان هذا ليعنى أن مصالح القرية مبداة عند الفرد على مصالح عائلته ، أو أن العلاقات القروية هى المثالية فالمعونة المتبادلة ليست مجرد سـخاء أفراد فى مساعدة أحـدهم للآخر عندما تكون هناك حاجة للمساعدة · وهناك ما يدل فى ضوء دراسات عديدة على أن عائلات الفلاحين لا تخلو من نزعات عدائية ضـد بعضها ، أو لا يرتاب بعضها فى البعض الآخر ، أو على الأقل يحذر منه · فنزعة العدوان كصفة أساسية فى الشخصية الانسانية توجد فى العامة أو البسطاء ، ولو أنهم قد لا يشعرون بميولهم العدوانية ·

وهناك مراعاة جد حريصة على رد أية مساعدات أو مجاملات فى تبادل المعونة المشتركة ، فأنصاف أيام العمل المؤداة ، وعدد الكعك المهدى فى حفلة عائلية ، تسجل بدقة لكى تسدد بالتمام عندما تحين الفرصة المناسبة · ومن أسباب هذه الدقة فى رد الجميل ضرورة تجنب شعور أية عائلة بأنها قـد غبنت · أنه من الواجب الاحتفاظ بالتوازن فى العلاقات الداخلية بالقرية · والمبادلات بين العائلات لا تجرى طبقا لعقود · وذلك لأن أعضاء القرية يجب أن يعيشوا على اتصال ودى طويل فى العالم غير المستقر ، ومن شأن فرض عقد جامد أن يسبب المشقة لعضو فى القرية ويهدد بذلك علاقاته الاجتماعية فى القرية طوال حياته · وبالمثل قد يؤدى تطبيق القواعد الجامدة للقانون المدنى أو الجنائى على نحو يضع أحد أبناء القرية فى موقف غـير عادل ، الى تهديد بنيان العلاقات الذى تعتمد عليه حياة القرية· ومن ثم لا يوجد بالمجتمع التقليدى الحق ترتيبات تعاقد أو قانون عام · فكل اعتداء من أحد الأفراد على آخر يخضع لحكم كبار القرية · وعندما يتم الوصول الى اتفاق يوفق بين المصالح المتشابكة ، يقوم رئيس القرية أو العشيرة باعلان الاتفـاق كحكم استخدم سلطته فى التصديق عليه ·

ويعبر القروى عن عدوانيته خارج القرية بحرية أكثر منه فى داخلها ، لأن ارتباطه العاطفى قوى بمجتمعه وليس بدولتـه · والشخص من خارج القرية ، أو المجموعة المحلية من القرى هو فى نظره أجنبى · وفى كثير من

المجتمعات التقليدية يعد هذا الشخص خطرا لانه أجنبي · وهـــو كأجنبي عرضـــه للغش والسرقة ، وكشخص خطر يتعرض لخطر فقـد ليس ملكيته فحسب ، بل وحياته أيضا ·

بنيان السلطة

ان أكبر الرجال سنا هو الذى يحكم القرية ويسدى لها النصح · وهو يحكم طبقا لصرح سلطة مبنى على السن والجنس ، أو الفئة الاجتماعية · ففى جميع المجتمعات التقليدية على الأرجح ، ينتظر من الأولاد بعد انقضاء سنوات الطفولة ، أن يهيئوا أنفسهم لما يريح البـــالغين · ففى كثير من المجتمعـات التقليدية تخضع الأخوات لسلطة الأخوة ، ويخضع الأولاد الصغار لســلطة الأولاد الكبار ، بينما يتسلطون على أخواتهم والأولاد الأصغر منهم · وهـــذه المراتب للسلطة العائلية هى أساس البنيان السلطوى الذى يمتد الى أعلى حتى ذروة السلطة والمركز على قمة المجتمع ، لان العائلة أو العشيرة عمـوما تسلم بالامتثال للأفراد الذين هم فى المركز الأعلى فى بنيان السلطة ·

والولاء أكثر من مجرد شىء مظهرى · اذ تكون العـــلاقة بين الفـــلاح ورئيسه قائمة على الالتزام المتبـادل · الأفراد الأدنى عليهم التزامات معينة قبل الأفراد الأعلى فى السلطة · وعلى الأفراد الأعلى التزامات الحماية واسداء النصح ، والمساعدة فى حالات الطوارىء ، والعمل كقاضى أو محكم ، ودعم احتفالات القرية أو أعيـــادها ، بما فيها مباركة العيد السنوى ، وحضـور احتفالات المواسم والاحتفالات العائلية لمناسبات لها قيمتها العاطفية ·

المعقولية والدين والسحر

يمتد جانب التبعية فى بنيان السلطة الى أعلى فيما وراء الانسان الأعلى مكانة الى القوة الروحية التى تبدو مسيطرة على ظاهرة الطبيعة فالفلاح فى ممارسته لعمله من أجل الحصول على الرزق ، انما يعمـــل بشدة وبحذق ، وبمعقولية كبيرة ومعرفة تجمعت عبر الأجيال · ولكنه يشعر فى أمور أخرى مثل العاصفة والقحط ، وكمية السمك فى أحواض صيد الأسماك ، وهلاك المحاصيل والماشية والســـلالة ـ أنه لا يستطيع بجهده المبـــاشر أن يكفل لنفسه الاطمئنان والسلامة من الكارثة · انه ينسب هـــذه الأحداث ، التى لا يشاهد أسبابها ، الى فعل قوى غير منظورة ·

ولما كان الجهد المباشر عديم الجدوى ، فهو يسعى عن طريق السحر أو أية وسيلة مماثلة الى حث القوى الروحية على أن تصادقه أكثر مما تضره ·

وهكذا تكون العلاقة بالروحانيات مسألة حيوية فى كل مجتمـــع تقليدى ٠ ولئن كانت لا تهيمن فى الواقع على مسائل غير مؤكدة ولها قيمتها العاطفية ، الا أنها تعمل على التخفف من القلق ٠

نظرة الفلاح الى البنيان الاجتماعى

بقدر ما لا تتاح للفلاح القدرة على التأثير فى أى من الظواهر الطبيعية الواسعة المدى والتى لها أهميتها العظمى بالنسبة له ، بقدر ما لا يتـاح له وللتغيير كسب تجاوب البنيان الاجتمـــاعى ٠ انه يكرم الكبار فى مجتمعه وينظر الى الصفوة المتربعة على القمة كما لو كانت فى عالم بعيد عن متناوله ٠ وهو ينظر الى الأوضاع الطبقية فى مجتمعه كفئات أعلى وأدنى ، ولا يجدها مناسبة فحسب ، بل يراها أيضا سليمة ٠ ان الدنيا على ما هى عليه ٠ وهو يستبعد كل تفكير فى العمل على تغييرها ٠

الصـــفوة

التكوين الطبقى

فى مركز الصفوة يوجد أصحاب السلطة فى المجتمع ، وهم مجموعة الأفراد الذين يهيمنون عـلى أرض الدولة ويحصلون عـلى أوفر نصيب من الدخل القومى ٠ وقد يكونون محليين ضيقى الفكر وجاهلين لمـا يجرى فى العالم ٠ وقد يكونون قد تعلموا فى الغرب وأكثروا من السفر ٠ وفى أى من الحالتين ، هم يهيمنون على المجتمع ، طالما يظل مجتمعا تقليـديا ٠ وهيمنتهم عليه لا تستند الى القوة بالضرورة ٠ فالى أن تهب على المجتمع التقليدى خلال الأجيال السابقة رياح أفكار جديدة ، تظل الصفوة مهيمنة لأن الفلاح يعتقد أنه لا مفر من هيمنتها ، ان لم ينظر اليها كأمر طبيعى أو حق ٠ وهو اذا أدلى بصوته فى الانتخابات ، يصوت كما يوجهه حاميه ومالك أرضه ٠

نظرة الصفوة الى العالم

يرتدى معظم أبناء الصـــفوة الملابس الغربية ويقودون الســـيارات الغربية ، ويتحدثون عن فن وثقافة الغرب ، ولا يبـــدو للغربيين ثمة فارق بينهم ٠ وهكذا لم يعد البعض منهم تقليديين فى شخصياتهم ٠ ومـــع ذلك وفى عصرنا هذا ، فان أبناء الصفوة فى المجتمعات التقليدية ، بما فيهم هؤلاء الذين كثيرا ما يزورون مراكز الغرب العـــالمية ، يحتفظون بقيم ودوافع ، ونظرة الى العالم وشعور بالانتماء تختلف اختلافا بينا عما يقابلها عند أبنـــاء الطبقات المتوسطة أو العليا فى المجتمعات ذات التكنولوجية المتقدمة :

ان أبناء الصفوة أقوياء قوة كلية بمعنى الكلمة٠ وتعتمد قوة الصفوة على مركزها المتوارث ، وليس على الانجـــاز الفردى ٠ وقد يستطيع أحد أبنـاء الصفوة أن يحصل على مزيد من القوة على حساب آخر ٠ وهو احتمال فيـه ما يهدد ، وفيه ما يعد خيرا ، كل عضو فى الصفوة ٠ وبغض النظر عن هذه التحولات المحتملة فى القوة داخل المجموعة فان حياتها تبدو خاضعة الى حد كبير لقوى خارجة عن سيطرتها ، شأنها فى ذلك شأن حياة الفلاحين :

ان للبيئة تأثير كبير ومتساو عليهم ٠ ولو أنهم أكثر أمنا ضد المجاعة ، الا أن دخلهم يتوقف على تغيرات الجو مثل الفلاحين ، لأنه يستمد من الأرض ٠ كما تتعرض حياتهم وحياة أفراد أسرهم لضربات مباغتة لا يمكن التنبؤ بها ،

ولا يدركون لها سببا ، وان كانت لها أهميتها العاطفية · ففى المجتمع التقليدى لا تكون الثروة درعا واقيا من المرض أو الوفاة · واحتمال اصابة طفل بمرض مفاجىء أكبر بين الصفوة كطارىء منه بين الفلاحين ، لأنه من ضمن أسباب ارتفاع الوفيات فى المجتمعات التقليدية ، الافتقار الى مرافق الصحة العامة ، وانتشار أمراض لا تتأثر بارتفاع الدخل أو المركز ·

وباختصار ، ان ظواهر الحياة الطبيعية سواء بالنسبة لعضو فى طبقة الصفوة ، أو لفرد من العامة والكل عاجز فى مواجهتها كقوة مضيقة أو مهددة · فليس عضو الصفوة بالأقدر من الفلاح ، من حيث التفكير ومن حيث ما فى متناوله من وسائل ، على الصمود ضدها · وهذا هو التناقض البين بين الصفوة فى المجتمعات التقليدية وبين الطبقات المتوسطة والأعلى فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ·

حاسة الصفوة المميزة ـ اختلافاتها عن عامة البسطاء

وثمة عدد من جوانب شخصية الصفوة يتصل اتصالا وثيقا باعتقادها ونظرتها إلى العالم · ومن هذه الجوانب حاجة أبناء الصفوة للشعور بأنهم عنصر مختلف عن الدهماء · فلو أن شخصا فى مركز ممتاز وصل الى مركزه بجدراة فى مجتمع يرتقى فيه الأفراد لانجازهم ، لكان شاعر بأنه انما حصل على مركزه نتيجة لاختلاف القدرة على الانجاز ، ومن ثم يكون لارتقائه مبرره الخلقى · ولكن فى المجتمع الذى يكتسب فيه المركز والمزايا بالوراثة ، ينسب الفرد مركزه حتما الى ثمة سبب آخر · ومن هنا يكون من الضرورى بالنسبة للصفوة أن تشعر بأنها تختلف فى العنصر عن الدهماء · وأن المسألة ليست مسألة ما يمكنهم أن يفعلوا ، ولكنها أساسا فى من يكونون · وهم بكراهيتهم لما يحب العامة وما يفعلون ، يقنعون أنفسهم بأنهم مختلفون عنهم وأعلى منهم ، وأن لوضعهم الأعلى ما يبرره ·

ومن الصفات المميزة للعامة أنهم يعملون بأيديهم وبأدوات ، وتتوسخ أيديهم أثناء العمل وبهذا يكون أى عمل يوسخ الأيدى أو الملابس ، أو أى شغل ممجوجا من الصفوة · حتى مجرد نقل مظروف من الأوراق من المكتب الى البيت يبدو غير لائق بكرامة ابن الصفوة ، فلديه خادمه يقوم بذلك · ان الفلاحين وأرباب الحرف يجعلون الأشياء والكائنات الحية تعمل · ولهذا لا يهتم أبناء الصفوة بعمل هذه الأشياء ويرون فى الاهتمام بها مساسا بالكرامة ومظهرا للوضاعة ·

هذه الاعتبارات تفسر جزئيا اتجاهات قادة الصفوة بالنسبة للتنمية الاقتصادية فى المجتمعات المعاصرة التى لا تزال تقليدية الى حد كبير · فقد يرغب القادة فى التنمية الاقتصادية اذا كانوا لا يرون فيها ما يزعزع مراكزهم الشخصية · ولكنهم يريدونها أن تجرى بدون تورطهم شخصيا · ان النشاط التجارى والصناعى يحيط به جو العمل القذر أو الفنى اليدوى · ولهذا يراه عضو الصفوة كريها · ولا بأس أن يكون مديرا لمشروع تملكه الحكومة لأن مثل هذا المركز يرمز الى السلطة · ولكن شغل هذا المركز لا يعنى أى عناية بتفاصيل سير العمل فى المشروع · لأن عناية عضو الصفوة بهذه الدقائق من مسائل كل يوم يقضى على مصدر رئيسى لتميزه على العمال ويهدد كيان شخصيته ·

وفى هذا الضوء يمكننا أن نفهم أفضل لماذا يتعلق أبناء الصفوة فى المجتمع التقليدى بالأرض · فمن الواضح أن فى كل مجتمع تقليدى وبدون استثناء لا يوجد مركز أعلى من ذلك المرتبط بملكية الأرض · ان للهيمنة على الأرض أهميتها من حيث أنها مصدر الأمن فى عالم محفوف بالمخاطر · ان حياة ملكية الأرض طيبة لأنها تميز المالك عن التاجر ورجل الأعمال · وحب هذه الحياة يرمز الى انحدار الفرد عن سلالة أعلى وبهذا تكون لملكية الأرض قيمة لها أهميتها العاطفية العميقة · ان لجميع فئات الصفوة نظرة الى العالم تشترك فى عناصر هامة مع نظرة فئة ملاك الأرض · فالبيروقراطيون والمهنيون والمثقفون يحبون مالك الأرض ، ويحتفظون بمكانتهم فى الحياة باحتفاظهم بالفوارق التى تميزهم على الفلاحين ·ويبدو أن حاجة المهنيين الى التمسك بقيم تفصل بينهم وبين الطبقة العامة ، أقل شدة من حاجة ملاك الأرض ، لأن مراكزهم تعتمد فيما تعتمد على الجدارة ، وليس على الوضع الاجتماعى فحسب · ومع هذا فهم الى حد محسوس قد نجحوا فى مهنهم ليس نتيجة قدرتهم فحسب ، بل وبسبب اتصالاتهم العائلية · فمعظم المهنيين هم من أبناء صفوة الريف الذين اتجهوا الى المهن لأن هذا الاتجاه هو الأفضل بعد أن يرث الابن الأكبر العزبة ·

حاسة الصفوة المميزة ، دور السلطة

طالما أنه من الضرورى لأبناء الصفوة أن يعتقدوا انهم من عنصر أعلى من الطبقات الأدنى منهم ، فهم يعتقدون أن ما يستأثرون به من مراكز السلطة انما يرجع الى من يكونون · فمراكز السلطة فى المجتمعات التقليدية تمنح للفرد على أساس مركزه وليس على أساس قدرة أدائه · واذا بنى

الاختيار على غير أساس المركز بالنسبه للصفوة لكان ذلك منافسة لحق الصفوة المكتسب فى أن تكون صفوة • ولأصبح جرما أن يمنح مركز لشخص فى مرتبة اجتماعية أدنى • وينظر الى مثل هؤلاء الأشخاص على أنهم غير قادرين على ممارسة السلطة •

ان ممارسة المبادأة والشعور بخطورة ممارسة السلطة الأعلى ، تسبب التوتر أو القلق عند أبناء الصفوة ، وبالمثل عند أبناء العامة • وينجم عن ذلك أنه حتى المسائل الأقل أهمية والتى لا توجد سوابق واضحة للاجابة عليها ، أو التى يكون فى تصريفها اظهار للسلطة ، غالبا ما تحول الى أعلى فأعلى حتى تصل الى الرئيس القمة لاصدار القرار • وهذا بدوره يصر على أن تصل اليه لأنه يرى فى توزيع السلطات على مرؤوسيه اعترافا بمساواتهم له فى الوضع ، ومثارا للتساؤل حول أحقيته لمركزه • كما أن أخذ آراء المرؤوسين قد يعنى أيضا الانتقاص من حقه فى ممارسة السلطة • ونتيجة لهذا يصدر الرئيس الأعلى أمره بدون معاونة مساعديه •

أو اذا كانت المشكلة جديدة بحيث تحير أو يتعذر حلها فورا ، بسلطته المطلقة ، فقد يتركها على مكتبه فجأة • ان الغرض من اصدار الأوامر فى المجتمع التقليدى هو اظهار المركز ، أو حل مشكلة ، أو انجاز مهمة • وبالنسبة للنشاط التقليدى يتماثل الغرضان • ولكن فى الأنشطة الجديدة ، التى يتعين فيها اصدار قرار بالغ الأهمية لأول مرة ، يتطلب الأمر تحليل المشكلة وابقاءها تحت البحث لدى فرد لمدة قد تسبب القلق • وأكثر من هذا ، اذا كانت المشكلة تتعلق بالصناعة او التجارة ، يصبح تحليلها أكثر كراهة • ومن هنا يكون أبناء الصفوة فى المجتمعات التقليدية غير قادرين على كفاءة الأداء في التطوير التكنولوجى ، ويتسم المجتمع التقليدى بالافتقار الى الابتكار الخلاق •

الشخصية المتسلطة

ان رد فعل أى فرد فى مجتمع بالنسبة للمواقف الجديدة يتضمن شعورا مزدوجا يجمع بين التوقع السار لامكانية توفيقه فى استخدام قدراته فى معالجة الموقف وبين عنصر التخوف حول استطاعته ذلك بكفاءة • ومع كل تبدو المواقف الجديدة لبعض الأفراد فرصا جديدة ، بينما تثير لدى بعض الأفراد شيئا من المخاوف • والنوع الأول تجتذبه المشاكل • وقد يكون مبتكرا خلاقا • أما النوع الآخر فيعجز عن الاحساس بوجود المشاكل ، لأنه

يتجنب المخاوف المتسببة عن الاحساس بها • وهؤلاء يرون العالم حولهم غير قابل للتغيير ويعجزون عن ادراك امكانية استخدام وسائل جديدة للعمل ، وأساليب جديدة لحل مشاكل العالم • وذلك لأنهم لو اعتقدوا ذلك لكان عليهم أن يكيفوا أنفسهم بنجاح للمواقف الجديدة ، الأمر الذى يثير القلق • ولا يوجد النوع الأول عادة بين عامة الناس فى المجتمعات التقليدية • ففى هذه المجتمعات التقليدية يشعر الأفراد أكثر منهم فى أى مجتمع آخر بالقلق بالنسبة للمواقف الجديدة •

ويتجنب القلق أو يخفف بأسلوبين للسلوك تتميز بهما المجتمعات التقليدية • أحدهما الاعتماد على التقاليد • فالمشاكل التى تدخل فى اطار المجالات التقليدية للسلوك مثل مسائل المهارة والتقدير فى الزراعة ، والمساومة فى السوق ، والمناقشات داخل المجموعة يمكن أن تسوى عن طريق التباحث والتفاهم بين الكبار • والأسلوب الآخر لتجنب القلق هو قرار يتخذ من صاحب سلطة • وفى حالة فشل القرار فشلا واضحا ، يحال الأمر على قوم آخرين ويحال على صاحب سلطة جديد غير ذلك الذى فشل • كما تسوى مسائل العلاقات بين الناس عندما تقرر السلطة المختصة والمكونة على مستوى فردين من الذى يتولى الاشراف على الأمر •

ومتى أقيم نظام مراتب السلطة ، يجرى تدعيمه بالتجربة • وعندما تتخذ قرارات مستقلة ، حتى فى المسائل الصغيرة ، يساور القلق مصدر القرار لا من حيث انه قام بمفرده بعملية الاختيار قبل اتخاذ القرار فحسب ، بل أيضا من حيث ما ينطوى عليه من تحد لسلطة مسئول أعلى • فتكون احالة المسائل الى المستوى الأعلى بذلك سبيلا الى تجنب هاتين المشكلتين •

ومن المزايا الاضافية لاحالة الحكم الى المستويات الأعلى أيضا ، أنها تخول للفرد ممارسة السلطة على الأدنى منه وضعا • فكل ذكر ، حتى ولو كان ابنا لفلاح متواضع ، يزداد عدد من هم أدنى منه كلما كبر فى السن والمركز ، حتى أخته ، التى تشرف على أخواتها الصغار ، يأتى اليوم الذى تصبح فيه أما تدير عائلة ، ثم يأتى يوم بعد ذلك تصبح فيه حماة تنحنى لها زوجة ابنها فى كثير من المجتمعات التقليدية • واذا شعر فرد بضغينة عندما يأتمر بأوامر أخ أكبر ، فانه ينفث عن ضيقه أو غضبه باصدار الأوامر الى أخ أصغر • وعندما تكون للفرد سلطة لا يكون قلقا بالنسبة لعدالة احكامه • انها فى نظره عادلة لأنه صاحب السلطة •

وفي جميع المجتمعات التقليدية في العالم أجمع تتأصل في شخصية العامة القناعة بالخضوع لأحكام ورغبات من هم أعلى مستوى ، وبالتسلط على من هم أدنى مستوى • وتوجد نفس هذه الاتجاهات بين الصفوة في المجتمعات التقليدية ، فيما عدا أن كثيرا من أبناء الصفوة أقل صبرا ومن ثم يكونون أكثر استعدادا للكفاح في سبيل المركز ، سواء عن طريق استخدام القوة ، أو عن طريق الافادة من العلاقات العائلية • والشخصيات التي تجد الرضا في الاعتماد على أشخاص في مركز أعلى ، وفي الاشراف على أشخاص في مركز أدنى ، والتي تشعر بعدم الارتياح عندما تواجه المشاكل أو تعالج المشاكل الصعبة مع أنداد يتساوون معها ، هي التي يمكن تسميتها بالشخصيات المتسلطة •

العلاقات الطبقية

ان اعتقاد أعضاء المجتمع التقليدي في تفوق أو سيادة طبقات الصفوة ، ان هو الا أحد وجهي العملة • أما الوجه الآخر فهو اعتقاد جميع الطبقات أن وضع العامة لا يمكن أن يتحسن ، وأن مكانهم الطبيعي في المجتمع قد تحدد لكل الأزمان • ولكن هناك مسالك خاصة لبناء المستقبل بالنسبة للشخصيات غير العادية سواء من الصفوة أو من العامة فاذا كان أحد أعضاء الصفوة ، أو الطبقات الأخرى فيما عدا الصفوة ، لديه اهتمام غير عادي بالدين امكنه أن يتحول الى ناسك أو رجل مقدس • أما الطبقات الاجتماعية فهي مغلقة الى حد كبير • والعلاقات الطبقية ثابتة ، وذلك فيما عدا النزاعات داخل طبقة الصفوة نفسها • وطالما ينظر الى الطبقات الأدنى على أنها من عنصر أدنى ، فانه لا سبيل لاكتسابها وضع الصفوة • ولكن هذا الجمود الطبقي لا يجعل أبناء العامة البسطاء يشعرون أنهم مقيدون أو متسلط عليهم ، لأنهم يحبون كلا من تجنب المشاكل ، الذي يسمح به في سلم السلطة ، واطلاق نزعة العدوان الذي يسمح به البنيان الداخلي لسلطة العامة •

تعقيب ختامي : استقرار المجتمع التقليدي

يساور أفراد العامة البسطاء القلق في تعاملهم مع الأفراد الآخرين ، اذا كانت العلاقة معهم غير محددة • وهم يشعرون بالارتياح اذا كانت قد تحددت في قواعد العامة بأن شخصا سلطته أعلى وآخر سلطته أدنى • ويساورهم القلق أيضا عندما يواجهون مشاكل خارج الدائرة الضيقة لعملهم اليومي ، ويشعرون بالارتياح اذا أحالوا هذه المشاكل على من هو أعلى منهم سلطة لاتخاذ القرار • الا أن هذا لا يصح الا في حالة ما يكون الشخص

الذى أحالوا عليه المشكلة على استعداد للنظر فى المشكلة ويبدى احترام أو اهتماما بأمرهم · وعليه فمن الخطأ تصوير العامة بأنها تجبر على العيش فى ظروف بؤس ساحق تحت نير القوة الطاغية للطبقات الأعلى · ولكن على عكس ذلك قد يشعر العامة بارتياح الى علاقات السلطة التقليدية على اختلاف مستوياتها ، وذلك فى حالة المجتمعات التقليدية التى تكون فيها الصفوة حريصة فى معاملاتها على مراعاة العامة · وهى حالة لا تتوافر مع الأسف فى معظم المجتمعات التقليدية المعاصرة · لقد استمرت العلاقات الاجتماعية التقليدية آلاف السنين فى سائر أنحاء العالم ، ليس لأن الفئات الأصغر المتربعة على القمة تفرض هيمنتها بالقوة فحسب ، ولكن لأن العلاقات التقليدية أيضا كانت مرضية لكل من يخصهم الأمر ·

الا أن علاقات وممارسات ومعتقدات المجتمع لا تبقى بدون تغيير أساسى لفترة طويلة ، الا اذا توافقت مع أغراض ودوافع أعضاء المجتمع ، الملموس منها وغير الملموس · واذا كانت العناصر الأساسية للبنيان الاجتماعى والحضارى لا تكفل هذا الرضا ، يحدث التغيير فى المجتمع ، حتى ولو كان التغيير بطيئا جدا ·

وفى عصرنا هذا تمر المجتمعات التقليدية فى سائر أنحاء العالم بعملية التغيير لأن المعرفة والاتصال بالعالم الخارجى أوجدا تغييرا فى السلوك والاتجاهات داخل هذه المجتمعات · وحتى فى حالة غياب القوى المؤثرة من الخارج ، فان الصراع على السلطة داخل الصفوة يهدد استمرار العلاقات الاجتماعية التقليدية · وهذا صحيح لأن هذه الصراعات على السلطة ، وما تتخذه الصفوة المتسلطة من تدابير لمنع سقوطها أو انتقال السلطة الى غيرها ، انما تحمل بين طياتها من بذور التوترات الاجتماعية ما يؤدى الى التغيير الاجتماعى الأساسى ·

الفصل الثالث

الشخصيات السلطوية والخلاقة

لقد رأينا أنه فى المجتمعات التقليدية تكون الشخصية السلطوية هى النمط السائد . ولكى نفهم هذا بصورة أوضح ولنحلل ما يطرأ عليه من تغيرات ، سوف أعرض للشخصية السلطوية كنقيض لما أسميه بالشخصية الخلاقة .

ان الابتكار الخلاق يعنى الوصول الى ادراك عقلى جديد وتحويل هذا الادراك الى عمل أو الى صورة مادية . وفى الابتكار التكنولوجى قد يتضمن الابتكار مجرد تصميم أو اعادة ترتيب بعض أجزاء جهاز . أو قد يتضمن تنظيم مجموعة من البشر فى جماعة فعالة تخرج فكرة جديدة الى حيز التطبيق . وكلا الخطوتان من الابتكار تعتبران خلاقتين ، ومثل هذا النشاط الخلاق يتضمن حلا للمشاكل على درجة عليا .

والابتكار الخلاق يكون دائما ابتكارا فى بعض الميادين المحددة بذاتها ، يتعلق بمواد أو بمفاهيم معينة أو بعلاقات من نوع معين مع أشخاص آخرين. وقد تتضمن بعض نماذج الابتكار التغلب على مقاومة أشخاص آخرين ، وبعضها الآخر لا يتضمن ذلك . ولا يحاول الفرد الابتكار فى مجال عمل يراه غير مرض . وهكذا تكون لاتجاهات الرضا عن العمل فى مجال أو آخر ، بالاضافة الى التفكير الخلاق ، ضرورتها للابتكار فى هذا المجال . ولسوف أناقش فى هذا الفصل السمات العامة للتفكير الخلاق وأقتصر على توجيه اهتمام خاص ومختصر الى الصفات الاضافية فى الشخصية التى تساعد على ممارسة الابتكار الخلاق فى مجال دون آخر .

الشخصية الخلاقة

نوعية الابتكار الخلاق

عندما يقال ان الابتكار يتطلب تفكيرا خلاقا ، فان تعبير التفكير الخلاق لا يشير الى العبقرية ، وانما الى نوعية الابتكار الخلاق بصفة عامة ، أيا كانت درجة توافرها فى شخص معين ٠

ولعله من السهل سرد الصفات الرئيسية التى تكون التفكير الخلاق وهى التفتح للتجربة واكتساب الخبرة ، والنزعة الى ادراك الظواهر كشىء قابل للتفسير ، وهذا هو الأهم ، والتصور الخلاق الذى يتركز أساسا فى القدرة على اخضاع اللاشعور لارادة الفرد وجعله يعمل من أجله ، وثقة الفرد فى حكمه على الأشياء والشعور بالرضا فى مواجهة المشاكل وحلها ، والشعور بالواجب ومسئولية الانجاز ، والذكاء ، والطاقة ، وأحيانا ادراك أن فى العالم ما يهدد بالخطر ، وأنه لابد من جهود متواصلة لمعالجته بنجاح ٠

وهكذا يكون الشخص المبتكر يقظا فى ملاحظته للعالم من حوله وواثقا فى تقديره لتجاربه الخاصة ٠ انه لا يعتبر من المسلمات التى لا تقبل التساؤل أى تقدير مقبول عموما ، ولا يتغافل عن الحقائق التى قد تثبت زيفه ٠ ان لديه حاسة أعمق من التقبل المعقول للسبب والنتيجة ، أو لأن العالم يسير كما يجب ، أو لأن كل ظاهرة من ظواهر الحياة ، أو بعض الميادين الفسيحة للتجربة ، ان هى الا جزء من نظام يمكن فهم مساره وتفسيره ، وأنه اذا تلمس مجالا للحياة يحظى باهتمامه سيجد ما يريد من تجاوب ، وأن فى استطاعته فهم هذا التجاوب اذا تجمعت لديه المعرفة الكافية ٠

ان التصور الخلاق يعنى الميل الى الانطلاق والتقدم بعيدا عن نقطة البداية ، وملاحظة علاقات الترابط حيثما لا يفكر الآخرون فى الاهتداء اليها ٠ انه يحتضن نوعين من النشاط العقلى ٠ أولهما القدرة على استخدام موقف يثير الاهتمام أو لا يبعث على الرضا كمنطلق وثوب للخيال المتدفق ، ثم العودة الى الأمر محل البحث بفكرة متبلورة وعملية عن اعادة تكوين أو تحويل الموقف الغير مرض ٠ وثانيهما القدرة على اطلاق الحواس اللاشعورية البحتة لاجتلاء المشكلة ، بحيث يصل الفرد الى حل بدون أن يشعر بأن عقله كان مستغرقا فى بحث المشكلة ، أو يلوح له نظام أو تفسير مناسب ٠ ولهذين

الجانبين للتصور الخلاق عنصرين هامين مشتركين : أن الخلجات اللاشعورية للفرد منتجة بطبيعتها أكثر منها مخربة ، وأن الفرد لا يخشاها ، أو لا يتخوف منها الا قليلا ٠

ان بعض الأفراد عندما يواجهـــون مشكلة يعتقدون لاشـعوريا أنهم عاجزون عن حسمها ، ويتوقعون فشلهم فى حلها بدافع الضيق أو اليأس ٠ ويلجأ الفرد دفاعا عن نفسه ضد هذا الضيق الى التخيـــلات أو السحر أو أحلام الانتقام من الأشخاص الذين كبتوه وظلموه ٠ وحتى اذا لم يحـــاول اراحة نفسه بمثل هذه التخيلات، فانها تنتابه لاشعوريا ٠ ويجمع رد فعل أفراد آخرين بالنسبة لجوهر مشكلة أو ظاهرة عجيبة ، بين التحليل الواعى المنطقى لها ، وبين التحليل التخيلى واللاشعورى ٠ وذهن الفرد الذى يستجيب لهذا الأسلوب يعيد ترتيب عناصر فكره برباطة جأش ، ولـــكنه عندما يعود الى تفاصيل الواقع يجد هـــذا الأسلوب مثمرا ٠ وكل فرد يستجيب لهـذين الأسلوبين بصورة أو بأخرى ٠ والأشخاص المبتكرون الخـــلاقون هم الذين تكون استجابتهم منتجة أولا ٠

وقد يحاول الشخص الذى يستجيب لتخيلات غير مقبولة أن يلفظها من عقله الواعى ، ولكنه يشعر بأمواج عاطفية قاتمة فى داخله ٠ انه يخاف أن يترك خلجاته اللاشعورية تطفو على السطح ، خشية أن تؤدى الى ظهور دوافع خطيرة أو شريرة ٠ ومن ثم لا تكون خلجاته اللاشعورية غير منتجة فحسب ، بل ولا تظهر نتائجهـــا فى عقله الواعى ٠ أما الشخص المبتكر الخلاق ، فى الجانب الآخر ، فلا يخشى من خلجاته اللاشعورية ، وتبدو نتائجها فى عقله الواعى ٠ انه يثق فى تقييمه الشخصى لها ٠ وهذا لا يعنى تأكده دائما من أنه على حق ، ولكنه يعنى مجرد أنه لا يســـاوره القلق بالنسبة لملاحظاته وتقديراته ٠

انه يشعر بالارتياح الى امكانية تجربة قدراته فى مواجهة مشكلة ، ولا يلبث أن يتجه لمحاولة ذلك ٠ انه يحتمل العجز الواضح للحقائق عن التوافق لأنه لا يخشى المشاكل ولا يخاف من العالم ٠ انه ينظر الى عدم التوافق بين الحقائق ، شأن أى مشكلة ، كنوع من التحدى له ٠ وبنمو شخصيته وثقته بنفسه وقدراته ، يفقد الاهتمام بالمشاكل الأبسط ويسعى لمجابهة المشاكل الأصعب (الأكثر صعوبة) وأحيانا المشـــاكل المختلفة ٠ انه المبتكر الخلاق لا يجد لذة فى حل المشاكل فحسب ، ولكنه يشعر أيضا بواجبه نحو الانجاز وبمسئوليته الشخصية لتغيير العالم ٠٠ وهو شعور يجب أى دافع للربح ٠

ليس الفرد المبتكر الخلاق بالرجل السعيد بالضرورة ، الذى يسعده أن يواجه المشاكل بسرور . بل ان معظم الأفراد المبتكرين الخلاقين يدفعهم الى النشاط الخلاق قلق أو تلهف دائب . وما هـذا الانتاج الا نوع أو آخر من الكتب ابتلوا به فى حياتهم المبكرة . وهم لا يشعرون بتخلصهم من نظراتهم الى العـالم كمكان خطر ، الا عندما يستوعبون فى النشاط ، وبعـد ذلك تعاودهم هذه النظرة . وهكذا يكون النشاط الخلاق دائما رد فعل لنوع أو درجة من القلق .

مقومات مجال الخلق

لعله يهمنا أن نفكر فى المواصـفات التى تطلق وتكون مجرى الابتكار الخلاق فى ميدان أو آخر ، وهى من أنواع ثلاثة : قيم الفرد فيمـا يختص بالأنشطة ، وقلق أو رضا الفرد بالنسبة لعـلاقاته مـع الآخرين ، ومدى النشاط أو النفوذ الذى يشعر الفرد معه بالرضا والأمن. فقد يكون هناك أولا ثمة تعلق مباشر بنوع معين من النشاط . وثانيا قد يجد الشخص اشباعا فى التنافس مع الآخرين ، أو شعورا بالطمأنينة فى قدرته على التأثير فيهم ، أو قد يشعر بعدم الارتياح لأية منافسة أو لأى تعاون وثيق مـع الآخرين فينتهى به الأمر الى العمل منعزلا . وهذه المواصفات مضافا اليهـا البدائل المفتوحة له هى التى تحدد فى جملتهـا نوع المهنة التى يختـارها الفرد لممارستها . وثالثا اذا كان الفرد متصـفا بنزعة التأثير أو التزعم عـلى الآخرين ، فقد يرضيه أن يعمل هذا على نطاق صـغير ، أو قد يشعر ، فى الجانب الآخر ، أنه لم يحقق الطمأنينة بما فيه الكفاية طالما توجد مجموعات أوسع لم يجرب قدرته على التأثير فيها . وبهذا قد يجد الفرد الرضا فى أن يعمل فى حوضه ، وقد يكون حوضه هذا هاما من الناحية الثقافية أو الفنية أو الاجتماعية ، أو ربما يسعى الفرد ليثبت نفوذه على المستوى القومى فى مهنته أو فى المجتمع برمته ، ويعمل على اصلاح المجتمع .

ويتطلب اختيار التكنولوجيا أو العلم أو الفنون الصـناعية كحقل للابتكار الخلاق واحد أو آخر بعينه من هذه الاتجاهات . ولقـد لاحظنا أن حاسة التميز لدى عضو من طبقات الصفوة فى المجتمـع التقليدى تجعله غير قادر على أن يمارس بكفاءة عملا يرتبط بالطبقات العاملة . وعموما تعـد الشخصية السلطوية فى المجتمع التقليدى غير خلاقة . ومع هذا اذا أصبح شخص غير عادى من أبناء طبقات الصفوة خلاقا ، فانه لا يستطيع أن يبتكر فى التكنولوجيا طالما هو يحتفظ بازدراء الصفوة للعمل اليدوى وللعمـل بالأدوات والآلات ، ويزدرى الاهتمام بالعالم المادى .

الشخصية السلطوية

تعد صفات الشخصية السلطوية بكل بساطة سلبيات صفات الفرد المبتكر الخلاق • ولهذا يمكن تلخيصها فى فقرات قليلة • يستطيع المرء أن يفهم معظم جوانب الشخصية الخلاقة ، اذا افترض أن الفرد المتسلط قد رأى الدنيا وهو طفل بمنظار دكتاتورى ، نتيجة لتغيرات مفاجئة ، وليس استجابة للتحليل المنطقى • ويدرك الطفل أيضا أن هذه التغيرات المفاجئة فى الدنيا ليست عرضية ولكنها بفعل قوى ذات ارادة ، وأقوى منه بكثير ، وهى تخدم أغراضها وتغفل أغراضه اذا لم يسلم لها قياده • وقد أزيحت هذه الآراء من عقله الواعى الى اللاشعور ، بسبب ما عاناه بشأنها من تجارب مؤلمة • ولما ولدته من خوف وغضب ونزعات خطيرة ، فهو يطويها فى اللاشعور بقدر ما يستطيع • وبهذا نكون قد وضعنا نموذجا للشخص غير المبتكر ، وهو الذى تكون خلجاته اللاشعورية غير منتجة •

انه لا يجرؤ على الاعراب عن غضبه ضد السلطات الأعلى التى هيمنت عليه فى أوائل حياته بطريقة ديكتاتورية ، ولكن متى أصبح أكبر فى المجتمع ، أو أصبح أبا ، أو حتى مجرد الأخ الأكبر ، فانه يستطيع أن يشبع نزعته العدوانية بالتسلط على من هم أدنى منه • كذلك هو اذ يتصعد الى مراكز أعلى من السلطة فى مراحل متتابعة من حياته ، يسبب له القلق الذى يساوره فى المواقف غير المؤكدة اصرار على عدم مناقشة سلطته ، كما كان يطالب من قبل أن يذعن فى حكمه لمن حكمه وارادته أعلى منه • ومن ثم يظهر كل فرد بالغ تقليدى فى المجتمع التقليدى مقاومة شديدة لمناقشة قرارات السلطة أو الطرق التقليدية • وتكون هذه المقاومة عائقا هاما للتغيير •

ولقد افترضنا فى وصفنا المختصر للشخصية التسلطية أمرين : أولهما أن الفرد المتسلط يكون آراء معينة عن طبيعة العالم فى مرحلة متقدمة ، والثانى أن هذه الآراء هى التى تقود تصرفاته اللاحقة لاشعوريا • ولتبرير هذين الافتراضين يتعين علينا أن نستطرد الى بحث تكوين الشخصيات الخلاقة والشخصيات التسلطية •

الفصل الرابع

تكوين الشخصيات الخلاقة والسلطوية

ثمة افتراضين يمكن تبريرهما بحقيقة أنهما يكفلان تفسيرا جد مقبول للاختلافات فى سلوك البالغين التى لا يوجد لدينا تفسير مقنع آخر لها ، حتى ولو لم تكن لدينا أدلة أخرى . ولكن هناك أيضا الدليل المباشر لعلم النفس الاجتماعى على أن للطفل الصغير جدا قدرة عظيمة على التعميم العفوى . فالطفل الذى فى سن الثانية أو الثالثة مثلا يتحدث أحيانا عن الفيران أو عن النقود ، ويمكنه أن يقول ان هذا الشىء افضل من الآخر ، أو يكون كلمات مثل « وقع » و « ركض » . لقد نوه عالم النفس روبرت ك. مورتون بدلالة هذا . ان الطفل لم يسبق له أن سمع هذه التركيبات غير الصحيحة عن الكلمات ، كما لم يلاحظ كيف يصاغ الجمع والفعل الماضى والمقارنات من كلمات اخرى . انه يكون لاشعوريا فى عقله نظاما من القواعد ، ويستخدم قواعد لكلمات لا تطبق منطقيا فى اللغة الانجليزية . وهذا يثبت أن عقله يقفز من الملاحظات المحددة الى تعميمات أوسع فى مرحلة مبكرة جدا من حياته .

وما أيسر أن نفهم أن الطفل الصغير قد يصل الى فكرة عامة بأنه من الخطر والمثير للقلق أن يتخذ المبادءة مع آباء واخوة وأخوات معينين ، بينما قد يحدث مع آباء وأخوة وأخوات آخرين أن يرى فى المبادءة ما يشعره بالأمن والرضا . وهذه التعميمات التى تنميها العواطف يدفنهـا الطفل فى عقله الباطن ولا يستطيع أن يصححها بسهولة فى المراحل التالية . ان الطفل منذ تجاربه الأولى وهو يعمم بتوسع ما يختص بطبيعة العالم المحيط به ، ويؤثر هذا التعميم بقوة فى طبيعة الفرد الذى سيؤول اليه . ان هذه التعميمات تبقى فى المراحل المتأخرة للحياة وتؤثر فى سلوك الفرد بعد بلوغه ، وزيادة قدرته مع تزايد سنه ومعرفته على استخدام عمليات التحليل المنطقى الواعى فى حسم المواقف . كما أن البيئة المنزلية التى استمد منهـا الفرد آرائه المبكرة ، خلال الاثنى عشر سنة الأولى مثلا ، تستمر كجزء مركزى من بيئته خلال الاثنى عشر سنة التالية أو أكثر . هذا فضلا عن أنه فى مجتمع مستقر

تكون نماذج الشخصية التى تحددت فى مرحلة البلوغ شـــبيهة بتلك التى عرفها من قبل فى بيت أبويه • وهكذا يكون مجرد ذكر تعميمات الطفـــولة الأكثر أهمية سبيلا لتألم الفرد ، اذا علم أن ما يكتشفه منهــا سوف يولد الألم ، ومن ثم يحجز نفسه عن ملاحظة حقائق جديدة ، أو جوانب غير متوقعة لحقائق معروفة خشية أن يحيي ذلك فى نفسه الألم بعد أن احتجزه تماما فى اللاشعور • وهو بهذا يمنع تفكيره الواعى من استخدام مواد يعمل بها ، ومن ثم يمنع خلق تعميمات جديدة •

مراحل تنمية الشخصية

يتعلم الطفل فى مرحلة الطفولة أنه يعتمد كل الاعتمـاد على بيئته فى اشباع حاجاته ، وأنه يستطيع الاعتماد على مبادرته هو اذا كانت الاستجابة مأمونة ومريحة ويعتمد عليها ، والا اذا لم يستطع ذلك تولد عنده شعور بأن المبادرة لا تعقبها استجابة يعتمد عليها • فالى أى حد يحتاج الطفل الى حاسة الثقة بنفسه وفى العالم ، والى أى حد تكون حاسة عدم الثقة عظيمة الأهمية • أن تعلمه أن يثق فى قدرته على كسب تجاوب مرض من العــالم ، لا يتطلب مجرد اشباع حاجاته البدنية غير مستقل عن غيره ، ولكن يتطلب أيضا أن يكون اشباعها بطريقة مريحة وباعثة على الثقة والحب • انه انما يكون الشعور بأن العالم مكان مأمون من حركات أمه الأكيدة اللينــــة ، ولمسات حنانهـا وعضلاتها المسترخاة وصوتها الحنون السهل • أما اذا دلل وبولغ فى الاهتمام به من أم قلقة ، أو عومل آليا وبلا اهتمام كاف من أم عصبية أو متوترة ، أو كانت أمه مهتمة وقت طفولته بشىء آخر أو بمكان آخر ، شعر بما يهـــدد كيانه ، حتى ولو كانت العناية البدنية به كافية • ولكى يكتسب الثقة ، يجب أن يشعر أن بيئته التى يراها فى أمه أو فى بديلها فى هذه المرحلة ، هى بيئة جديرة بالثقة •

ان مرحلة التغذية الشخصية الحميمة وقت الطفولة ، يجب أن تعقبهـــا عملية الفصل عن مصدر التغذية • ويبعد الطفل تدريجيا عن الرضـاعة من ثدى أمه • كمـــا يجب أن يحرم أيضا من الطبطبة والحضن ، والاســتجابة الفورية من أمه لبكائه أو ابتسامه ، ومن وجودها المادى كلما تحول اهتمامه اليها • ويجب أن يتعلم امتلاك زمام النفس • وعليه أن يهيمن على توقيت أعرابه عن احتياجاته ودوافعه ، والكيفية أو الصورة التى يعبر بها عنها ، وطبيعة هذا التعبير •

ويتنوع كثيرا الاضطرار الى هذه الهيمنة من حيث التوقيت والطبيعـة

والنبرة العاطفية . فاذا كانت المطالب تؤدى بواسطة أفراد يشعرون بالرعاية والاهتمام باحتياجاته ورغباته ، وفى وقت يكون فيه قادرا على التوافق ، فان المطالب قد لا تغير نظرته الى العالم كمكان يتفهم ويتجاوب مع مبادرته بطريقة سارة . أما اذا كانت المطالب تؤدى على عكس ذلك بأفراد يتركز اهتمامهم على دوافعهم وتلهفاتهم ، فى وقت تربكه فيه هذه المطالب لعجز نظامه الجسدى عن اثبات قدراته الضرورية مستقلا فى البداية ، فانه ينظر الى العالم عندئذ كمكان محير ، يصعب أو يستحيل فهمه ، ويتعلم أيضا الاهمية العظمى للتوافق مع المطالب الدكتاتورية والفظة عمن حوله من أشخاص مهمين وهذا صحيح ، بالنسبة لتعلم المشى وتعلم الكلام ، والتحكم فى حركاته السابقة للتبول أو التبرز ، وبالنسبة لأنشطة أخرى كثيرة لها اهميتها البالغة للطفل .

وخلال فترة الطفولة هذه ، ينضج الطفل طبيعيا ويكتسب الهيمنة أكثر فأكثر على عضلاته ، وتزداد قدرته على استكشاف العالم المتوسع من حوله . انه يمارس المبادرة نحو بيئته ، كمبادرة تعتمد جزئيا على نزعاته الطبيعية الموروثة . وهو ليس بأية حال مجرد أداة غير نشطة لرد الفعل . فهو بينما يكتسب القدرات تلقائيا ، لا يتعلم الأنشطة الا بملاحظة الأفراد الآخرين وهم يستخدمون القدرات التى يكتشفها فى نفسه . فبدون نماذج تحتذى ، لا يمكنه تعلم المشىء أو تعلم الكلام . كما لا يمكنه بدونها تعلم الكثير من وسائل التفكير والتصرف ، التى من شأنها أن تجعل منه عند البلوغ عضوا عاديا فى المجتمع . انه يتعلم قدرات واهتمامات وأنشطة الأشخاص الأكثر أهمية بالنسبة له ، تحت ضغط الحاجة ، ولكنه لا يقلدهم تقليدا أعمى كنماذج وجدت بالفعل . ولكنه يستجيب الى الاستثارة التى يتمثلها فى علاقتهم به ، ويتصرف كرد فعل بالطرق التى يراها الأفضل لخدمة مصالحه ، وذلك فى حدود ما توحى به هذه النماذج بقدر الامكان . وبينما هو يتعلم قدرات جسمه ، يتعلم أيضا كيف يعالج ما يجابهه من مشاكل لا ينى مداها يتسع :

الآباء ومكتشفات الطفل

يحتاج الطفل فى استكشافاته الى نوعين من المساعدة . انه يحتاج الى التشجيع والعرض والنصح . كما قد يؤدى انفعاله ، عندما يكون التعلم ناجحا ، الى نشاط منطلق يكون مخربا فيثير الذعر أو الغضب ، أو العقاب والنبذ . انه يحتاج الى التوجيه أو الهداية والى كبح الجماح . كما يحتاج أيضا الى الشعور بأنه مقدر . فالطفل الذى لا يظهر له أبواه قدرا كافيا من

المحبة لا يمكنه أن يتعلم بفاعلية من تعليمهم او من قدوتهم ٠ ويبدو كما لو كان لا يثق فى نصحهم ، ولا يثق فيهم كقدوة فينفر منهم ، طالما هم لا يراعون احتياجاته ورغباته فى الحياة ٠ بل ان مدرجة شعور الطفل بأنه موضع تقدير وأنه محل استجابة مع نموه تأثير هام على ما يوريه من ذكاء فى مراحـــل تالية من حياته ٠

ان الآباء الذين يفهمون أنفسهم بالغريزة ومن ثم يفهمون طفلهم يمكنهم أو يقدموا له بدقة ما يحتاج من عون وتوجيه على النحو الذى يجعل عمليـــة الاستكشاف جد مرضية بالنسبة له ٠ انهم يشجعون استكشافاته ، ولكنهم يغلقون دونه الأماكن الخطرة عليه ، ويبعدون عن متناوله الأشياء التى قـــد تؤذيه ، أو التى قد يصيبها بتلف ٠ وبقدر ما يحتـــاج من مساعدة قليلة يقدمونها اليه ٠ واذا نجح يكافئونه بالحب ٠ انهم يكبحون جماحه عنـــدما يكتشف قواه الجـــديدة ، حتى لا يلحق بنفســـه أذى أو يتصرف تصرفا تخريبيا ٠ واذا كانت هـــذه هى مجموعة الاستجابات التى تقابل قـدراته المتوسعة ، تعلم الوثوق فى تقديراته وتعلم الشعور بالرضـــا فى مواجهـة المواقف التى لم تحل وفى محاولة حلها ٠ وهذه الاستجابات تقوى على العموم الشعور الذى سبق أن اكتسبه فى بيت كهذا يتيح تجاوبه مع العالم واشباعه لمبادرته ٠

وتكون عناية الأم فى أول الأمر هى العنصر المركزى الاهتمام ، ولـكن خلال هذه الفترة تزداد أهمية اتجاهات وتصرفات الأب ٠

الغضب

ان نزعة الغضب كامنة فى نفس الفرد عـــلى الأرجح وهى تظهر عندما تكبت رغباته ٠ فعندما تظل حاجة طفل بلا اشباع حتى تصبح ملحة بشـــدة تبعث على التوتر ، ينفجر غاضبا ٠ انه يشعر بالغضب اذا فصل عن غـذاء طفولته المباشر ٠ وفى عمليات الفصل الأخرى يغضب أيضا ما لم تؤخر الى الوقت الذى يختار فيه الانفصال بنفسه ويمكنه العودة الى علاقة الاعتمـــاد وقتما يشاء ٠ ويكون الغضب غير ممكن التجنب عند التسنين ، وكلما فرضت عليه المطالب المتلاحقة لامساك زمام نفسه ٠ واذا تفاقم الغضب وتمكن منه ، كونت آثاره عناصر هامة لشخصيته ٠ ومع هذا اذا قابلت أمه غضبه بالاحتواء والحب ، وأدرك من علاقتها الكلية به أن ما يطلب منه أو يمنع عنه معقول ولا يهدده أو يعد هجوما عليه ، كان تعرضه للغضب أقل ، وكان الغضب الذى يتعرض له أخف ٠

عملية التحديد

مع نمو اثبات الذات لدى الولد في سن الرابعة أو الخامسة ، يود أن يصبح كبيرا مثل أبيه • فقد يمشى كما يمشي والده ، يتكلم كما يتكلم ، ويحاكي عاداته وأحواله • انه لا يقلد أبيه فحسب ، بل يسعى ليكون مثل أبيه بالحرف ، والى الحد الذى فيه أبيه قدوة مقبولة • انه ليس أقرب الى اكتساب أحوال ووسائل السلوك الطبيعي لأبيه فحسب ، بل هو يكتسب أيضا وبقدر الامكان قيم أبيه واتجاهاته في الحياة متى فهمها • فاذا كان الأب يمقت أو يعجب بأحد القادة السياسيين أو رجال الأعمال ، أو اذا كان الأب ينظر من جهة أخرى الى الأعمال كمهنة قذرة أو غير مسلية ، كذلك يفعل الابن • واذا كان الأب يحب العمل فى الأرض ، يكون الابن أيضا أقرب لأن يجد الرضا والسلام فى الأرض • والأمر كذلك بالنسبة للاتجاه نحو العمل باليد وبالأدوات ، والاتجاه الى الأنشطة الذهنية واستكشاف العالم الطبيعى ولعملية تحديد الشخصية عن طريق نماذج مرضية علاقة كبيرة بانتقال القيم الى الأجيال المتتابعة فى المجتمعات التقليدية • وأهم من أى شىء آخر ، اذا كان الطفل قد خبر الأمن والرضا فى استكشاف العالم ، فانه يعمد حينئذ الى ملاحظة تصرفات أبيه ويبدأ فى توجيه ذهنه نحو مشكلة تدريب نفسه على أن يؤدى الدور المهنى للرجل •

وطبيعى أن لا يكون نموذج الأب ، ليس بالنموذج الوحيد الذى يتعلم منه • فهو اذ يلاحظ أمه يتعلم منها أيضا الكثير من وسائل التصرف • وأعم من هذا ، هو يتعلم عن طريق تقليد جميع ما حوله من نماذج تبدو له جذابة أو هامة ، خلال هذه المرحلة وبعدها ، وعن طريق التصرف بعكس النماذج التى يراها غير محببة وأقرب الى الشر منها الى الخير • ان الميل الأولى للطفل فى اتجاه المهنة التى يزاولها فى سنوات البلوغ قد يتحدد فى هذه الفترة من حياته •

العالم وتفهمه :

وثمة جانب مركزى هام لتجربة الطفل ، وهو مدى تعلمه الشعور بأن العالم شىء قابل للفهم ، حتى ولو أنه ليس بالمكان المفهوم تماما ، وأن تحقق الفهم يثمر الرضا • ان العالم يبدو فى البداية لأى طفل شيئا مربكا بالكامل • ولكنه مع تركيز اهتمامه على أجزاء منه بفعل التجربة ، يجد أن احتياجاته ونشاطاته تلقى استجابات تبدو ملائمة • فهو عندما يجوع ، يترتب على جوعه ظهور الطعام ، وعندما يحقق لأول مرة تحريك قدمه والجلوس فى فراشه ،

تعرب بيئته (أى أمه) عن سرورها ، وعندما يشعر بالوحدة يصادف الاهتمام المحب الذى يعطيه الأمان ، وعندما يجرب قدراته الجديدة فى رضاعته وطفولته المبكرة ، لا يحيق به ضرر أو توتر فيما ندر ، وغالبا ما يحظى بالسرور والتقبل . وبهذا يكتسب شعورا بأن المبادءة تقابل الاستجابة المعتمد عليها ، وأن فى استطاعة الفرد أن يعتمد على العالم لتحسين التصرف ، وأرى أن حاسة الاستجابة المعتمد عليها للمبادءة ، وأن الشعور بأن العالم يمكن تفهمه ، وأن اكتشافه واستكشافه يحقق الرضا ، كلها عوامل تخلق فى الفرد « التفتح للتجربة » أو « القدرة على أن يدهش » ، وهذا هو قلب الابتكار الخلاق .

قد يلاحظ أن الاعتماد غير كاف . فاذا كان الطفل يعتمد على ارضاع أمه له كل خمس ساعات ، ولكن شعوره بآلام الجوع يبدأ يحس به فى جسمه كل أربع ساعات ويسبب له التوتر والفزع حتى يعطى التغذية فى النهاية ، فقد يشعر نتيجة لذلك بأن العالم يمكن الاعتماد عليه من حيث وقوع الألم ، ولكنه لا يستطيع فهم ذلك .

ان الشعور بأن العالم عندما يجابهه الفرد بتصعيد التجربة يصير عالما قابلا للفهم والاعتماد عليه ، لا يتطلب من جهة أخرى أن جميع احتياجات ومبادءات الطفل سوف تقابل باستجابات مرضية . ان من المستحيل أن يستجاب لها جميعا . فحتى فى الظروف المثالية لابد أن يصادفه بعض التوتر وبعض الكبت . كما أن حقولا بكاملها من التجربة قد تكون مؤلمة بعض الشىء أو محيرة ، بينما تكون حقولا أخرى مرضية . ولو حدث هذا ، هل يقرر الطفل أن العالم مبنى على المصادفة ، ومن المستحيل فهمه ، وأن سلوكه مركب ؟ واذا كانت أم الطفل تستجيب ، تستجيب باستمرار والى حد يعتمد عليه ، لاحتياجاته بينما يستجيب الوالد فى بعض الأوقات لحاجته للرعاية والاهتمام ، ويضيق به فى أوقات أخرى ويسبب له الألم بتوتره وعدم مراعاته ، فهل يترتب على هذا شعور باستحالة فهم العالم ، أم هل يقرر أن الكثير من العالم يمكن فهمه ولكن أبيه هو الذى يختلف الى حد ما ؟

ان الجواب يعتمد على الأرجح على عدة عوامل . انه لابد وأن يعتمد أولا على ذكائه . فكلما ارتفع ذكائه ، كلما ازدادت قدرته على رؤية النظام أكثر من المصادفة العارضة فى الظواهر المركبة . ويعتمد ثانيا على مدى استقرار شعوره الأساسى المكتسب بالثقة ، قبل أن يحتك بالتصرف الدكتاتورى . فاذا كانت احتياجاته للرعاية والاهتمام قد أشبعت بعمق وبثراء خلال السنة الأولى أو السنتين الأولتين لحياته ، يكون أكثر قابلية لافتراض أن العالم على ما يرام

بصفة عامة ، ولكن توجد فيه فقط بعض جوانب ادارتها أصعب مما يظن . ونتيجة لهذا ، يتوقف رد فعله على مدى ما مر به من تجربة خلال أعوام ثلاثة مثلا رأى فيها العالم كشيء يعتمد عليه .

وتتوقف النتيجة ثالثا على الى أى درجة يرى النماذج الأخرى من نفس الطبقة العامة كنماذج يستحيل عليه فهمها ، ولكن سلوكها هو الأكثر اعتمادا عليه . فاذا كان أبو الطفل دكتاتورا ، ولكن له اتصالات بعم أو جد من شأن تصرفه أن يبقى على ثقـة الطفل فى معقولية العالم ليدرك مـع ذلك أن ثمة شيء قابل للفهم يكمن وراء اختـــلاف تصرف أبيه ، حتى ولو كان أساس الاختلاف لم يدخل بعد فى قدرة فهمه .

انه لاحتمال معقول أن يصبح الطفل أخصب ادراكا وأكثر ابتكارا كلما ازداد عدد مختلف النماذج القابلة للفهم التى يحدث أن يتصل بها فى خلفيات عاطفية ملائمة . فهو مثلا يكون أكثر ابتكارا اذا كان اتجاه أبيه فى الحياة يختلف عن اتجاه أمه ، طالما لا تسبب الاختلافات تواترات بينهما ، ومن ثم تسبب له مشكلات عاطفية .

اذا أدرك الطفل أن العالم يمكن فهمه وتمكن ادارته، فانه غالبا ما يكتسب فى نفس الوقت الشعور بأنه محل تقدير . واذا كان قد اكتسب فى نشأته الأولى الشعور بأنه محل تقدير ورعاية مأمونة ، يكون فى استطاعته أن يتقبل بدون توتر شديد أية تأخيرات أو كبوت بسيطة . كما يكون فى استطاعته أيضا أن يتقبل القيود التى يضعها أفراد يقدرونه ، معتقدا أن هذه القيود تقتضيها الضرورة . انه لابد أن يفهم من خلال استكشافه للعالم أن للأفراد الآخرين أغراضهم وحاجاتهم مثله . وأن المطابقة المعقولة من جانبه بين أغراضه وأغراضهم ، أو تلك التى يفرضونها عليه تكون معقولة أيضا ، لا تهدده وانما تعطيه مكانا أكثر أمنا فى بيئته المتوسعة . كذلك اذا شعر الرد أن الأشياء الطيبة تتحقق عندما يفعل ما يبدو له كمعقول ويشعر أن البيئة تقدره كثيرا ، فانه لا يشعر بالتوتر اذا اختلف حكم فرد أو آخر عن حكمه .

المبتكر الشغوف :

لا يعنى ما سبق ذكره أن الطفل تحت الظروف التى وصفناها يكون حرا تماما من القلق . وكما سبق أن ذكرنا ، يوجـــد ثمة نوع من القلق لا يعوق الابتكار ولكنه يدفعه . ونحن بهذا نحصر فى أدنى حـــد حقيقة كون القلق يحتوى حتما نوعا من تعويق الابتكار الخلاق الى حد ما .

ولنفرض أن الطفل فى مرحلة الاعتماد الكلى على أبويه يحظى من رعايتهما بما يكفل الشعور بالمحبة والحنان · ولنفرض أيضا أن أمه تتوق فى لهفة الأن يصبح شخصا قادرا وفعالا · ومتى بدأت قدرات الطفل فى النمو فان حب الأم ومراعاتها له تمنعها من مطالبته بما هو فوق طاقته أو غير معقول ، ولكنها مع ذلك تستحثه على الحبى ، وعلى الكلام وعلى المشى ، وعلى الرمى وما الى ذلك قبل أن تكتمل كل من قدراته ، ومن ثم يكون انجازه ممكنا ولكن لا يخلو من مشقة ·

ان حبها واهتمامها يعطيانه الانطباع بأنها لن تطالبه بشىء يعد بالنسبه له غير معقول · ومن ثم يكون أقرب الى الشعور بأنها ليست هى وليس هو ولكن صعوبة المهمة هى المسئولية عما يصادفه من مشقة أولية فى الاستجابة لرغباتها · ونظرا لأهمية حبها بالنسبة له ، ولما كان اهتمامها بأنشطته ينتقل منها اليه تلقائيا ، فهو يحاول جاهدا ويستطيع النجاح ، لأنها لا تلح عليه ولا تستعجله ، بل تحيطه بالرعاية والمراعاة · وقد لا يكون نجاحه سهلا· ان سرورها وشغفها بكل نجاح يحققه يولد فى نفسه شعورا قويا بالرضا ، لأن الشغف وما يتبعه من سرور يولد قوة دافعة شديدة ويكون انطباعا عميقا وراسخا ·

والفرد الذى يمر بهذا النوع من التجربة فى طفولته المبكرة يتطلع الى النجاح فى كل مرة يحاول فيها الانجاز فى مراحل حياته التالية ، لأن هذا كان هو نموذج محاولاته الأولى · ومع هذا ونظرا لأن النجاح ليس بالنتيجة المؤكدة، فهو يشعر دائما بالحاجة الى محاولة مهمة أخرى واثبات ذاته · ومن ثم تكون للنتائج انطباعها فى عقله وعلى عمليات اللاشعور التالية :

١ - عندما لا يتصدى للمشاكل ، يشعر بعدم الاستقرار (كمظهر للقلق) ولا يعاوده هذا الشعور عندما يحاول ويتصدى ، وعندما يقنع وقتيا بكل نجاح يحققه · الا أنه يعود عقب الاسترخاء ·

٢ - قد يتخذ الشغف أحيانا صورة احساس عميق بواجب الانجاز ·

٣ - ومع هذا وبقدر ما يتعلم الفرد فى طفولته أن لا يلقى اللوم على أمه أو على نفسه ، بل ينسب الى صعوبة الانجاز سبب توتره ، فانه لا يشعر بالغضب ومن ثم لا يجرب نزعات أو تخيلات غير مقبولة· ومن ثم لا توجد عنده حاجة دفاعية لايصاد خلجاته اللاشعورية ، فتظل فى متناوله لمساعدته فى محاولاته الخلاقة ·

وانها لحالة خيالية بحتة ، وهي حالة ما لا يقترن شغف الطفل بأية قيود كانت على ابتكاره الخلاق • وثمة عنصر حتمي في الموقف المولد للتوتر ، وهو الضغط الذي يمارسه شخص ما على الطفل لينجز ، وبغض النظر عن مدى قوة احساسه بحب وحنان هذا الشخص ، فان هذا الضغط يثير بالتأكيد شيئا من الغضب • واذا شعر الطفل بالغضب ، شعر أيضا بالنزعات الملحة والتخيلات أو المدارك التي يجب عليه كبتها وازاحتها عن الشعور • وخوفه بالتالي من اباحة وجود هذه النزعات والتخيلات يسبب له أن يكون حذرا ومحتاطا في تقبله لمدارك أو مفاهيم تنبثق عن خلجات اللاشعور ، وتحد بقدر ما من ابتكاره الخلاق • ومع هذا فقد لا يكون التقييد شديدا • ولأن الكثير من الابتكار قد ينجم عن قدر معقول من حاسة الابتكار الخلاق ، مع الدافع القوى ، فان الفرد الأكثر شغفا وتلهفا قد يكون الأكثر فاعلية كمبتكر عن فرد آخر له قدرة ابتكار أقوى ، ولكن دافع استخدامها عنده أقل •

لكي ندرك أهمية دور الشغف بالنسبة للشخصية والسلوك ، يكون من المهم أن ننوه بأن الشغف يرجع عادة ولأكبر حد الى اللاشعور • أن حالات الشغف أو التلهف التي أشرنا اليها هنا انما ترجع الى التجارب الأولى التي سببت الألم • ولتخفيف الألم ، يكبت الفرد تذكر التجارب ويزيحها عن الشعور • وطالما هو يكبت الذاكرة ، يضطر أيضا الى انكار الأحداث التي سببت توتره ، ومن ثم الى كبت هذا التوتر بالمثل • ولكن حقيقة كونه لا يشعر بوجود التوتر ، أو الاحتياجات المرتبطة به ، ولا تقلل من أهمية هذه الاحتياجات كعناصر تحدد سلوكه مدى حياته •

الأبوة التسلطية في المجتمعات التقليدية :

لقد تناولنا بالبحث الأبوة المراعية لدوافع الطفل واحتياجاته • ولنفرض أن الأبوين متسلطان على النقيض • انهم يرون العالم مكونا من أشياء وأحداث لا هيمنة لهم عليها ، اللهم الا في المجال الضيق للحرفية التقليدية ، الذين يكتسبون فيه هيمنتهم عن طريق تعلم المهارات التقليدية • ولما كانت الدلائل المتوافرة توحي بأن مثل هؤلاء الآباء هم الانموذج في المجتمع التقليدي ، فان المواصفات الأساسية للعرض العام التالي يمكن أن تكون انعكاسا عادلا ومخلصا لبيئة الطفولة في كل مجتمع كهذا على الأغلب •

الاستغراق المبكر والسيطرة اللاحقة :

ان من الآباء من ينظر الى الطفل كعاجز عن الدفاع في مجابهته للعالم

وغير قادر على تنمية قدرته الخاصة على الفعل ورد الفعل ضد العالم ، وهؤلاء هم الذين يتذكرون لا شعوريا الطبيعة غير المعقولة للأحداث التى مروا بها فى طفولتهم ، والتى لم ينجم عن مبادءتهم فى مجابهتها سوى الضيق والكبت . انهم ينظرون الى الطفل أولا كشىء جد ضعيف ومن الواجب حمايته وشغله ، وما أن ينمو ويبدأ فى الكبر حتى يتعين تدريبه بالتوجيه التفصيلى على الطريقة التى يجب أن يسلكها .

وخوفا على الطفل من أن يؤذى نفسه أو يتعرض للضرر ، يبالغ الآباء فى حماية الطفل والتضييق عليه حتى ولو باغراقه فيما يشغله . ان الفطام أو تحويل الطفل الى غذاء غير لبن الأم ، يحدث عادة فى فترة متأخرة بالتدريج . ان الطفل الصغير يحمل فى الحال اذا ما بكى أو انتابه فزع . ورغم ذلك فقد لا يشعر بأى حب أو رفق فى هذا الاهتمام . وذلك لأن الطفل ، فيما يبدو ، يعامل غالبا كما لو كان هو الملوم على عدم راحته أو على فزعه . فقد يسمح له أيضا بالرغى أو باللف والدوران عندما ينهمك أبواه فى محادثة ، أو بأن تصحبه أمه أينما ذهبت . انه لا يراجع عن اللغو أو عن اقحـــام نفسه على مجموعة الكبار ، كما لا يجد عادة أية استجابة لمبادءته ، فهو بكل بساطة لا يحظى باهتمام .

انه لمن الخطأ افتراض أن الآباء المتسلطين يخلقون بذلك بيئة للطفولة المبكرة تتميز بالاباحة . ان بيئة الطفولة فى المجتمعات التقليدية ان هى الا بيئة استغراق واحتمال يقترن بالتضييق الوقائى . ان الفرق هام . فالطفل يحرم من استخدام مبادءته ، عندما يظن أنه بلا امكانيات . ان الكبار يعزبون عن خوفهم أو فزعهم من مغامراته بالكلمة أو النبرة أو العمل الجسمى ، وبهذا يمنعونه من استخدام قدراته النامية حتى ولو كانت أينعت للاســتخدام ، وكانت ملاحظات الطفل تولد فيه الرغبة أو الدافع فى استخدامها . فقـــد يلتقط ويحمل بمجرد ما يتجول أو يحبو . وقد يحمل على فخذ أمه أو ظهرها طوال فترة الحبى ، حتى لا يكاد يعطى أية فرصة للتحرك من حوله ، الى أن يصبح قادرا تماما على المشى . وهذه المعاملة ، شأنها شأن القيود الأقوى ، تولد عند الطفل احساسا بأن الدنيا ليست بالمسئولة عن مبادءته ، بل هى غير معقولة وغير طيعة ، احساسا بعدم القدرة على فهم لماذا تكون الأشياء على ما هى عليه ، وأى عمل يمكن أن يدبر به الفرد أمره .

ولكن مع نمو الطفل ، ومتى لم يعد هزيلا ، تتحول الحماية الى هيمنة . فأولى واجبات الطفل أن يتعلم مجموعة قواعد معينة : أن لا يضايق الكبار ،

بل يعرب بالعكس عن احترامه لهم ، وأن يعكس مركز العائلة فى المجتمع ، وأن لا يوقع العائلة فى مشاكل ، وأن يتعلم المهارات التقليدية ، وأن يعطى الاحترام الواجب للقوى الروحيــــة · ان الآباء يخضعونه لتعليمات متكررة يوميا · وفيما عدا المهارات التقليدية لطبقته ، لا يعترف بوجود ثمة قدرات منظمة فى نفسه ، ولا يتاح له تعلم كيف يحل المشاكل · ان أبويه لا يوجهانه ولا يساعدانه ، وانما يراقبان نموه · والأنشطة التى تنبثق من مبادءته ، ينظر اليها عادة كأنشطة ضئيلة المغزى وتكبت · وهذا الكبت يولد فى نفسه شعورا بالفشل ، شعورا بأنه لا يفهم كيف يستطيع المرء أن يتقدم فى الحياة ، ومن ثم فلابد أن يبحث عمن يوجهه · وباسم التدريب يولد أبواه ، بغير قصد ، الاحساس عنده بأنه لا يستطيع سوى بالنسبة لأنشطة قليلة أن يستخدم مبادءته الخاصة · وأنه اذا تجاوز ذلك تعرض للقلق · ولتجنب القلق يجب أن يرضخ للسلطة · انه لا يجد من النماذج ما يعلمه أن الاختلافات بين الأفراد يمكن عقلها وفهمها ، والموافقة أو التوفيق بينها · ومن ثم يرى الحل الوحيد فى تسلط فرد أو آخر ·

ولكنه يغضب أيضا · وعندما يرى الأكبر يسيطر على الأصغر ، والأعلى مرتبة يسيطر على الأدنى مرتبة ، يطلق العنان لبعض غضبه بالتسلط على من هم أصغر أو أدنى منه ، ويجد لـــــذة فى ذلك · وسواء شعروا بذلك أم لم يشعروا، يدرك الآباء نزعة الغضب عند الأطفال ويقيمون من الاحتياطات الدفاعية ما يقيهم من خطر تحول الغضب اليهم · وهذا هو السبب فى الأهمية البالغة التى تعطى فى كل مجتمع تقليدى الى دفاع الطفل فى مواجة البالغين ، وفى مواجهة أبوية على الأخص ·

منابع الرضا :

يمكننا أن نستنتج من هذا الوصف للطفولة السلطوية أن الحياة عملية صارمة بالنسبة للطفل فى مجتمع تقليدى · وهذا ليس بصحيح · لأن ظروف طفولته تنسجم مع نموذج الحياة فى مجتمعه ، وهو على العموم يراها طيبة ·

انه يجد فى حياته ثلاثة منابع للرضا · أولا ، من المفروض أنه يستطيع أن يتعلم المهارات التقليدية · ولو أن تعلمه لها يعنى الاتباع المطلق لنماذج تقليدية ، الا أنه يتطلب من الطفل حل عدد من المشكلات والمراجعة المتكررة للقدرات التى تنمى فى نفسه · ومن شأن ممارسته لها بفاعلية وسرور أبويه بأدائها ، أن يشعره بقدر محسوس من الرضا والسرور ·

ان جزءا من تعلمه يتكون من تقليد مهنة أبيه أو المشاركة فيها • واذ تكون هذه المهنة قابلة لفهمه حتى فى سن مبكرة ، فانه يتبع عمل أبيه ويسهم فى المهام الصغيرة فقد يركب مهرة ليجول فى الأرض التى تملكها العائلة ويشرف على العمال الأجراء كما يفعل أبوه • ولما كان حقل الأنشطة التقليدية هو الحقل الوحيد للتصرف الذى يشجع فيه الطفل على استخدام مباداءته ، فانه يتجه اليها بشغف أكبر ، ويجدها الأكثر اشباعا له وهو بالغ فيتشبث بها •

والمنبع الثانى لسرور الطفل انما يكون فى حقيقة حصوله على متنفس لاخراج غضبه • وهو اذ ينفث عن نزعته العدوانية على أفراد أصغر أو أدنى ، انما يشعر باشباع حقيقى كما لو كان يشبع حاجته للانجاز ، أو أية حاجة أخرى •

وثالثا لا يبدو له تصرف أبويه كتصرف غاضب أو متوتر مكشوف ، وانما كجانب معقول من أسلوب حياة • انه جزء أساسى من مجموعة علاقات تشبع نفوسهم بالرضا ، وقد يتطلع هو الى الدخول فيها عندما يصبح بالغا • وهذا التطلع يقوى الاشباع الذى يحققه بالاطلاق المسموح به لغضبه ،وتطلعه لاداء أدوار سلطوية أعلى كلما تقدم به العمر يزيده اشباعا ورضا ويعوضه عن شعوره بالضيق أو الكبت • ولهذا فهو يضغط نزعاته العدوانية ورغبته فى التسلط ، ولكنها تبقى فى اللاشعور ، لينفث عنها طوال حياته فى علاقاته مع من هم أدنى منه •

الدين ومعنى الحياة :

لما كانت المبادءة المبكرة للطفل تسبب له الألم والفزع ، فهو يتعلم تخوفا عاما من ممارسة المبادءة • كما يتعلق أيضا بمن هم أكبر منه عادة وهو متوجس خيفة خلال استكشافه للعالم الطبيعى البسيط الذى يحيط مباشرة به • ومن ثم يكون ادراكا معينا حول العالم الطبيعى •

لقد كان أبواه هم الأفراد المسئولين عن قلقه وألمه فى البداية • ومع هذا فهو لا يطيق اعتبارهما المسئولين ، لأنهما من الأهمية بالنسبة له بحيث لا يجرؤ على الاحتفاظ بفكرة أنهما لا يعطيان أغراضه وحاجاته اعتبارا كبيرا • ومن ثم هو يزيح عن عقله الواعى العلم بأن سلوك أبويه كان هو السبب فى حيرته وقلقه وألمه •

ورغم هذا يظل القلق والألم باقيين فى داخله ، ويسائل نفسه لماذا

يبقيان • وهذه المشكلة اذ تستحوز على عواطفه ، تشعره بأن الأفراد الأكبر منه ينظرون الى العالم الطبيعي كما لو كان يحتوى على قوى تهيمن على الحياة ، وأنها تهدد بالخطر ولا يمكن السيطرة عليها • انهم يخافون على محاصيلهم ، وصحتهم ، وحياة حيواناتهم وأعضاء أسرهم • ومن الأحداث التى تقع ما يبرر مخاوفهم بوضوح • وهم ينسبون هذه الأحداث الى فعل قوى غير مرئية ، تعمل بلا معقولية • ولا يمكن التنبؤ بها ، أو هى على الأقل لا تعطى اعتبارا لرفاهية الأفراد من البشر • وهم يتخففون من قلقهم بشأن هـذه الأحـداث بالدعاء لهذه القوى الروحية • وبكل تواضع يقدمون القرابين ، أو يؤدون طقوس السحر أملا فى الحفاظ على محاصيلهم وحيواناتهم وحياتهم • وبتقربهم هذا الى القوى الروحية ، يذهب عنهم القلق •

وعندما يعى الطفل هذا التصرف يرى ما يفسر المشـاكل التى كانت تؤلمه • ان مصدر قلقه انما هو فى تواجد هذه القوى غير المعقولة فى العالم وتحكمها فى قدره • ولقد ابتلى من الألم بما علمه الانحناء بتواضع لهذه القوى الروحية ، لكى تبارك حياته وتعاونه على أن يثبت باحتماله للألم أنه جدير بفضلها • كما أن علاقته بالبشر الاقوياء من حوله شبيهة بعلاقة هؤلاء بالقوى الروحية • وهو يجد فى مدركاته هذه تفسيرا لقلقه وألمه • انها تصبح ذات مغزى • أنه يتعلم الاعتقاد فى أحقية التصرف السلطوى ، وفى القوى الروحية وفى خطأ التدخل فى سلطتها باعتقـاد يجاوز المنطق ، ويجعل المنطق غـير ضرورى • وحتى فى تكنولوجية الانتاج تتركز جهوده على وسائل ارضاء القوى الروحية والتأكد من تدخلها لصالحه ، وليس على الاستكشافات الفنيـة التى يصفها العالم الحديث بالرشد •

وأبناء المجتمع التقليدى ، اذ يحلون مشكلة الألم بهذا التفسير لطبيعـة العالم ، لا يمكنهم تصور قابلية العالم لأن يدار بمبادءتهم وذكائهم ، وذلك لأن أفكار الاعتقاد بأن هذه القوى غير المميزة هى التى تحكم العالم ، يقضى على ما يبرر الألم • وهكذا يضغط على الأفراد فى المجتمعات الفلاحية التقليدية دافع قوى أعلى بعدم التدخل فى مشيئة القوى الروحية •

وفى هذا التصادف بين الاعتقاد وبين الادراك اللاشعورى المبكر يوجد أكثر ما يبرر انتقال الحضارة من جيل الى آخر • ان الحضارة لا تنتقل من جيل لآخر بالذاكرة أساسا ولكن بالشخصية •

وليكن واضحا أن هذا الدافع يضغط على أعضاء الصفوة أو الطبقات العليا ، بقدر ما يضغط على عامة الشعب • فابناء الصفوة هم الآخرون يمرون بتجربة الأبوة السلطوية ، ويعيشون فى نفس البنيان الاجتماعى وينخرطون فى نفس التصرف تجاه القوى التى يعتقدون أنها المهيمنة على العـالم • انهم يشعرون بنفس الألم فى الطفولة عندما تؤدى استكشافاتهم الى سيطرة الآباء السلطوية على أنشطتهم ، كما يتلاءم مع تجربتهم المبكرة للاعتقـاد فى وجود قوى غير مميزة ، يجب أن يعاملها الفرد بالاحترام ويحيطها بالقداسة ، وفى أنها هى التى تحكم العالم ، وهذا تقريبا نفس اعتقاد العامة البسطاء • وهم يجدون كالعامة أيضا فى الحفاظ على علاقاتهم بهذه القوى غير المرئية ما يبرر الألم •

الطفولة والبلوغ :

ان تكوين الشخصية لا يكتمل فى مرحلة الطفولة المبكرة أو الطفولة • انه يستمر طوال الحياة • فما من حادث حتى الموت الا ويكون له أثره عـلى الشخصية • ومع هذا ، فان أحداث المراحل التالية للحياة لا يمكن أن تعيد ابتداء عملية تكوين الشخصية ، كما لو لم تكن هناك طفولة قط • بل هى تقوى أو تنازع ، أو تبنى على علامات الشخصية التى انطبعت على العقل فى وقت الطفولة •

ان الفرد يحرز كبالغ صورة أوضح عن طبيعة البيئة الأكبر التى يعيش فيها فى حالة ما تكون علاقات هذه البيئة متسقة مع علاقات العالم الصغير فى طفولته • فاذا ما تعارضت العلاقات ، تسبب له ذلك فى الارتباك • وما من فرد يكون فعالا فى أداء أى دور اجتماعى كبالغ ما لم يجد من الضرورى والمجدى والمقنع أن يعمل بطريقة مماثلة لتلك التى عمل بها فى عالمـــه الصغير فى طفولته •

وبهذا لا يمكن أن يصبح الفرد مصلحا لجماعته أو مجتمعه اذا لم يشعر بأن مؤسسات جماعته أو مجتمعه تهـــدده بعمق وبأنه من الممكن تغييرها بجهوده • وما من فرد يشعر بهذا ما لم يكن قد شعر فى طفولته بأن تصرف أبويه والأشخاص الآخرين الذين حكموه فى طفولته يهدده ، وما لم يكن قد جرؤ على مقاومة تهديدات الطفولة (بتلافى أب فظ أو متعسف مثلا ، أو التصدى لأم غير مراعية ومحبة لنفسها) •

وبالمثل ، ما من رجل يشعر بأن مستقبلا مرضيا يتحقق بالعمل مع

عناصر العالم الطبيعى من حوله وجعلها تخدمه بكفاءة أكثر ما لم يكن قد وجد كطفل أن فى مقدوره مهاجمة مشاكل البيئة الأصغر لبيئته بنجاح وبقناعة . وبهذه الطرق البالغة الأهمية يكون الطفل أبا للرجل .

ولا يستتبع ذلك أن تكون ثمة مشكلة هامة من مشاكل البيئة الأكبر مماثلة دائما للمشكلة التى حلها الفرد كطفل . وحيثما لا يكون الأمر كذلك ، قد يعيش الفرد حياته كبالغ مع علاقة قليلة بالعالم الأكبر . أما اذا كان كذلك . فقد تكون للاتجاهات التى تكونت فى نفسه كطفل نتائجها الاجتماعية الهامة . وهكذا يستنتج أن حياة الطفل فى مجتمعه لا ترضيه كبالغ . الا اذا كانت تعطى المعنى للمشاكل التى استكشفها وهو طفل ووجد من الضرورى أن يضغطها فى اللاشعور . ومعنى هذا أن الحياة لا تكون مرضية الا اذا جاءت بتبرير للآلام التى أربكت الفرد فى طفولته . فاذا أرضته ، لا تكون النتيجة أنه لم يعد يشعر بالآلام ، بل ان الآلام محتملة ، حيث أن الفرد يستطيع تفسير الألم الذى عاناه فى طفولته السلطوية ، والذى كان فى حاجة اليــه ليعلمه أن يكون متواضعا تجاه القوى الروحية التى تحكم حياة البلوغ على نحو سلطوى . هكذا يصبح الألم محتملا ، بل ويوجد الآن بين الفرد وأقرانه، (حيث أنه يتعامل مع القوى الروحية باسم جماعته كلها) ولا يعزله عنهم .

هذا وبالاضافة الى أنه ما من نظام اجتماعى يمكن أن يكون فى نظرى مرضيا ومستقرا ما لم يتيح متنفسا مقبولا للغضب الذى تثيره آلام الطفولة ، الغضب الذى يبقى طوال الحياة ، حتى ولو كان بلا شعور . ان الغضب يمكن أن يطلق فى المجتمع التقليدى بالتسلط على كل من هو أدنى مرتبة فى النظام الاجتماعى . وفى معظم المجتمعات التقليدية يمكن اطـــلاق الغضب بصورة أصرخ ضد الغرباء . وفى نظرى أن الغضب سرعان ما ينفجر فى حضارة تثير الغضب (ككل الحضارات) ولكنها لا تفسح مجالا لانطلاقه، وبانفجاره وانطلاقه فى قنوات غير مقبولة يحدث التغيير فى النظام الاجتماعى .

الفصل الخامس

تكوين الشخصية واستقرار المجتمع التقليدى

حتى الآن كنا نناقش تكوين الشخصية فى مراحله النظرية · ولسوف أقتبس مباشرة من دراسات الباحثين المهرة فى الطفولة فى بورما وأندونيسيا ، لكى أعطى أمثلة واقعية محددة للطفولة فى المجتمعات التقليدية ، وبهذا أرسى أساسا لتعميمات خاصة باستقرار المجتمعات التقليدية · ومع اختلاف تفاصيل وسائل تدريب الطفولة وتنوع مبررات تطبيقها بين مختلف الحضارات ، أرى أن العناصر الأساسية لعلاقات الآباء والأطفال ، ونموذج الشخصية الذى تتمخض عنه واحدة فى جميع المجتمعات التقليدية الأخرى ، كما فى هذين المجتمعين ·

الطفولة فى بورما وجاوة

بورما :

المرجع الأول فى دراسات الطفولة فى بورما هو دراسة هازيل م· هيبتون Hazel M. Hitson التى أمضت بضعة شهور فى عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ فى دراسة الشخصية فى قرية تبعد ٢٠ ميلا عن العاصمة رانجون · كما سأقتبس باختصار من بحث للوسيين م· هانكس Lucien M. Hanks الذى أمضى بعض السنة آخر الحرب العالمية الثانية بين جماعة الاراكا ينسى Arakanese التى تقطن فى غرب بورما وتتصل اتصالات وثيقة بالحضارة البورمية(١) ·

---

(١) لوسيين م· هانكس : « الكيان الذاتى للفرد فى الشخصية البورمية » التحليل النفسى ، المجلد ١٢ عام ١٩٤٩ ، ص ٢٨٥ — ٣٠٠ ،

وهازيل مارى هيتسون : « النماذج العائلية وبنيان الشخصية فى بوستون وبورما » كلية رادكليف ، ابريل ١٩٥٩ ·

ومارجريت ميد : « النماذج الحضارية والتغيير الفنى » — مارس ، الأمم المتحدة ١٩٥٣ ·

كتبت الآنسة هيتسون :

ان العائلة (البورمية) وحدة وجدت لخدمة احتياجات الأب • فالطاعة واجبة على الأم والأبناء على السواء • والأطفال يمتثلون فى حضور آبائهم ، وينحون بعيدا عندما يحضر الضيوف • وواجب الأب أن يحمى العائلة فى أوقات المتاعب • ويجب ابعاد الأطفال عن أية متاعب جادة تجنبا لغضب الأب ولمنع تورطه فى شجار مع آباء الأطفال الآخرين(٢) •

ويبدأ الاستغراق مبكرا •• ويجب عدم السماح للطفل بالصراخ خوفا والتعرض للاغماء •• ومن ثم يبذل كل جهد لتهدئته وراحته •• ولما كان صراخ الطفل يؤخذ على تحمل الجوع ، فهو يطعم استجابة لطلبه ليل نهار • فاذا بلغ الثلاثة شهور ، يمكن أن يترك يبكى لحظة بدون حضور فورى اذا كانت الأم مشغولة ، ولكن ليس لفترة طويلة ، منعا لتحول بكاء الخوف الى عادة ، فلا يكون من السهل اراحته ••• وبعدئذ يستخدم الخوف لمنعه من البكاء • انه يهدد باعطائه بعيدا للغرباء •• أو يخيفونه من أن يأتى كلب كبير ، أو هندى ، أو غريب ، أو شبح ، أو برق الخ •• ليخطفه ويذهب به بعيدا(٣) •

ويلاحظ هامكس :

ان الناس الذين يحملون الطفل أو يضاحكونه لا يطالبون قبله بأى التزام • ويمكنهم فى أى لحظة أن يسلموه لأحد وينصرفون كما لو كان عروسة أو نسناسا •

ولو أن الطفل قد يتعرض لصدمات قليلة بسبب هذه المعاملة ، فان علاقاته طفيفة بالناس •• وهو قد يعطى حمامه ويعطر ويلبس ، ويحرس بواسطة أشخاص بدل أمه •• والذكور قليلا ما يحظون بهذا التجميل ، ولكن يمكن أن يصطحب الأب طفلة فى جلسة دردشة ، أو مصارعة ديوك ، أو لعبة مصارعة •• وهذا الاصطحاب اختيارى ومن شأنه أن يولد الدفء والحماس ، ولكنه يمكن أن يتوقف فجأة • وهكذا ان وجد الدفء والحنان يعوزهما الاستمرار ولا يعتمد عليهما ، لأنهما لا يبنيان على التزام(٤) •

---

(٢) النماذج العائلية ص ١٢١ •

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ ــ ٧٥ •

(٤) الكيان الذاتى للفرد فى الشخصية البورمية ، ص ٢٩٠ •

وتلخص الآنسة هيتسون تصرفات الآباء بشأن قدرة الأطفال على تحمل المسئولية :

لا يترك الأطفال يبادرون الأشياء لأنفسهم ٠٠ والشعور السائد هو وجوب تعليمهم أن يعلموا كل شيء ٠ ويقال انه بدون تعليمهم ، لن يعرف الأطفال سوى كيف يلعبون وكيف يأكلون ٠

انه لا توجد مهام منتظمة يعهد بها الى الأطفال ليقوموا بها يوميا بدون أن يطلب منهم ذلك ٠ وفى الأعوام المبكرة للطفولة يقال للأطفال ما يجب أن يعملوا عندما يريد الآباء منهم أن يعملوا شيئا ٠ وفيما بعد تنتظم أشغالهم أكثر فأكثر ، ولكنهم يخطرون يوميا ، بل مرتين أو ثلاث فى اليوم ، كيف يؤدون نفس الشغل ٠ ويقول الأطفال انه اذا لم يخطرهم الآباء بعمل أى شيء ، يحق لهم اللعب ٠ انهم يقولون انهم لا يدرون لماذا ينتظرون دائما أن يخطروا بما يعملون ، ولكنهم ينتظرون وأخيرا ، وبعد التكرار لبضعة سنوات، يعرف الأطفال عملهم الخاص ويؤدونه بدون اخطار ٠ ويتوقع أن ينفذ الأطفال الأوامر المعطاة لهم ، ولكن لا يوثق فى قيامهم بذلك أثناء غياب الآباء ، الا بعد أن تصل البنات الى سن ١١ أو ١٢ أو ١٣ سنة ، والأولاد الى سن ١٣ أو ١٤ أو ١٥ سنة ٠ ولا يوجد ما ينم عن أن الأطفال يدركون الرغبات المتوقعة لآبائهم بالمضى فى العمل ، والقيام بأشياء لا يطلب منهم عملها(٥) ٠

ان التحول من الاستغراق (العفوية) الى التصميم على الامتثال الارادى للكبار يتم فجأة عندما يبلغ الولد سن الثامنة ٠ وبعد يوم من طقوس التكريم، يسلم الى مجموعة من الرهبان ويؤخذ الى أحد المعابد حيث يؤدى بعض المهام الصغيرة ويدرب على التعليم عن طريق التكرار لعدة ساعات مرة واحدة ، ثم يخضع بلا راحة لانضباط صارم٠ ولو أن فترة البقاء مع الرهبان قد لا تجاوز الأسبوعين فى الوقت الحاضر ، الا أنها كانت فى بورما قبل دخول الاستعمار تمتد الى فصل مطر كامل ، أو الى ثلاثة أو أربعة شهور ٠

ولا يكون الطفل غير مهيأ تماما لتلك المعاملة الصارمة ، حيث أنه قد تعلم فعلا أن الأشخاص ذوى السلطة يعاملون الفرد كما لو كان شيئا بلا قدرة وبلا شخصية ٠ ومع هذا فصرامة الحياة مع الرهبان لابد وأن تدفع بالدرس الى البيت مسببة صدمة ٠

---

(٥) النماذج العائلية ص ١٢٢ ٠

ولعله من المفيد أن نسرد جانبا كبـيرا من تلخيص الآنسة هيتسون للصفات الأساسية لعلاقة الأبوة والطفولة ، بدلا من اقتباس تفاصيل أخرى من بحثها ٠

ثقافة العائلة

التصرفات تجاه الأطفال

ان أول فرض أساسى يسلم به الآباء فى بورما هو أن الأطفال يجب أن يستخدموا :

(أ) عمل أشياء للآباء والبالغين وانجاز عمليات المراسلة (مشاوير) ٠

(ب) يمازح الأطفال أو يعاكسوا كوسيلة لتسلية الـكبار ، ويستخدم المناطق الحساسة للطفل ومخاوفه الخاصة لجعله أكثر فاعلية ٠

(ج) أن يوجه اللوم الى الأطفال بدلا من البالغين كلما أمكن ذلك ٠

وثانيا يفترض أن الأطفال غير مهمين :

(أ) لأنهم ليسوا بشرا كاملى التكوين ولا يجوز معاملتهم كبالغين ٠

(ب) وينظر اليهم كما لو كانوا لا يعرفون ولا يفهمون ٠ ويتحدث عنهم كما لو كانوا بلا مشاعر ٠ ويمكن مناقشة أى شىء فى حضور الأطفال ، كما لو كانوا غير موجودين ٠

(ج) لأنهم يعتبرون أقذر من البالغين ، ومن ثم لا يسمح لهم بالجلوس على الحصر التى يستخدمها البالغون ٠

(د) لأنهم لا يحتاجون الشكر على الأشياء التى يؤدونها للكبار ٠

وثالثا يفترض فى الأطفال صعوبة المراس ما لم يلزموا بالطاعـــة عن طريق استخدام الخوف والقوة ٠

(أ) يجب الآباء أن يخافهم الأطفال حتى يطيعوهم ٠

(ب) يعتقد أن الأطفال الذين يوجه اليهم المديح مباشرة يبالغون فى تقدير أنفسهم ويستطيبون الكسل ٠

(ج) يعتقد أن الأولاد أصعب فى التنشئة من البنات ، ولهذا يجب أن يضربوا أكثر ٠

(د) الأطفال الأكثر استغراقا أو عفوية يكونون أشقياء ويزدادون سوءا مع كبرهم ٠

ولا شك أن البيئة التى تعكس هذه الافتراضات تولد الضيق وتثير الغضب ٠ ويتوقع الآباء أن يفعل الأبناء من الأشياء ما يعتبر سيئا ، عندما يغيبون عنهم ومن ثم لا يستطيعون منعهم ٠ ولهذا يكون الأطفال عدوانيين فى لعبهم لأنهم يجدون فى اللعب متنفسا لاطلاق غضبهم ٠

وكل تصرف عدوانى يصدر عن الطفل ضد الأطفال الجيران أو الغرباء يبدو تلقائيا فى عين الآباء كحق ، ما لم يسبب لهم المشاكل ٠ ولما كان لمركز الأسرة أهمية بالغة ، فان الاعتداء اذا حدث ضد عائلة قوية ، أو اذا كان من شأنه انضمام آخرين ضد العائلة التىقام طفلها بالاعتداء ، يبادر الآباء بالحضور فجأة ويضربون طفلهم بشدة ٠ ولا يكون خطأه فى ممارسة الاعتداء أو القسوة أو عدم الأمانة ، ولكن فى الاساءة الى مركز العائلة ٠

انه ليصعب القول ان الآباء يدربون أبناءهم ٠ وهم يحكمونهم بلين ، وربما على سبيل التسلية ٠ ولكن يكون التدريب قاسيا ضد انطلاق الغضب ، انطلاق الغضب ضد الآباء ، ويعطى اهتمام كبير لتعليم الطفل الفرق بينه وبين الكبار ٠ ويفرض هذا بالسلطة فى أول الأمر ، ثم بأشد العقوبات العاطفية ٠

ومن شأن التجربة مع الرهبان أن تدعم ذلك ٠ فما يعطى لها من اهتمام ينم عن ادراك لا شعورى لنزعة الكراهية ضد الكبار ٠ وتكون هذه النزعة من القوة بحيث يجب اتخاذ احتياطات دفاعية قوية ضدها ٠ ويصبح الأولاد غير قادرين على أن يعملوا مستقلين فى حضور الكبار أو الرؤساء ، ويعتمدون على الكبار والرؤساء فى حكمهم على الأشياء ٠

جاوة :

سوف نقتبس باختصار أكثر من دراسة قامت بها هيلدرت جيرتز

عن الطفولة فى جاوة(٦) • ويصور بحث السيدة جيرتز بوضوح كيف يمكن أن تظهر الصفات التى أسميتها بالسلطوية مع وجود التهذيب والتغذية الكافية والرعاية الطيبة • وقد استخدمت الحروف البارزة لابراز بعض الكلمات بالاضافة الى الكلمات الاندونيسية :

يعتقد الجاويون أن الطفل حساس جدا وعلى الأخص بالنسبة للصدمات المفاجئة التى قد تؤدى الى المرض أو الموت •• ويمكن اعتبار كل العادات الخاصة برعاية الطل كمحاولة لدفع هذا الخطر •

يعامل الطفل بطريقة مسترخاة ، ومساعدة تماما ، ولطيفة وغير انفعالية •• وقلما يسمع طفل يبكى •

ويقضى الطفل معظم وقته ، خصوصا بعد الأشهر القلائل الأولى ، معلقا على خصر أمه وهى تمشى هنا وهناك وتعمل • ويقال على الطفل فى مرحلة الطفولة المبكرة ، وحتى الخامسة أو السادسة من عمره « **دوروونج جاوا** » أى ما معناه « ليس بجاوى بعد » • وهذا يعنى أن الطفل لم يصبح بعد متمدنا ، ولم يزل غير قادر على السيطرة على انفعالاته بأسلوب البالغين ، وعلى الكلام بلغة مناسبة ومحترمة تناسب مختلف المناسبات الاجتماعية • ويقال عن مثل هذا الشخص أيضا « دوروونج بخيرتى » أى « لا يفهم بعد » ، ومن ثم يرى أنه لا يوجد ثمة ما يدعو الى الزامه بأن يكون شيئا غير ما هو فعلا ، أو عقابه على أخطاء لا يعيها • وهذان المفهومان المرتبطان « جاوا وبخيرتى » يلخصان آراء أهل جاوة فى النضوج وفى العلاقات الشخصية للبالغين، وهما مفتاح التركيب العام لمثل هذه الآراء التى تنقل الى الطفل النامى • ولكن فى مرحلة حياته الأولى ، وفى معظم المرحلة الثانية تعلق هذه الأسس لتقييم التصرف •

وعندما يصبح عمر الطفل نحو ١٤ شهرا أو أكثر من ذلك أحيانا ، وما لم يولد طفل أصغر ، تفطمه الأم • ومنذ بدء حياته تقريبا كان يعطى بعض الطعام التكميلى فى صورة موز مهروس ، أرز أو أية أغذية خفيفة ، وبهذا تكون صدمته خفيفة عند فطامه • ولعله من المهم « **أن الأمهات يخشين كثيرا**

---

(٦) نزح البورميون الى بورما من آسيا الوسطى ، ولم يحط بهم فى بورما سوى الأرض • أما أهل جاوة فقد جاءوا من مكان ما بالبحر • وفيما يبدو لم يوجد أناس يحتمل أن يكونوا قد حققوا اتصالا حضاريا بين الشعبين •

من ازعاج الطفل » بعملية فطام مباغتة أو قاسية · ويحاولن جعل الفطـــام تدريجيا بقدر الامكان ·· وأحيانا تكون الأم متخوفة أو متوجسة من الفطام مما يعرض الطفل لفترة طويلة من المعاملة غير المستقرة ، فهو يفطم ، ثم تعود الأم الى ارضاعه ، ثم تفطمه مرة أخرى ···

والمشى تحول هام آخر ، ويعطى نكهة جاوية خاصة · فلا يسمح للطفل بمحاولة التحرك وحده من حوله ، الا اذا كانت عضلاته قد نمت بقدر يكفى للوقوف وصلب عوده · فلا يمر الطفل الجاوى بمرحلة الحبى كلية · فطوال طفولته يحمل على خصر أمه بواسطة شال يعلق فيه كسلة ، ويكون قريبا من ثدى أمه بحيث يستطيع الرضاعة وقتما يشاء ، كما يكون موضع اهتمام أو ملاحظة أمه دائما · ان كل رغبة له تتوقع وتستجاب ، ولا ينتظر منه أن تكون له مبادءته الخاصة · ويترتب على طول المدة التى يشد فيها الى خصر أمه نزوعه الى الوقوف موقف المتفرج بعد البلوغ بدلا من المشاركة الفعالة فى العالم المحيط به ·

وبانجاز الفطام والمشى ، يكون الطابع الأساسى للمرحلة الثانية هو تمكين الطفل من أن يتحرك مستقلا عن الأم ، وتنشأ الحاجة الى وضع تصرفاته تحت اشراف له جانبه الاجتماعى وليس بطبيعى فحسب · والوسائل الأكثر استخداما فى هـــذه المرحلة المبكرة هى أولا ، التعليمات التفصيلية وغـــير الانفعالية الى الطفل ، على أن لا تقترن بالتهديدات أو بالعقـــوبة من جانب الأبوين · وثانيا التهديد بالنتائج الفظيعة على أيدى الغرباء أو الآشباح اذا كان الطفل سيئا · ونادرا ما يوقع العقاب الفعلى بمعرفة أعضاء الأسرة أنفسهم ، ولا يلجأ الى التهديد بسحب الحب قط · ولا يطالب الطفل بأية متطلبات الا اذا اعتبر أنه قد كبر الى حد استيعاب التعليمات الشفوية · وهذه يعطيها البالغون له بهدوء وبأسلوب سلس · ويفترض فيما يبدو أن الطفل لا يملك من امكانياته ما يعينه على مواجهة المشاكل الصغيرة لكل يوم ··· وليست هناك محاولة أو رغبة فى ترك الطفل ينمى مبادءته واستقلاله ·

ويبدأ الأب فى توجيه الاهتمام الى الطفل فى مرحلة الفطام وتعلم المشى ·· وبينما توصف الأمهات بأنهن « ترسنا » أى « محبات » للأطفال ، يوصف الآباء بأنهم « سيننج » أى « يسرهم الأطفـــــال » · والأم هى التى تعطى التعليمات للطفل فى صيغ اجتماعية ، وتتخذ العديد من القرارات له ، وتوقع عليه معظم العقوبات ·· ولا يشعر الطفل بقربه من الأب الا منذ نهـــاية السنة الأولى حتى السنة الخامسة ، ثم يأتى بعد ذلك الوقت الذى لا يسمح

له فيه باللعب بجوار أبيه ، أو يجد فى اثره أثناء الزيارات ، ولكنه يجب أن يبقى بعيدا عنه فى احترام ويتحدث اليه بصوت مهذب • وحول هذا الوقت نفسه يمر تصرف الطفل عموما بعملية تغيير ••• فبعد أن كان تصرفه فوريا وضاحكا ، يتخذ طابعا يغلب عليه الرضوخ والضيق تحت اشراف البالغين • وهناك ارتباط ما بين هذين الحدثين •

عناصر عامة : اتجاهات أبوية :

هناك اختلافات ملحوظة بين هاتين الحالتين ، ومع هذا وعلى الرغم من افتقار الاتصال التاريخى أو الثقافى بين بورما وجاوة ، اللذين جاء أهلهما من مناطق مختلفة ، وأحد البلدين بوذى والآخر مسلم ، فان ثمة أوجه تشابه بينهما تلفت النظر(٦) • ففى كلا المجتمعين ينظر البالغون الى الطفل على أنه غير مسئول وغير قادر وليست لديه القدرة على المقاومة أو على ادارة دوافعه أو مواجهة أية قوة خارجية • وهو أيضا جد مرهف أو رقيق ، ومعرض دائما لخطر الأذى • وبالتالى فهو يعامل برعاية أقرب الى اللهفة ، وقبل أى شىء آخر يمنع من البكاء • وعندما يكون فى سن يحول التهديد بينه وبين البكاء ، يكون للتهديدات أثرها المقنع كالاستغراق أو التلهية • انه ليس بانسان مستقل يحترم بل مجرد أداة أو لعبة • ان الأم التى تحملت عبء خلفته ، هى التى ترعاه بينما يكون سلوك أبيه أكثر قليلا من السرور والتسلية بوجوده •

وبعد البلوغ ، ينظر الى الطفل نفس النظرة من حيث توافر امكانياته الداخلية اللازمة للنمو الذاتى • ومن ثم لا يتضمن تدريبه تهيئة البيئة المشجعة لتنميته والمساعدة عليها ، وانما يتضمن الحمـــاية ، والترويض والاشراف والتوجيه كما لو كان دمية من الصلصال أو الأسفنج ، أو قادرا على التقليد •

المؤثرات المشتركة فى الشخصية : الشك الذاتى ، الاحترام :

ان الطفل لا يحصل فى أى المجتمعين على رعاية حنونة تكون من الكفاية والاستمرار بقدر يخلصه من توتراته • ان الاستغراق الواضح فى طفولتـه لا يكون مسئولا عن احتياجاته • حقيقة أن الطفل فى كل الحضارتين يشعر بشىء من الحب والرعاية ، ولكنه لا يلبث فى كليتهما أن يرى سريعا بعـــد الطفولة أن الأشخاص الأقوياء من حوله ليسوا بالمسئولين عن احتيـــاجاته ومبادءته • بل هم يسببون له الألم ، برد فعل اذا ما أقحم مبادءته عليهم • ان رد فعل البيئة على تصرفاته محير وفوق ادراكه • ولعل الأكثر دقة أن نرى أنه ينظر الى العالم كمكان تخضع فيه الأحداث لارادة الأقوياء ويجد فيه الفرد

أن السلامة فى الامتثال ما لم يكن الفرد فى مركز القوة ويملك اصدار الأمر . وهكذا يتجنب الفرد المواقف التى يكتشف فيها أن علاقته بالأفراد الآخرين هى علاقة أكفاء ، أو بعبارة أخرى التى يستطيع فيها مجابهة مشاكل العلاقات الانسانية . وبدلا من أن يتخذ مثل هذه المبادءة يتقبل النظام القائم للسلطة . اما أنه أقل شأنا فيرضخ ، أو أعلى شأنا فيوجه أو يأمر .

وثمة عنصر مشترك آخر له تأثيره على الشخصية فى الحضارتين البورمية والجاوية ، وهو مفهوم يجب أن يتعلمه الفرد منذ طفولته اذا أريد له أن يتصرف التصرف اللائق كبالغ . ويمكن التعبير عنه بكل بساطة بالاحترام ، بالسلوك اللائق والعلاقات الشخصية . وهو ليس باتجاه نحو الانجاز الانسانى ، أو بصفاته الأخلاقية والثقافية ، أو برأى يكون قد أبداه . انه رد الفعل المركزى فى الحياة . انه التصرف اللائق النابع من الداخل فى حضور مرتبة اجتماعية أعلى . انه لا ينسب الى الفرد نفسه ولكن الى مركزه .

وهذا المفهوم ، اذ غرس عميقا فى نفس الانسان ليس كملاحظة خارجية لما هو لائق ، بل وكملاحظة داخلية أيضا ، لا ينطوى على كثير من التحفظ والتواضع ، بل ينطوى على الخوف والخجل وربما التوتر . انه يحول دون التفكير فى العلاقات الشخصية . انه يكبت أى تعبير حر أو ممارسة للمبادءة فى الفرد عندما يتعامل مع العالم الانسانى من حوله .

معالجة الغضب :

فى كلتا الحضارتين لابد وأن يكون للطفل رد فعله بالنسبة للتوتر والفزع اللذين يخلقان فيه خلال طفولته المبكرة . ويجب تحويل هذا الغضب الى وجهة أخرى اذا أريد للمجتمع الاستقرار . وهو فى كل من المجتمعين يوجه الى الأصغر ولكن مع وجود منافذ تنفيث أخرى ضرورية .

ان أهل جاوه ينفثون عن غضبهم بتحويله الى الأجانب ، مبررين ذلك بأن الدين يقره . فدينهم الاسلامى لا يقوى ممارسة السلطة داخل المجتمع فحسب ، ولكن يبيح العدوان ضد الأجانب اذا كانوا جميعهم كفارا .

أما الغضب المتولد فى نفس الفرد بفعل الكبوت فى الطفولة البورمية ، فهو من الشدة بحيث يبدو من الضرورى السماح للطفل باطلاقه ضد أى فرد خارج العائلة . ولئن كان هذا يكفل حلا مباشرا أو فوريا للمشكلة ، ولكنه

لا يبقى الا على خيط رفيع من الحلم أو امتلاك زمام النفس عند الرجل البورمى الذى يشعر دائما وبتكرار بخطر افلات الزمام ومهاجمة أى فرد من حوله ٠

ويكون البورمى دفاعات منوعة ضد هذه النزعة العدوانية التى يخافها لاشعوريا فى نفسه ٠ أحدها أن يكون صيغة تصرف دمثة ومعتدلة وودودة ٠ وهذا فى اعتقادى تصرف يطبقه الفرد البورمى كجزء من عملية كبت غضبه الخطر ٠ والدفاع الثانى هو التحريم الصارم فى حضارة بورما لأن يطالب الشخص بأشـــياء لنفسه ٠ وهذا التحريم من الصرامة بحيث لا يســتطيع البورميون الذين يعيشون فى فقر مدقع أن يشحتوا ٠ ودفاع آخر وهـــو اتخاذ موقف دفاع مطلق فى مواجهة البالغين ٠ هذا الدفاع يمتد الى جميـع الأفراد فى السلطة ٠ ومن الدفاعات القوية أيضا الايمان بالبوذية التى تعظ بأن السلام انما يقع فى الابتعـــاد عن كل الرغبات ، كل الشـهوات ، كل الاعتداءات ٠ وهذا الذى لا يرغب شيئا هو وحده الذى يستطيع أن يحظى بالسلام ٠ ومن شأن هذا التحريم أن يبرر مقاومة الفرد لدوافعه العدوانية وتوتره عندما يحاول استكشاف مشاكل العالم الطبيعى ٠

استقرار المجتمع التقليدى :

يتضح مما سبق أن بيئة الطفولة فى كل من بورما وجاوه ليست على ما هى عليه بفعل طارىء حضارى انفرد به هذان المجتمعان ، ولكن لأن البالغين فيهما متسلطون ٠ وحيثما نجد الشخصية السلطوية بين البالغين ، ينتظر أن تكون بيئة الطفولة وآثارها على الشخصية مماثلة أساسا لهـــا فى جاوة وبورما ٠

ولو أن للشخصيات الأبوية أهميتها المركزية ، فان ثمـة عوامل أخرى فى بيئة الطفولة تؤثر فى الشخصية الطفولية ٠ وأرى أن هذه العوامل الأخرى تتألف من عالم طبيعى يبدو مهيمنا على أقدار الناس وبنيان اجتماعى متحكم يلائم الشخصية السلطوية دون غيرها ٠ ان العجز عن مواجهة قوى العالم الطبيعى يكون أساس المفهوم التقليدى لطبيعة العالم ، وكلما خرج الطفل النامى من بيئته ليدخل فى الجماعة الأكبر ، كلما كان بنيانها الاجتماعى أكثر ملاءمة لتوقعات العلاقات السلطوية ٠ ان كل شىء ملائم ٠ وما لم تكن هناك قوى متداخلة ، يمكننا أن نتوقع فى المجتمعات التقليدية استمرار الشخصية السلطوية ومعها البنيان الاجتماعى السلطوى والصورة التقليدية لطبيعـــة العالم جيلا بعد جيل ٠ وهذا الاستمرار مقترنا بظروف من شأنها منع التباين

عن النموذج السلطوى هو من وجهة نظر النظرية الاجتماعية الأعظم أهمية بين مميزات المجتمعات التقليدية ٠

ان استقرار هذا النظام على مدى الزمن قد يتحطم اذا حدث ثمة تغيير بطىء ونامى فى النظام الاجتماعى ، أو تزايد مطرد فى فهم الطبيعية تمخضت عنه نظرة جديدة الى العالم الطبيعى ٠ ومع هذا فالاتجاه نحو مثل هذا التغيير البطىء ضئيل الاحتمال لأسباب عدة ٠

ذلك أن أعضاء المجتمعات التقليدية ، كما رأينا ، يتخوفون بوجه خاص من نزعتهم الى المقاومة أو التمرد ، ومن ثم يكبتون دوافع خلق الأشياء أو تغييرها فى أعماق اللاشعور ، فلا مخرج لها منه وينتج عن هذا أن تصبح قدرتهم على الانعاش صغيرة جدا ، ويكون تفتحهم للتجربة ضئيلا ٠ كما يعوزهم التصور الخلاق الذى يتخذ سبيلا للافادة القصوى فى أية ظاهرة غير متوقعة قد تصل الى علمهم ٠ كما أن كلا من حاجتهم للرضوخ ، وحاجتهم للتسلط بعد البلوغ ، تجد ما يشبهها فى مركزهم فى البنيان الاجتماعى السلطوى ٠ ومن ثم يعوزهم الدافع للبحث عن منافذ للتغيير الفنى والاجتماعى ٠ هذا فضلا عن أن بعض مميزات الشخصية هذه تؤلف مقاومة ايجابية للتغيير ٠ ان أعضاء المجتمع التقليدى يحجز بينهم وبين النظر الى أى من الطبيعة أو البنيان الاجتماعى نظرة جديدة ، لأنهم اذا ما وجدوا مشكلة تعين استكشافها ، واذا ما ولدت المواقف التى لم تحل التوتر فى نفوسهم ، أصيبوا بالضيق والكبت ٠ ان الفرد يشعر بالخجل اذا ما فشل فى اتباع علاقة شخصية استقر عليها العرف كأن يسبب صعوبة لجماعته اذا لم يسهم مثلا فى التبادل التقليدى للخدمات ، أو يعرضها للخطر بعدم احترام الطقوس الخاصة بالقوى الروحية والرضوخ لها ٠

وتوجد عند الصفوة رغبة ملحة فى الاحتفاظ بطابع خاص يختلف عن طابع الفلاحين والعمال ٠ فهم يرون فى المشاركة فى عمل يدوى فنى أو فى اظهار الاهتمام بالعالم الطبيعى أو بالأعمال حطا من قدرهم وتهديدا لمركز الصفوة كمجموعة ، من حيث اضعاف الفوارق المميزة لهم عن العامة ٠ وهكذا يحدث اعتراض الى حد ما على أنشطة الفرد الذى يجاوز حدود السلوك التقليدى ٠ وهو لا يتعرض لضغوط اعتراض الآخرين عليه فحسب ، ولكنه يمارس أيضا على نفسه الضغط ، طالما قد انغرس فى شخصيته سلوك مجتمعة ٠ ولكنه اذا حدث بالصدفة أن واجه موقفا جديدا قد يراه من وجهة نظر الحضارة الغربية مبشرا بالخير ، لا يلبث أن يشعر بعدم الارتياح الى تصرفه

المخالف لقيم الصفوة ، ومن ثم يقلل من ماهيته ليضطر الى تركه والابقاء على سلوكه التقليدى ٠

وثمة أمثلة قليلة تصور كيف تعوق امكانية التقدم التكنولوجى نتيجة لضغط المجتمع ، والضغط الذاتى من داخل الفرد نفسه ، ضد أى عمل من شأنه انتهاك العرف أو المركز المقبول فى النظام الاجتماعى أو تغييره ٠

فاذا أقدم نساج حرفى فى احدى المدن على تركيب آلة وأنوال ميكانيكية بغية زيادة انتاجه تعين عليه أن يتجاسر على القفز من مركزه المقبول ، لأنه سوف يقوم بتنظيم عمال وتوريدات وأسواق تجاوز نطاق نشاطه التقليدى ٠ وهذا كله يعنى ممارسة السلطة بجرأة وبما لا يتفق مع مركزه الاجتماعى ٠ فقد ينظر اليه على أنه يسعى الى كسب المساواة مع من هم أعلى منه من أعضاء الصفوة ٠ فضلا عن أن أنشطته الجديدة والمتزايدة قد تضطره الى اهمال واجباته والتزاماته قبل العائلة والجماعة ٠ وهناك مخاطر تؤرقه أكثر مما يؤرقه خطر فشل مشروعه ٠

وكما نعلم من فحصنا لتصرف أعضاء الصفوة بالنسبة لأى ارتباط بالعمل اليدوى ، يعتبر عضو الصفوة محطا لقدره اذا أقدم على انشاء مصنع نسيج ٠ وغالبا ما يؤدى الخوف من الاحتقار والشعور بعدم الارتياح الى استبعاد فكرة المصنع من ذهنه كلما طرأت له ، بغض النظر عن احتمالات ربحه المادى ٠

وفيما يختص بادخال الصناعات الكبرى ، ينظر اليه فى المجتمعات الفلاحية التقليدية على أنه نشاط يخص الأجانب ، وبعيد عن سلطة أو فهم كل من الصفوة المحلية وجمهرة العامة على السواء ٠ قد تكون الحكومة هى التى تدخل مثل هذه المؤسسات التى ترمز للقوة ، وبتعيين أحد الموظفين لتولى شرف ادارتها ٠ ولكن موظفا كهذا لا ينتظر منه أن يحط من قدره أو يتصدى لمسئولية حل المشاكل ٠ وفى مطالبته بالنهوض بفاعلية بالمهام العملية والمركبة لادارة المشروع ، مطالبة له بتمزيق بنيان شخصيته والتحول الى رجل مختلف آخر ٠

سيظل هناك دائما بعض الأفراد القلائل الذى يختلفون عن الأفراد النمطيين فى المجتمع ٠ فالفرد غير النمطى لأنه لا يستطيع القيام بواجباته التقليدية كأب أو يحتل مكانه اللائق فى النظام الاجتماعى ، يمكن أن يصبح قسيسا أو راهبا أو عبيط القرية ، أو رجل علم ٠ ومثل هذا الفرد يتقبل

فى المجتمع التقليدى كعامل فى خدمته ، ومن ثم لا يحدث ضغطا على بنيانه . ولكن الفرد غير العادى الذى يكون على قدر من الذكاء بحيث تجتذبه الأفكار الجديدة على الرغم من كـــل الضغوط المنفرة منهـــا ، وبحيث يستكشف الامكانيات الجديدة لكى يجعلها فى متناوله ويستخدمها ، ينظر اليه كشخص منعزل عن المجتمع التقليدى . ومن المؤكد أن تولد الضغوط الاجتماعية فى نفسه من التوترات ما يمتص بعض اهتماماته بأطفاله ، ومن ثم تعمـل على ظهور الشخصية السلطوية فى نفوسهم . كما أن الأطفال اذ يلحظون هـــذه التوترات فى سلوكه ، يلفظون تلك الصـــفات فى شخصيته التى سببت المصاعب .

وأرى أن هذه الضغوط هى المسئولة عن بطء تنمية المفاهيم العلمية وتجميع المعرفة عن العالم الطبيعى ، ومسئوليتها تزيد كثيرا عن صعوبة التقدم العلمى بالمعنى الموضوعى .

ومع هذا ، فهذه الحقائق لا تعنى ان التغيير الأساسى لا يحدث قط فى المجتمع التقليدى . فنحن نعلم أنه حدث فعلا فى عدد من المناسبات . ولكن ما ذهبنا اليه سابقا ، اذا أمكن قبوله ، يدل بجلاء على وجوب البحث عن قوة أو قوى مؤثرة محسوسة اذا أردنا الوصول الى تفسير مقنع للتغيرات الشديدة الطارئة فى المجتمع التقليدى .

وختاما ، قد يكون من المفيد اعادة القول انه ما من مجتمع يمكن أن يكون تقليديا ومستقرا بالكامل . وانه لصحيح وفى حكم المؤكد أنه ما من مجتمع تقليدى يخلو من أعضاء مجموعة أو بعض المجموعات التى تعد غـــير راضية بصورة ما عن القواعد والأحكام ، والا توجد به من بذور التغيير ما قد يقلب التكوين التقليدى رأسا على عقب ويحدث تغيرات فى الشخصية وفى الحضارة ، حتى ولو لم يكن المجتمع قد تعرض لقوى خارجية مؤثرة ومحدثة للتغير . والنموذج (الاسكتش) الذى رسمناه هنا لمجتمع تقليدى تماما له فائدته لأنه يصور العناصر والعلاقات الأساسية القائمة فى كل مجتمع تقليدى ، ومن ثم يصور طبيعة القوى المقاومة للتغيير . وهو بهـــذا يرسى أساسا لمناقشة أنواع القوى التى قد تدخل التغيير .

الفصل السادس

الأحداث المربكة وردود الفعل فى مواجهتها

لما كان للمجتمع التقليدى استقراره الكبير ومقاومته للتغيير ، فان القوى التى تهزه لابد أن تكون جبارة · فأى القوى اذن يمكن أن تسبب ظهور جماعة فى المجتمع التقليدى تطرح الوسائل التقليدية جانبا وتحول طاقاتها الى مهام التقدم التكنولوجى ، الى التغيير الجذرى الاجتماعى ؟ انه لموضوع أساسى فى هذه الدراسة ان هذه المجموعة تظهر عندما يمارس أعضاء مجموعة اجتماعية ما تجربة ، ما اسميه « سحب احترام الوضع » أو « المركز » ·

لقد نوهنا بأهمية المركز ، أى بشعور الفرد بأنه فى مكانه الملائم والمقبول فى نظام اجتماعى مستقر ، بالنسبة لشخصية الفرد فى المجتمع التقليدى · ومركز الفرد لا يتعلق بوضعه الاقتصادى فحسب ، أو بما اذا كان فلاحا أو سيدا ، ولكنه يتعلق أيضا بكل ما يفعل وما يعتقد ، بكل علاقاته بالأفراد الآخرين وبالقوى غير المنظورة التى يؤمن بوجودها ، ان مركز الفرد هو طابعه المميز ، وهو يتضمن أهدافه وقيمه فى الحياة · وبهذا يكون الاشباع الذى يحققه الفرد من نشاطه فى الحياة متوقفا جزئيا على المركز المرتبط به · ولكى يحقق هذا المركز الاشباع والرضا لا يشترط أن يكون رفيعا ، بل مجرد ملائم للفرد الذى يشغله ومحلا لاحترام الآخرين ·

ولاحترام الآخرين أهمية حيوية · ولكى يتحقق الاشباع الداخلى لأعضاء المجتمع ، ومن أجل الاستقرار الاجتماعى ، يتعين أن يكون مركز أعضاء كل مجموعة فى المجتمع معترفا به أيضا من المجموعات الأخرى ، وعلى الأخص من المجموعات التى لرأيها قيمته كرأى مناسب وسليم · فالفرد لا يمكنه أن يجد اشباعا وتقديرا فى تصرفه كبالغ ، بما فى ذلك معتقداته ، اذا لم يشعر أيضا بأن المجموعات التى يقدر رأيها تقر مثل هذا التصرف · فاذا كان أعضاء مجموعة قد تعلموا دورا ومركزا فى طفولتهم ، وتعلموا أيضا أن يقدروا رأى واحترام مجموعات أخرى معينة ، ثم وجدوا أن هذه المجموعات لا تحترم مركزهم ، كان لهذا الافتقار الى الاحترام ، أو لسحب الاحترام آثاره البعيدة

وذلك لأن القيمة التى يعطيهـا الفرد لمركزه ، والقيمة التى يعطيهـا لرأى المجموعات الاخرى ، عنصران لا يمكن الفصل بينهمـا لشخصيته ، ولطابعه المميز كفرد • واذا وجد من المستحيل أن يعتقد فى الوقت نفسه أن مركزه لائق ، وأن حكم الآخرين يمكن أن يوثق به، نتج عن ذلك صراع داخلى وتوترات فى نفسه •

وجدير بالذكر أن هذا لا يحدث ، لأن الفرد انما يشعر بأنه ينظر اليه كأدنى • فالفلاح مثلا يرى نفسه أدنى فى المركز الاجتماعى من السيد ، من غير أن يشعر بالضيق أو بالمهانة لمركزه الأدنى • ولكنه يحدث أن يشعر فعلا بالمهانة وسوء المعاملة ، اذا كان عمله كفـلاح أو كعامل لم يعد محـلا للاحترام ، بعد أن كان قد درج على الاعتقاد بأنه مفيد ومقدر فى سير المجتمع • وهذا هو الموقف الذى نسميه سحب وضع الاحترام • انه حالة سحب الاحترام من مجموعة كانت تحتل من قبل مركزا محترما فى المجتمع ، وكان هذا المركز مقبولا ومنظورا اليه من المجموعة كجزء له قدره فى نظام معقول للأشياء • انه سحب الاحترام المعطى لأهداف وقيم الفرد فى الحياة •

ومتى ظهر سحب الاحترام فى مجتمع ، تراخت عرى الروابط بين المجموعات ، وهى التى تشد المجتمع لبعضه بعضا • وسوف نبين فى الفصل القادم أن المجموعات التى تشعر بأن الطبقات الأعلى منها لم تعد تنظر نظرة الاحترام الى أهداف المجموعات فى الحياة ، لا تلبث أن تفقد رضاها عن المجتمع التقليدى • فتنبت فى نفوس أبنائها وأحفادها بذور التغيير الاجتماعى – وهى بذور يمكن أن تشق طريقها من خلال أقوى أغلفة الضوابط الاجتماعية وتدفع بالمجتمع فى اتجاهات جديدة •

بل ان سحب وضع الاحترام هو جذر القلاقل فى عـالم اليوم • ان الصفوة فى المجتمعات التقليدية كانت تحترم مراكز وأعمال المجموعات الأدنى منها • واليوم يحدث فى كثير من مناطق العالم المتخلفة اقتصاديا أن أبناء الصفوة اغتروا بأنفسهم وأصبحوا ينظرون بتعـال وبازدراء الى الطبقـات الأدنى منهم • والشعور الناجم عن ذلك فى نفوس أبناء الطبقات الأدنى بأن الطبقات الأعلى لا تعطى اهتمام أو اعتبار لأهداف وقيم هذه الطبقات وقيم هذه الطبقات الأدنى ، هو القوة الانقسامية الأساسية المفجرة فى هذه المجتمعات •

سحب وضع الاحترام : أثره على تنمية الشخصية :

يحدث سحب وضع الاحترام عندما يطاح بمجموعة تقليدية من الصفوة بالقوة لكى تحتل وضعها السابق مجموعة تقليدية أخرى ، أو عندما تغير مجموعة أعلى سلوكا بالنسبة لمجموعة أدنى . قد يحدث عندما يتحول أعضاء مجموعة التجار ، فى وقت تنتعش فيه التجارة ، الى تجار كبار يمارسون التجارة على نطاق واسع ولهم نفوذهم الاقتصادى الكبير ، ولكن ينكر عليهم المركز الاجتماعى الذى تحظى به تقليديا المجموعات التى لها مثل هذا النفوذ ، وذلك لأن الصفوة ترى فيهم تهديدا لمركزها . أو ربما تهاجر المجموعة الى مجتمع جديد يتقبل الأجنبى ويرفض الاعتراف بما تعتبره المجموعة وضعها الحق .

وأيا كان السبب ، يؤدى سحب وضع الاحترام الى صراع بين الأفراد الذين تعرضوا له . وهو ينم عن أن التوتر والغضب اللذين يتولدان فى نفوس البالغين يعملان على تغيير بيئة البيت على نحو يؤثر بالتالى على شخصيات الجيل القادم ، وهذا التأثير على مدى جيل أو عدة أجيال له أهميته البالغة بالنسبة لنظرية التغيير الاجتماعى .

وأول أثر لهما هو ظهور نوع من الشخصية بعد جيل أو أكثر ، سوف أسميه « انهزامى » ، أو اذا كانت التواترات الاجتماعية أعظم شدة ، أسميه « ناسك » . وقد تتمخض عن شخصية الناسك شخصية الانهزامى . وقد يحدث فيما بعد أن تفسح شخصية الانهزامى الطريق للشخصية المبتكرة ، وفى بعض الحالات الى نوع من الشخصية المبتكرة يمكن تسميته بالاصلاحى .

وكأساس لتحليل الآثار ، يكون من المفيد أن نعرف هذه النماذج للشخصية : الانهزامى والناسك والمبتكر والاصلاحى .

الانهزامى :

الانهزامى هو ذلك الشخص الذى يعجز خلال عملية تكوين الشخصية عن اشباع القيم المتصارعة فى نفسه بكبتها خارج دائرة الشعور ، وبدون أن يستطيع احلال قيم أخرى محلها . انه يستمر فى تأدية دوره فى المجتمع ، ولكن بدون اهتمام يذكر سواء بعمله أو بالوصول الى مركز . لقد وقف عند حد كبت قيم المجتمع والمجموعة التى ينتمى اليها فى نفسه ، ولم يعمل على اقتلاعها . ولو أنه كان قد اقتلعها ، أو خلق لنفسه قيما جديدة لاستطاع

بنجاح أن ينظم حياته ويديرها ، ولكنه لا يستطيع ذلك · فقد يكون غير مبال فينسحب ، أو سكير ، أو عالة ، أو « هيبز » ·

الناسك :

يقابل الناسك صراع القيم الذى يهدد شخصيته بنوع من السلوك الدفاعى · انه يتصرف طبقا للوسائل المقبولة والمعتمدة فى مجتمعه ، ولكنه يفعل ذلك بدون أى أمل حقيقى فى أن تصرفاته سوف تساعده على بلوغ أهداف مقبولة · وهو بهذا يمضى فى مجريات ما يتوقع له · انه دقيق ويعمل بنظام ويعتمد على نفسه ، ولكنه يعمل بدون مبادءة أو تصور أو حمية ·

المبتكر الخلاق :

الشخص المبتكر هو الذى يسعى لتكوين شخصية مرضية بالعمل على نقيض قيم المجتمع ، لأنه غير قانع بالأنشطة التقليدية لشخص فى مثل وضعه فى المجتمع · وهو بذلك يسعى لأن يتقبل مجتمعه أهدافا جديدة وقيما جديدة ، أى أنه يعمل بدرجة ما على تغيير المجتمع القائم · وهو أيضا ثائر عليه بمعنى الكلمة · ولكنه مع ذلك يستطيع أن يشبع حاجته الى شخصية مرضية بدون محاولة فرض قيمه على الآخرين ·

الاصلاحى :

الاصلاحى هو أيضا مبتكر يسعى للتغيير ، ولكنه لا يستطيع اشباع احتياجاته بدون أن يفرض قيمه على زملائه · انه يعمل صراحة ومباشرة على تغيير الوسائل المقبولة فى مجتمعه · وقد يكون ثائرا ، فيحاول اقامة مجتمع جديد ·

تلك اذن نماذج ممكنة لتكيف الفرد مع الصراع الداخلى الناجم عن المتطلبات المتناقضة لحضارته · وهذا التصنيف يبدو متشبعا ، طالما يكمن فى هذه الطبقة أو تلك نوع من رد الفعل المحتمل · ولسوف نستخدم هذه الاصطلاحات فى مناقشتنا لآثار سحب وضع الاحترام فى الفصول التالية ·

الفصل السابع

مظهر الانهزامية

فى هذا الفصل وما يليه سوف أبين أنه عندما يعانى الآباء السلطويين من سحب وضع الاحترام ، يخلقون حياة منزلية من شأنها تشجيع الانهزامية· وفضلا عن هذا ، سوف تتزايد الانهزامية على مدى أجيال · الا أنه فيما يحتمل ظهور الشخصية الخلاقة كنتيجة لعملية التغيير فى الشخصية ·

ولكننى أغامر باقتراح هذا الترتيب للتغيير فى الشخصية · لأنى انما أقدم نموذجا أو نظرية تذهب الى ما هو أبعد من الحقائق المتوافرة · وعلى الرغم من كثرة احتمالات الخطأ ، فان هذه النظرية تفسر فيما يبدو حقائق التغيير الاجتماعى والشخصية الانسانية أفضل مما تفسرهما أية افتراضات أخرى ·

الأثر الفورى لسحب وضع الاحترام

من المفيد فى بحث أثار سحب وضع الاحترام أن نميز بين هذه المنصبة على السلوك ، وتلك المنصبة على الشخصية ·

ان الأثر الجدفورى على تصرف الأفراد هو المقاومة ، أو أية صورة أقوى للغضب والتوتر · فاذا كان السحب يتألف من الاستحواز على القوة بواسطة مجموعة تنتهك القيم القديمة ، تحاول المجموعة أو المجموعات التى فقدت وضع الاحترام الاطاحة بالمعتدين ، اذا كانت لديها قوة تكفى للقيام بالمحاولة ، وترى من حقها القيام بذلك · هذا هو رد الفعل ضد العدوان الآتى من خارج المجتمع، ولقد حاولت الشعوب فى كل مناطق الاستعمار طرد الغزاة الأجانب بالقوة ، بمجرد ظهورهم لأول مرة ·

وعندما يكون سحب وضع الاحترام بواسطة مجموعة من داخل المجتمع ، فقد تحدث أيضا مقاومة بالقوة · ولكن اذا كانت هذه المجموعة لا يمكن

تحديها ، فان هؤلاء الذين فقدوا وضع الاحترام وتعرضوا بذلك للمهانة سوف يحاولون تجاهل السحب • أو قد يحتملون سحب وضع الاحترام ويستمرون فى العمل مع مراعاة قواعد السلوك المقبولة والمقدرة بقدر الامكان ، محترمينها باطنيا اذا كان غير مصرح باحترامها ظاهريا • ويستمر الأفراد فى الحياة ، أو على الأقل فى الاعتقاد طبقا للقيم التى تعلموها ، مع الشعور بالتوتر المستمر والغضب ، وبعض الاشفاق على النفس ، آملين أن تنقشع الغمة وأن تعود الأيام الطيبة التى تمتعوا خلالها بمكانهم الحق •

وتكون الأنواع الجديدة للعمل استجابة لموقف جديد عبارة عن تغيرات فى السلوك ، وليست فى الشخصية • فالشخصية لا تتغير الا اذا تصرف الفرد بطريقة مختلفة عن تلك التى كان يتصرف بمقتضاها فى نفس الموقف •

ولسوف يحدث بالتأكيد تغير ما على شخصيات البالغين الذين يتعرضون لسحب وضع الاحترام • ومع هذا التغيير فى شخصية البالغين لا يكاد يكون بعيد الأثر ، لأنه فى وقت البلوغ تكون ملامح الشخصية تأسست ورسخت بحيث لا يمكن تغييرها الا بفعل أحداث بالغة القوة • ومن ثم تنصب الآثار الرئيسية لسحب وضع الاحترام على الشخصية على الأطفال الصغار ، نتيجة لتغير سلوك البالغين فى البيت بعد حرمانهم من الوضع الذى كانوا يرتجونه فى الحياة •

ولا يجوز أن نفترض أن السلوك الانسانى سوف يتأثر كثيرا ، فان عملية تغيير الشخصية تبدأ بسحب بسيط أو مؤقت لوضع الاحترام • ولكن يجوز لنا أن نفترض أن استمرار النظرة السيئة الى أساليب الحياة التى يجد فيها الفرد شخصية رضية ، أو أن استمرار التدخل فى أحد جوانبها الهامة ، اذا كان شديدا ومن جهة جماعات لها نظرتها القيمة والمرتجاة ، سوف تكون له آثار أخطر • انه نوع التصرف على مدى فترة طويلة من الزمن ، الذى نقصده هنا باستخدام عبارة « سحب وضع الاحترام » •

ويتوقف مدى أساليب التغيير الذى يطرأ على سلوك البالغ فى البيت ، على مدى شدة سحب وضع الاهتمام • ولعله من الأوفق تقسيم مختلف الحالات الى نوعين : الأول هو السحب بواسطة جماعة من الصفوة داخل المجتمع وهو مقبول ومحترم كجزء من البنيان الاجتماعى • والآخر هو الفتح أو الانقلاب

الاجتماعي بواسطة مجموعة خارجية لا تشارك فى حضارة المجتمع ، ومن ثم لا يحق لها الاحترام أو تحقق لها الهيبة فى المجتمع الا تحت ضغط قوتها ٠ ولما كانت مجموعة الصفوة ، فى الحالة الأولى ، تشارك فى حضارة المجتمع ، يكون انتهاكا للقيم القديمة أقرب الى المحدود ٠ ولما كانت القوة الغازية فى الحالة الثانية قوة أجنبية ، فان نظام قيمها يختلف عن نظام المجتمع ، وبحكم أسلوب حياتها سوف تظهر الازدراء والامتعاض ، أو على الأقل عدم التقدير لكثير من مميزات المجتمع ٠

هذان النوعان من سحب وضع الاهتمام ليسا بالطبع بالمختلفين أساسا من حيث الكيف ٠ ومع هذا فان الفروق بين جماعة مقبولة تقليديا وبين جماعة يكون سلوكها عادة كريها برمته، هى من الكبر بحيث يكون من المفيد معاملتهما كنوعين مختلفين ٠ ولسوف نناقش الأولى فى هذا الفصل ، أما الثانية فتناقش مع مناقشة الاستعمار ٠

أثر سحب وضع الاحترام فى البيت

لقد رأينا أن الفرد يرتضى شخصيته بالكامل ، بمعنى شعوره بكيانه وبوضعه فى المجتمع ، اذا كانت علاقته مرضية بالطبقات الأعلى من النبلاء وملاك الأرض فى المجتمع السلطوى ٠ انه يعتبر نفسه فى مرتبة أدنى منهم ، ولكن اذا عرف أنهم ينظرون الى عمله كعنصر ملائم وطيب فى النظام الاجتماعى، كانت حياته أقرب لأن تكون مرضية له ٠

وعندما لا تعزز الطبقة العليا مركز الفرد كعنصر مفيد ولكن تظهر على العكس عدم الاحترام لدوره الاجتماعى ، عندما تستخف ببعض جوانب دوره أو تمنعه من القيام ببعض الأشياء التى تكفل له الأمن والطمأنينة ، استبد به التوتر ٠ حيث لم تعد مهنته التقليدية تحقق له الاشباع الذى كانت تحققه من قبل ، لأنها لم تعد محل تقدير هؤلاء الذين يرى من الواجب الحصول على احترامهم ٠ فالمجموعات الذى تعلم أن يحترمها لم تعد تحترم قيمه لأنهم لو كانوا يحترمونها لما تصرفوا على نحو ينتهكها) ولم تعد تنظر الى دوره فى الحياة كدور ذى شأن ٠

ولكي يحل السكينة في نفسه يجب أن يشعر أن مركزه في البنيان الاجتماعي مركز ذو شأن ، وأن يتقبل أيضا تصرفات المجموعات الأعلى · ولكنه الآن لا يستطيع كلا الأمرين ·

انه يسائل نفسه عما اذا كانت المجموعات الأعلى تستحق ما قدم لها من احترام · انه سوف ينتقد تصرفاتها لأنها تنتهك قيمه · وسوف تأخذه الحيرة بالنسبة لما اذا كان أسلوبه القديم في الحياة لا يزال كما كان طيبا ، طالما أنه لم يعد يفي بغرض اكتساب الاحترام الاجتماعي · ولكن بناء على قيمه القديمة يعد أسلوب حياته طيبا ، وبناء على البعض الآخر من قيمه يرى المجموعات الاجتماعية الأخرى جديرة بالاحترام ·

ان الصراعات الداخلية تسبب له التوتر والضيق · ولا يلبث أن يسبب التوتر والضيق أن يسببا له الحنق والغضب · انه لا يستطيع أن يترك غضبه ينطلق بحرية على الأفراد الذى سحبوا الاحترام ، وذلك لأنهم جد أقوياء ، ولأنه درج على أن ينظر اليهم كرؤساء أعلى منه ، وقد تعلم في طفولته أنهم يختلفون عنه · ففي المجتمع الفلاحي ، ان لم يكن في أي مجتمع ، لايتاح للفرد أن ينفث عن توتره الا على أشياء محدودة ، من ضمنها أطفاله ، بغرض أن تكون طريقة تعبيره عن غضبه داخل حدود مقبولة · أنه يكون أكثر من ذى قبل توترا من لعبهم أو هذرهم ويصر على تجنبهم لكل ما يضايقه · والذى نرجحه هنا هو استمرار مثل هذا التصرف على مدى فترة طويلة نوعا ما في المجتمع التقليدى · وفي هذا المجتمع يكون الأب أيضا أكثر تسلطا على زوجته، وتكون الزوجة أكثر حذرا من نوباته عن ذى قبل ، كما تكون أكثر كبتا للأطفال ·

وفي رأيي أن تغيير بيئة المنزل مؤثر حاسم على سحب وضع الاحترام وقد يتوقع البعض أن الأطفال الذين يمرون بتجربة تغيير بيئة الطفولة قد يخرجون منها بشخصيات تختلف عن شخصيات أسلافهم · ولكن لنعالج أولا أثر حقيقة أن قيم الأب أخذت تتصارع بعضها مع البعض الآخر ·

انحسار القيم :

رأينا أن الطفل يستطيع أن يستخلص نتائج مما يلاحظه حوله · فهو يكون آراءه من سلوك أبيه بالنسبة لطبيعة العالم الذى يعيش فيه الابن والأب ومن تصرفات الأب بشأن عمله ، ومجرى حياته اليومية ، وبالنسبة للأشخاص الآخرين في مجتمعه ، يدرك الابن أنه لمن

الأهمية بمكان بالنسبة للأب ، أن يعتقد فى جودة مهنته ، ووضعه الطبقى ، وجودة تصرفات الفئات الاجتماعية الأعلى • كما يدرك أن توتر الأب يتسبب أنه لم يعد يستطيع الاعتقاد فى كل هذه الأفكار فى وقت واحد • وبالطبع يكون معنى المهنة ومعنى الوضع الطبقى عند الطفل محدودا ، وكذلك أهمية تصرفات الفئات الاجتماعية الأخرى ، ولكن يكون رد فعله العـــاطفى بالنسبة لها قويا •

ان الأب عاجز ، أنه يقيم الأشياء ولكنه لا يستطيع تغيير القيم • ولكن قيم الابن لم تتبلور بعد ، ومن أهم مكونات ادراكه رؤية الموقف يسبب ألما لأبيه • وهكذا • بينما يقدر الابن الوضع التقليدى لأبيه ، يتوقع أن ينجم عنه الألم • انه يقدر احترام الفئات الأعلى ، ولكنه يتوقع منهم أن ينكروا عليه هذا الاحترام ويسببوا له الألم • وحل هذا الصراع هو أن ينكر أهميـــة أيهما • وبقدر ما يزداد تقدير الابن للدور الاجتماعى التقليدى لأبيه ، بقدر ما يزداد تألمه • وكلما ازداد اهتماما برأى الفئة الأعلى ، كلما ازداد ألمه • ولكنه اذا استطاع أن ينكر أهمية هذه الأشياء وينكر أنه يتوقع الكثير من شعوره بالاشباع أو بالرضا فى الحياة ، لأمكنه بذلك أن يتجنب الألم • فهو اذا كان لا يتوقع الكثير ، لا يمكن أن يجرح شعوره اذا عجز عن تحقيق الكثير • وبهذا يكبت الطفل رأيه فى الحياة • ويظن أن سلامته فى ذلك •

والطفل اذ يخرج من بيته الى الجماعة الأكبر أبعد فأبعد ، يجد حقائق العالم الخارجى تؤكد صحة ما أدركه فى سلوك أبيه من قبل •• يجد أن السلوك الذى قد تعلمه لمواجهة مشاكل القيم المتصارعة يناسب أيضا الساحة الأكبر ، وأن أحسن حل هو أن لا يتوقع الكثير من الاشباع أو الرضا من مركزه فى المجتمع ، وأن لا يأمل بقوة فى القبول الاجتماعى •

ان القضية التى نعالجها ، وهى قضية فئة اجتماعية بأسرها وليست بقضية فرد واحد ، مثل هذه التجربة • ولسوف يجد كل شاب فى سلوك زملائه ما يقوى سلوكه هو ، وبهذا تظهر « حضارة شبابية » تختلف عن حضارة الجيل القديم ، وتؤكد التغيير فى الشخصية •

ولا يتوقعن أحد حدوث تغيير عنيف فى القيم خلال جيل واحد • ولكن يمكن توقع المزيد من التغيير ، أى التغيير أكثر فأكثر على مدى أجيال • ففى الجيل الأول لسحب وضع الاحترام ، يلمس الابن من أبيه اعتقادا واضحا فى جودة المركز الاجتماعى التقليدى ، ويدرك ألم أبيه وتوتره • أما ابن الابن

فيرى فى شخصية أبيه ، جنبا لجنب مع توقعه للألم ، شيئا ما لم يكن موجودا فى شخصية جده ، وان طريق السلامة انما هو فى كبت قيمه ٠ ويبدو هذا مقنعا له بالنموذج الذى يراه فى أبيه ، وتدفعه رغبته فى تجنب الألم الى السير فى هذا الطريق أبعد مما سار أبيه ٠ ثم يأتى ابنه فيسير الى ما هو أبعد ٠ وهكذا وعلى مدى عدة أجيال ، يحدث اذا استمر سحب وضع الاحترام، أن يصبح تلمس السلامة فى فقـــد الأمل ، فى تحقيق الرضـــا فى أى دور هو الأكثر جذبا ويزداد الشعور باللامبالاة مـــع ما يصحبها من اتجـــاه انهزامى ٠

تعقيبات أخرى :

فى تحليلى لآثار سحب وضع الاحترام وقفت عند حد مناقشة أبناء كل جيل ٠ وجدير بالذكر أن التحولات الجديدة للأب تزيد من الحاجة الى خدمة ومساعدة الأم ، أى أنها تكثف سلوكها التقليدى ٠ وبهـذا تكون المرأة أقل تعرضا للانهزامية من الرجل ٠

ومناقشتنا للطريقة التى تحدث بها الانهزامية تساعدنا على فهم طبيعة الانهزامية ٠ ان الحاجات والقيم تظل باقية حتى فى الشخصية الانهزامية تماما ٠ ولكنها تتصارع فيما بينها ، والحاجة الى كبت الصراع فى داخـــل النفس تتطلب استمرار بذل الكثير من الطاقة ٠ ولا يبقى للعمل الا القليل من الطاقة ٠ ان الشخص الانهزامى لا يكون غير مبـــال لمجرد انه لا يرى من المجدى أو من المحقق للسلامة أن يبذل جهدا فى سبيل أى هدف فحسب ، بل أيضا لأنه لم يعد لديه الا القليل من الجهد الفائض ليبذله ٠

ان الشخص الانهزامى لا يخلو من بغضاء و غضب تجاه الظروف أو الفئات التى تسببت فى وضعه هذا ٠ ان غضبه شديد ٠ ولكن لأنه يخشى عنفه ، يعمد الى انكار وجوده ويكبته فى داخله ٠ وفى بعض الحالات يتفجر فجأة وبعنف مذهل ٠ ومن أمثلة ذلك أن تنتاب الفرد ثورة أو جنون الغضب ٠ ومثل آخر هو الثورة ضد الاستعمار ٠ وعندما يدرك الناس آن فى استطاعتهم أن يثوروا ويقرروا مصـــيرهم بأيديهم ويطيحوا بالسادة الـــذين انتهكوا حضارتهم ، يكون رد فعلهم من العنف بحيث يذهل هؤلاء الذين طالما ظنوا أنهم مخلوقات من نوع آخر ٠

الفصل الثامن

بروز الابتكار التكنولوجى الخلاق

ليست الانهزامية بنهاية الطريق • ولما كانت الانهزامية تتغلغل فى الأجيال المتعاقبة ، فانها تخلق من ظروف حياة البيت وبيئة الجماعة ما يشجع تنمية الشخصية الابتكارية الخلاقة - بظهور قوم يدخلون أفكارا جديدة • ويحدث التحول من الانهزامية المتزايدة الى الابتكار الخلاق نتيجة تغيرات تقدمية فى شخصية الآباء والأمهات فى الأجيال التالية •

ان الفرد الذى ينشأ فى ظل سحب وضع الاحترام ، ولم يشعر أن البنيان التقليدى للسلطة ، أو للفئة الاجتماعية شىء طيب ، يميل لأن يكون متوترا ومستفزا • وعندما يصبح بالغا وأبا ينفث فى البيت عن غضبه الناجم عن شعوره بالضيق برفض المجتمع أن يمنحه الاعتبار أو الاحترام الذى يتوقعه • وقد يصبح طاغيا أو حريصا على اثبات ذاته ، ولا يطيق أن يعارض• فاذا كان العالم لا يعطيه احتراما كافيا ، فهو على الأقل يستطيع الهيمنة على زوجته وأطفاله • وهو بضيقه وتوتره وافتقاره الى اثبات الذات ، ينقل الى الجيل التالى الشك المتزايد فى امكانية تحقيق السعادة •

ان الأب فى جيل أو جيلين لاحقين يكون بذلك قابلا للتغيير : أحيانا يثبت هيمنته ، أحيانا يتعاطف وأحيانا يستدر الشفقة • وفى أحيان أخرى قد ينسحب بدون شعور بالمسئولية من النضال ، ويتغيب عن المنزل ، ويشرب الخمر مع زملائه المقربين • و ربما يثبت رجولته ويتنفس عن توتره بالسيطرة على امرأة أخرى غير وزجته • وقد يكون مثل هؤلاء الآباء ضعفاء وانهزاميين بالكامل •

ان الطفل الذى يلاحظ قلق وتوترات أبيه قد يحمل فى بلوغه شعورا ذاتيا بعدم السعادة بالنسبة لدوره فى الحياة ، وعندما يصبح أبا قد ينقل الى الابن شعورا بأنه يأسف لوضع ابنه كما يأسف لوضعه هو • وهو اذ يشفق على

نفسه ، قد يعامل ابنه معاملة فظة ، أو يوجهه بغير حكمة ، أو يطالب ابنه بمستويات أداء فوق طاقته ، لكى يتخلص هو من الشعور بالفشل •

وقد تنشأ بذلك نماذج منوعة محتملة لسلوك الآباء • وسوف نناقش أربعة منها هنا :

١ ـ الأب الضعيف ، الذى توقف عن كل محاولة ، ولم يعد يمارس الا القليل من القيادة أو الاشراف فى البيت •

٢ ـ الأب الذى لا يزال يهيمن بالطريقة التقليدية ، ولكنه غير متأكد من مركزه فى الجماعة ، ويحمل معه شعورا بالفشل ، يحاول التعويض عنه بالاصرار على أن يحقق أبناؤه امتيازا عظيما • ومن ثم يستحثهم ويضع ضغطا كبيرا عليهم منذ الطفولة المبكرة ، ولكنه قد يشعرهم أيضا بأنه يحبهم ويقدرهم • لقد كان والد الرئيس الأمريكى ويدرو ويلسون ١٩١٢ ـ ١٩١٦ ، ممن عاشوا الحياة التقليدية فى « الجنوب القديم » للولايات المتحدة • لقد كان رجلا من ذلك النوع الذى وصفته • ولعل الابن بالضغط الشديد الذى مارسه أبوه عليه طوال حياته قد أنجز ما ارتجاه له •

٤ ـ الأب الذى يعوض عن شعوره بأنه غير محترم فى مجتمعه بأن يحكم بيته كطاغية • واذا استمر طغيانه تحطمت معنوية أبنائه • ولكنه اذا كان قابلا للتغيير ، أو يبقى فى بيته لبعض الوقت فقط ، فقد أولاده مهاراتهم بما يكفى تجنبهم له ، وينشأون وقد تشبعوا بالشعور بظلم السلطة غير المعقولة• مثل هؤلاء الأبناء يتحولون عادة الى متآمرين ضد الحكومات التى يشعرون أنها دكتاتورية • من الواضح أن والد الزعيم الكوبى فيدل كاسترو كان رجلا من هذا النوع •

وفى جميع هذه الحالات الأربعة تكون الأم أكثر دفئا وحنوا ورعاية من الأب • وذلك لأن أثر سحب وضع الاحترام يكون أخف شدة على النساء منه على الرجال ، حيث أن دور المرأة يكون فى أغلبه داخل البيت ، وأقل بكثير من الرجل فى المجتمع •

ولسوف نتناول بالبحث كلا من هذه الحالات الأربع باختصار •

الابتكار الخلاق كنتيجة للانهزامية :

اذا كان الأب متقلبا و ضعيفا ، تمسك الأم بزمام ابنها بقوة وتربطه بها أكثر كبديل لزوجها ، وربما تتسلط عليه • ولكنها اذا كانت تشعر بالمهانة بالنسبة لضعف زوجها وأبيها ، قد تسر عندما يبنى ابنها أية مبادءة • وسرورها هذا يكافئه ، وقد يدفعه الى تجربة التحليق بجناحيه تدريجيا • ومن شأن هذا النوع من الرعاية أن يشجع على تنمية المبادءة والاعتماد على النفس مبكرا • وذلك لتوافر الشعور بالأمان وبالتقدير ، مما يعطى الطفل الجرأة على استكشاف العالم ويضغط عليه لينجز ويكافأ على انجازه •

واذا كان الأب يتوتر أحيانا ويثبت ذاته ، فان الطفل قد يتلهف باستمرار والى حد ما بالنسبة لنتائج استخدامه لتقديره الخاص واثباته لذاته • ولكنه قد يشعر أيضا أن أعظم أمل فى كسب الاشباع الذى يسعى الى تحقيقه انما هو فى الانجاز وليس فى تجنب الاختبار و التجربة • ويدفعه تلهفه الى أن يختبر باستمرار والى الأبد مدى قدرته على النجاح •

وبالرغم من الأب الانهزامى تماما قد لا يتدخل الا بقدر يسير فى تربية الأم لابنها ، فهو كذلك يفشل فى تهيئة أحد العناصر الضرورية ، لتكوين الشخصية المبتكرة ، وهو نموذج جذاب ، لسلوك مقبول الوفرة والنجاح على الأقل • وفى أحيان كثيرة قد يوجد هذا النموذج فى شخصية الأم التى تتقمص صفات الرجولة ، واذا كان أبوها ضعيفا قد تصبح قوية ومنجزة ، للتعويض عنه • وقد تأتى الصدفة الحسنة بأحد الأقارب الذكور كنموذج • وفى حالات أخرى قد لا يوجد النموذج بلحمه ودمه ، ولكن قد تتصوره الأم فى ذكريات منجزات وشخصيات الأب أو الجد أو العم فى الأوقات السعيدة •

وفى شخصيات بعض رجال الأعمال الأمريكيين الناجحين نجد ما يدل على أن مثل ظروف البيت المذكورة من شأنها أن تشجع على ظهور الشخصية المبتكرة • فلقد ذكر وارنر وابيجلين Warner & Abegglen فى كتابهما كبارقادة الأعمال فى أمريكا Big Business leaders in America ذكريات طفولة عدد من الرجال الذين درسوا حالاتهم وقد حققوا النجاح فى ميدان الأعمال رغم بداياتهم المتواضعة •

لقد ذكر أحدهم أن والده كان يحب الخمر ، ولا يقضى فى بيته الا القليل من الوقت • وهو لا يكاد يذكر أن والده هذا فعل شيئا من أجل العائلة • لقد كان على أمه أن تعمل • لقد اشتغلت بغسل وكى الملابس فى بيتها • وظل

الأولاد يأتون بالملابس ويعيدونها الى أن تزوجوا • لقد كانت أمه دائما مجدة فى العمل ، ومعتدلة المزاج • لقد أقامت بيتا طيبا بما هو فى متنـــاولها بالفعل • لقد كانت جادة دائما ، ولكنها كانت أما طيبة • لقد كان الابن يخاف من أبيه ، وكذلك كانت أمه • ولم ير أباه قط يسرح شعره ، ويربط رباط حذائه ، فقد كانت أمه هى التى تفعل ذلك • وبالطبع لم يكن الأولاد ليروا أباهم كثيرا لأنه لم يكن ليتواجد حولهم(١) •

وقال آخر ما معناه : لقد كان أبى غير مكترث نوعا ما • لقد كانت عنده روح مرح عجيبة ، على الرغم من أنه كان دقيقا وحاسما • ولقد طلق أمى وأنا فى سن السادسة عشرة • ولم يحدث أن زاملت والدى • لقد كان صارما وعنيدا • وما كنت لأستطيع أن أتفق معه • وعندما كان فى البيت لم أر منه الكثير • كنت أتجنبه معظم الوقت • وكانت أمى امرأة قوية ، كاملة الحيوية ، ولكن دائما غير راضية • وكانت طاقتها وفيرة • وكنت أذهب اليها دائمـــا ألتمس النصيحة ، وكانت تريد لى النجاح • كانت دائما توافق على أن أفعل كل ما قد يساعدنى على النجاح • كنت عموما آخذ نصيحة أمى(٢) •

ومن بعض الملخصات القليلة لملاحظات المؤلفين يتبين أن النتائج التى استخلصاها تتفق تماما مع هاتين الحالتين •

يأتى تركيز الطاقة على التحرك من الأمهات عموما • ويبدو الآباء فى معظم الحالات بعيدين عن الأبناء ، وليسوا بمساندين (مقويين) اطلاقا • ان الأب شخص غير مرغوب فيه ، وفى نفس الوقت يوجد ذلك الشعور بالفقدان والحرمان •

وطبيعة الأم هامة بالتأكيد ، لأنه من الواضح أن هؤلاء الرجال تعلموا النضال من خلالها ، تعلموا أن يكدوا اليوم فى العمل أملا فى أن ينالوا الجزاء الطيب عاجلا فى المستقبل • انهم يعتقدون بعمق فى ذلك • كما أن هؤلاء الرجال قد مروا بتجارب ايجابية كيافعين مع بعض الرجال كان من شأنها أن

---

(١) و• لويد وارنر وجيمس ابيجلين ، « كبار رجال الأعمال فى أمريكا » ص ٦٤
W Lloyd Warner and James C. Abegglen,
"Big Business Leaders in America", New York, Harper & Bros, 1955, p. 64.

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٧

تقوى التدريب الذى هيأته الأم والنظرة الى الحياة التى غرستها ٠

وثمة عنصر آخر له أهميته الرئيسية ، وهو تجربة بعض الآباء الآخرين أو من هم فى حكم الآباء ، الذين شجعوهم وساعدوهم ، وبهذا خففوا من عدائهم للذكور عن طريق اشباع بعض المهام التى يشعرون أن آباءهم أنفسهم قد أهملوها ٠ وعادة ما يكون هؤلاء من بين المدرسين(٣) ٠

ومن المرجح ، للأسباب الملخصة فى بداية هـذا الفصل ، أن ظروفا من هذا النوع العام تظهر عندما يحدث سحب وضع الاحترام تقويضا فى المجتمع التقليدى ولا تظهر هذه الظروف بالضرورة فى كل عائلة تتعرض لسحب وضع الاحترام على مدى عدد من الأجيال ٠ فقد لا يكون من الحكمة أن نستنتج أن الأفراد المبتكرين يظهرون فى أية عائلة بمفردها نتناولها بالصدفة ٠ ولكن فى عدد أكبر من العائلات يمكن استنتاج أن ظروفا مساعدة تظهر فى الكثير منها ٠ أن سحب وضع الاحترام يخلق من القوى ما يحرك شخصيات مجموعة الى أسفل فى منحدر الانهزامية بوجه عام ٠ ومع هذا فهذا التحرك فى حد ذاته يولد قوى معارضة ، تزداد قوة مع تدفق مجراها ، وقد تعوقه أو تعرقله أو تحوله ، الى أن يظهر تيار من الشخصيات الابتكارية يكفى لتحويل المجرى الاجتماعى الى اتجاه جديد ٠

المصلح : نموذجان بديلان

يلتقى فى عنصر واحد مشترك تأثير الأب الشديد والمطالب ، ولكنه محب ، مع تأثير الأب الفظ والمطالب الذى يعطى انطباعا قليلا من الحب : فقد يولد كل منهما فى الابن نموذج شخصيته بما يجعل منه مصلحا ٠ ولكن بغض النظر عن همة الاصلاح يختلف أبناء الرجلين ، اذ تختلف طبيعة جهودهما الاصلاحية ٠ ولهذا سنتناول كلا من الحالتين على حدة ٠

الأب الشديد ، المطالب ، المحب :

ان حاجة الأب لأن يرى الابن يحقق ما عجز هو عن تحقيقه ، قد تجبره على أن يطالب الطفل بانجاز فوق طاقته ، قبل أن يصبح قادرا عليه جسميا وعقليا ٠ وهو اذا فعل هذا ، لخلق فى نفس الطفل شعورا بأن محاولات

---

(٣) هذه الفقرات الثلاثة المقتبسة أخذت من نفس الكتاب ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩

الانجاز تأتى بالفشل ، ومن ثم يخاف أن يحاول . ولكنه فى حاجة الى تجنب هذا التأثير . وحتى لو كان الأب مطالبا ، فقد يكون عنده المفهوم التقليدى بأن الوقت المناسب للتدريب يبدأ فى سن الخامسة أو السادسة ، والى أن يحل هذا السن يشعر الطفل بضغط أقل .

وعندما يثبت الأب ذاته ومطالبه للانجاز ، يختلف الأثر تماما عنه فى التسلط . فالأب السلطوى يصر أساسا على طاعة الابن . وهو بهذا لا يتوقع من ابنه الا القليل من الانجاز وتحمل المسئولية . ويضع الأب المحب الذى نناقشه معايير صعبة للانجاز . وهو بهذا يعرب عن اعتقاد عميق بأن الابن يستطيع أن ينجز ، وبأنه مسئول عن نجاحه فى الحيـــاة . وحتى اذا شعر الابن بالغضب مما يطالبه به أبوه تعسفا وبدون معقولية ، فهو يكسب شعورا بالدفء ، دفء الحنان ، واذا لم يشعر بذلك فهو يشعر على الأقل أنه موضع تقدير . وما كان لينتظر الكثير الا من فرد يحظى بالتقدير .

ان متطلبات الأب صعبة الاستجابة ، ومن ثم يشعر الابن بتوتر مستمر. كما يتملكه الغضب من تعسف أبيه . حقيقة ان عظيم تقدير الأب له يوحى اليه بأن الأب لا يطالبه بما هو مستحيل ، ومن ثم فهو يكون المخطىء ، وليس أبيه ، اذا لم ينجز بقدر ما ينتظر منه . ومع هذا فقد لا يكون الطفل مخطئا أيضا ، لأن أباه طالبه بالكثير ، وكيف طالبه به اذا كان غير قادر عـــلى الانجاز ؟ ان توتر الطفل يدفعه دائما الى البحث عن تفسير . والتفسير الأكثر اقناعا هو انه يوجد ثمة خطأ فى العالم من حوله يحول بينه وبين النجاح . واذا رسخ هـــذا الاعتقاد فى نفسه ، فقد يقضى حياته فى محـــاولة ازالة توتره باصلاح خلل ، ثم خلل آخر ، ثم خلل آخر فى العالم من حوله . انه يحاول أن يفعل ذلك بموهبـــة اكتشفها فى نفسه وهو طفـل ووجد أنه يستطيع استخدامها بنجاح . واذا حدث يومئذ أن كانت هناك مشاكل فى دولته ، وكانت دولته فى حاجة الى مثل موهبته ، فقد يصبح مصلحا عظيما .

ان مجموعة الظروف التى تنتج مثل هذا الرجل تظهر فى أى مجتمع ، وليس فى المجتمع التقليدى وحده . وهناك مثل رائع فى الولايات المتحدة : وودرو ويلسون ، الذى سمى كطفل مولود « توماس وودرو ويلسون » . وفى الاشارة باختصار الى بعض ظروف حياته ما يصور جانبا من الارتباطات بين طفولة الشخص ومستقبله كبالغ .

لقد كان أبو ويلسون قسيسا فى كنيسة أصيلة وأستاذا للخطابة فى

كلية للدين . وكان يتحدث بعبارات منمقة ولكن بدون أن يتكلم كثيرا . وكان يلاعب طفله ، ويناقش معه أمورالبالغين ، وبطرق أخرى يعرب له عن حبه وتقديره العظيم . ولكنه كان يطالب ابنه أيضا بانجازات قاسية وغير معقولة، وكثيرا ما كان يطالبه باعادة كتابة مواضيع الانشاء عدة مرات . وكان يدقق بقسوة فى تفاصيل أى فشل أو خطأ .

ولا يوجد ما يدل على شعور توماس بأى ضغينة .. ولو أنه ربما يكون قد تحدى والده وهو فى سن الخامسة والعشرين عندما تخلى عن الاسم الذى اختاره له ليستخدم اسمه الثانى ، اسم عائلة أمه « وودرو » .

ويبدو أن متطلبات الأب الفادحة وتوقعاته العظيمة ، وشعور ويلسون بأن عليه أن يكون قادرا على تحقيقها ، قد عرضه لجهد عصبى كبير . وحتى بلوغه الأربعين ، لم يكن ليتخذ قرارا هاما الا بعد الحصول مقدما على موافقة أبيه . وخلال شبابه ، وفى مرحلة الرجولة أيضا أصيب بفترات متكررة من الهبوط النفسى .. وكل بضعة سنوات كان يتعرض لفترات ارهاق أعجزته عن العمل بعض الوقت ، وربما سببت له شيئا من الانهيار العصبى .

وما كان ليدرى كيف يحل مشكلة حياته ، وفشله فى بلوغ الكمال فى الانجاز الذى يتوقعه له والده ، والذى أقنعه بحبه أنه ليس بغير المعقول . وفى اعتقادى أنه يمكن افتراض أنه قد صمم مبكرا فى حياته (ولاشعوريا) على أنه يستطيع بلوغ الهدف المرتجى ويتخفف من التوتر ، متى اجتاز صعوبة الاعتراف بالعالم (العالم الصغير لطفولته والعالم الأكبر لرجولته) . وعلى أية حال ، فقد أمضى حياته كيافع وكرجل فى اعادة تنظيم الأشياء ، وفى انجاز اعادة التنظيم بلباقة . لقد أصبح رئيسا لفريق الباسبول وهو شاب فى المدرسة (على الرغم من أنه لم يكن رياضيا) وأقنعه باتباع دستور (أى لائحة) قام هو بصياغته . وفى الكلية خرج من جمعية مناظرات ليكون جمعية جديدة . وفى مدرسة القانون أصبح رئيسا لجمعية المناظرات وأقنعها بوضع دستور جديد . وأقنع بالمثل جمعية أدبية بأن تفعل مثل ذلك وهو طالب بالسنة النهائية فى علم السياسة . وعندما أصبح مدرسا فى الكلية أعاد تنظيم جمعية المناظرات بها بنفس الطريقة .

وأخيرا كرئيس للولايات المتحدة اقترح تكوين عصبة أمم ودستور للعالم . وهو عندما فعل ذلك لم يكن ليتصدى لمهاجمة مشكلة يواجهها العالم فحسب . ولكنه كان يشبع أيضا رغبة فى نفسه لاعادة تنظيم العالم من حوله ، وهى رغبة عبرت عن نفسها باستمرار طوال حياته .

ومن المحتمل أن يكون كل رجل يحقق شيئا وهو بالغ ، يتبع مثل وودرو ويلسون نمطا وجده مرضيا فى شبابه ·

الطاغية المطالب :

انه الأب الذى يشعر بعقدة الذنب لافتقاره الى النجاح ويطالب ابنه بتحقيق ما عجز عنه ، يكون أكثر ضغينة وعدوانية وغلظة · ولا يصدر عنه الا القليل مما ينم عن حبه وتقديره لابنه ، ومن ثم ينتج أثرا يختلف عما يتجنبه الأب الشديد الحب · ان الابن فى نظر الأب الطاغية المطالب ليس الا مجرد أداة لاشباع رغبات والده ، وسوف يدرك الابن حقيقة ذلك · ومن ثم يكون شعوره بالذنب أقل بالنسبة لعجزه أو لامتناعه عن الاستجابة لمطالب أبيه · وقد ينشأ على الشعور بالحاجة الى تحدى السلطة التعسفية والأنانية· والأغلب أن يتخذ القرار المصيرى وهو يافع أو فى أوائل البلوغ ، عندما يصبح غير قادر على أن يرجىء أكثر التساؤل عما ستكون عليه شخصيته فى عالم البلوغ الذى يدخله · انه غالبا ما يكون قد كون رد فعل مضاد للسلطة التعسفية اينما كانت ، ويشعر بحاجة شخصيته الى تحديها حيثما يجدها · أن الطلاب الثائرين عام ١٩٦٨ كانوا كذلك ، ومن الممكن أن تكون حاجتهم الشخصية الى تحدى السلطة لها جذورها النابعة من الطفولة ، لأنهم أبناء جاءوا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة فى وقت كان الكثير من الآباء فيه ناقمين ومتوترين وجد مشغولين بمشاكلهم الخاصة ·

واذا كان شعور فرد كهذا بوجود قوة خطيرة لا يحدث أية استجابة وجدانية لدى زملائه ـ اذا كانوا لا يشاركونه فى شعوره بالخطر ـ فسوف ينظر اليه كشخص غريب ويكبت أو يحتمل بالكاد · ولكن اذا وجدت فى مجتمعه قوة تعسفية يراها أقرانه مهددة لهم ، ومن ثم يكون ما يقوله ويفعله مشبعا لاحتياجاتهم الداخلية كذلك ، واذا كانت قدرته وشدة حاجته كبيرة ، فقد يصبح قائدا فى الثورة الاجتماعية ، ويصير شخصية تاريخية مثل نموذج المصلح الأقل عنفا الذى سبق عرضه ·

مثل هذا الشخص ، الذى يرى فى كل قوة خارج دائرة نفسه خطرا يهدده ، لا يشعر بالأمان الا اذا مارس سلطة أعلى على الآخرين · وهو اذا أطاح بالطغيان ، يحتمل أن يصبح هو نفسه طاغية !

واذا ابتليت دولة بحاكم ظالم فظ ، وكلما ازداد هذا الحاكم ظلما وكبتا ، وكلما اشتدت عنفا محاولات ومؤامرات الاطاحة به ، كلما كان نجاح

الثورة أقل احتمالا ، الى أن يظهر شخص يبغض السلطة أشد البغضاء ليتولى قيادتها ••• شخص مر بمشكلة السلطة التعسفية بأسوء صـــورها فى طفولته ، ولا يشعر هو نفسه بالأمان الا اذا مارس السلطة بلا منازع • وهذا هو السبب فى أن يتحول رجل ثورى ناضل من أجل الديمقراطية والحرية الى القيام بدور الطاغية اذا ما وصل الى السلطة •• هــذا هو سبب تسلط الروس البلشفيك بعد أن أطاحوا بتسلط القياصرة ، وفى حكم فيدل كاسترو الدكتاتورى لكوبا بعد اطاحته بحكم الطاغية باتيستا •

ولئن كان ظهور شخصية المصلح او الثائر فى أى مجتمع كان ، وتواجد الظروف الاجتماعية الداعية للاصلاح أو الثورة فى هذا المجتمع ، فان احتمال ظهور هذا النوع من الشخصية يبدو الأقرب بوجه خاص فى ظل سحب وضع الاحترام فى المجتمع التقليدى • وذلك لأن تواجد آب سلطوى الشخصية ويتصرف على نحو لا يستطيع معه الابن الا أن يرى الحل الممكن لمشكلته فى تحدى السلطة ، يبدو أقرب احتمالا فى مثل هذه الظروف • ومما يساعد على ذلك أيضا ظروف العائلة والجماعة والبيئة الاجتماعية الأوسع فى مرحلة القلقلة الاجتماعية ، حيث أنها تعزز امكانية هذا الحل فى ذهن الابن طالما أنه يرى صرح السلطة الاجتماعية من حوله محلا للتساؤل والاعتراض •

ان المصلح أو الثائر يشعر بالحاجة الى تغيير المؤسسات المحيطة به • بينما لا يشعر بذلك المبتكر الخلاق الذى كان أبوه يعامله معاملة أقل غلظة وأقل حماقة • وهذا هو السبب فى ، أو أحد أسباب ، نشأته كمبتكر خلاق وليس كمصلح أو ثائر •

بروز القيم المساعدة على النمو الاقتصادى :

اذا كان من شأن التغيير الاجتماعى الذى حدث آن يكون جسر انتقال الى التقدم الاقتصادى ، لكان من الضرورى أن تظهر فى شخصية الناس القيم التى تدفع بهم لأن يدركوا أهمية الابتكار الاقتصادى والتكنولوجى • واحتمال ظهور هذه القيم يكون أقل بين المصلحين منه بين المبتكرين لأن هؤلاء انما يعنون بالمسائل الأخلاقية والسلطة ولا يعنون بالكفاية •

ونقول ان الابن فى المجرى العادى للآحداث يلتقط شخصية أبيه • ولكن هذا القول يوجد فى حد ذاته مشكلة • ان الطفل يحاول أن يجد لنفسه دورا مرضيا فى الحياة • والأقرب احتمالا أن يجتذبه دور أبيه ، اذا كان أبوه قد وجد السعادة فى أدائه ، واذا كان الابن محبوبا وسعيدا • ولكن فى ظروف

سحب الوضع المنتظر ، يكون الأب متوترا على نحو ما وغير سعيد • أنه يظل محبا لمهنته ، ولكن يزعجه عدم احترام الصفوة لها وله • ويتحتم على الابن أن يقرر فى مواجهة هذا الصراع ما هو الأفضل فى الحياة كحل للمشكلة •

حتى الابن الذى يعتمد على نفسه كل الاعتماد يقدر أيضا قيم أبيه الى حد ما • ان لوالده من الأهمية فى حياته ما يجعل ذلك شيئا لا مفر منه • ولكن لنفرض أن الولد كون عن تصرفات أبيه ثلاثة انطباعات : (١) أن دور أبيه فى الحياة دور جيد (مثلا كفلاح ، تاجر ، مالك صغير ، رجل دين الخ •)• (٢) أن هذا الدور رغم ذلك لا ينظر اليه باحترام من جماعة ذات أهمية فى المجتمع • (٣) أنه مع هذا الافتقار الى الاحترام غير مستريح والى حد ما غير متأكد من قيمة دوره • فماذا عسى أن تكون النتائج التى يستخلصها الابن ؟

اذا كان الابن معتمدا على نفسه قد يحتفظ فى ذهنه بلا شعور خلال وقت الطفولة وعندما يصبح يافعا السؤال الآتى : كيف يمكننى تجنب هذه المشكلة ؟ كيف أستطيع أن أثبت جدارتى ؟ انه قد يلاحظ وهو يافع بعض الأدوار الأخرى الممكنة فى الحياة ، مثل دور الحرفى أو الصانع الصغير أو القس أو رجل التعليم • فاذا لاحظ دورا (أ) يبدو من الممكن حصوله على اقرار جماعته أو (ب) دورا يتطلب منه حل مشكلة على نحو يقنعه بمقدرته الخاصة أو (جـ) دورا يعد بوضع اجتماعى أضمن ، كأن يعطى الفرصة لزيادة الدخل أو (د) دورا يصادفه ويتوثق ارتباطه به وهو يافع ، بحيث يمكن أن يطبقه ، سيما اذا كان هذا الدور (هـ) لا تقره فئـــة الصفوة التى تسببت لوالده فى الألم •

ومن الواضح أن الكثيرين من الأولاد المتعبين لن يجدوا من الأدوار ، ما يفى بكل هذه المعايير ، ولكن بعض الأولاد المعتمدين عـــلى أنفسهم سوف يجدونها • وعادة يكفل الابتكار التكنولوجى فى العالم الحديث كل هذه الأنواع الخمسة من الاشباع • وهذا فى اعتقادى هو أهم أسباب نجاح بعض الأفراد المتلهفين فى فئات اجتماعية غير عادية فى أن يصبحوا مبتكرين اقتصاديين فى العالم الحديث •

ففى اليابان ، بالنسبة لمختلف الفئات غير السعيدة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • تحققت هذه المتطلبات بفضل المهارات الصناعية الحديثة التى اتخذت منها دول العالم الغربى مصادر قوتها العسكرية • لقد كفلت هذه المهارات أو المهن أوضاعا أعظم من وضع التوكوجاوا ، وهم الحكام الذين

منعوا الفرسان اليابانيين (السوماری) من الاستمرار فی الحروب التی کانت مصدر عزتهم • كما كفلت أيضا مصدرا جديدا للقوة ، وتحدت التوكوجاوا • وفی كولومبيا ، حققت المهارة التكنولوجية هذا الغرض ، مثلما حققته فئات المهارة فی الدول الأجنبية • لقد كانت امتدادا للمهارات اليدوية لجماعة « الانتيوكوينوس » التی كفلت وضعا اقتصاديا أفضل من وضع الكولومبيين الآخرين • فضلا عن تحدی قيمهم • ومع هذا فمن الواضح أن المجموعات الثائرة فی الوقت الحاضر ضد عدم احترام الصفوة لها ولأغراضها فی المجتمعات التقليدية ، تتحول الى أساليب الحياة التی وجد فيها الأجانب (سواء من الغرب أو الشرق) هيبتهم •

« أكل كعكة الآخر وأخذها » : أو أفضل ما فی العالمين :

ان المبتكرين متی أثبتوا نجاحهم فی المهارة الاقتصادية ، وما لم يكن النظام الاجتماعی القديم • قد تغير الى حد كبير ، يتحولون الى اكتساب ملامح أو رموز وضع جديد تهيؤهم له وفرتهم الاقتصادية • وذلك لأنهم لم يلفظوا تماما القيم العامة للوضع الاجتماعی فی مجتمعهم • لقد تركوا مؤقتا القيم القديمة البعيدة عن متناولهم • ان المبتكرين الاقتصاديين فی كولومبيا لا يحاولون قط اخفاء رغبتهم فی امتلاك الأرض أی رغبتهم فی أن يضعوا قدمهم فيها ، متی جعل التقدم الاقتصادی فی الصناعة ذلك ممكنا • وفی انجلترا شعر قادة الأعمال فی الثورة الصناعية خلال القرن الثامن عشر، ومن خلفهم أن امتلاك الأرض والحصول علی الألقاب الشرفية ، يعطيهم وضع النبلاء مثل الارستقراطية القديمة والطبقات العليا •

وهكذا وبهذه الطرق قد تنبثق الشخصيات المبتكرة أو المخلصة من الانهزامية • ففی الظروف الحضارية التی يری فيها الأفراد المبتكرون فی المهارة التكنولوجية السبيل الى اشباع احتياجاتهم ، تتجه قيم الجيل الجديد هذه الوجهة • وبهذا تظهر الابتكارات أو الاختراعات فی الانتاج ، ويقوم الأفراد المبتكرون باصلاحات تدخل علی المؤسسات فی اتجاهات ملائمة وييسر النمو الاقتصادی بمعدل أسرع •

الفصل التاسع

ملاحظات أخرى على الابتكارات التكنولوجية

لقد ركزت فى مناقشتنا السابقة على أن التغيير فى الشخصية هو أهم أسباب التغيير الاجتماعى • ومتى حدث تغيير الشخصية وظهر أفراد تكون المهام التى اختاروها ووجدوا من الممكن تأديتها ، متأثرة بقوة خارجية ، أى بظروف لا هيمنة لهم عليها • ولن يناقش هذا الكتاب تأثير مثل هذه العوامل بالتفصيل ، ولكن يقتصر على ما يناسب من التعقيبات المختصرة •

حالة المعرفة :

يتوقف ما اذا كانت التغيرات فى الشخصية فى المجتمع تؤدى أو لا تؤدى الى التقدم الاقتصادى على حالة المعرفة وقتئذ • فالمعرفة التى تتواجـــد فى متناول الطفل قد يكون لها أثرها أيضا على نظرته الى الحياة وفهمه لها ، ومن ثم قد تؤثر فى تكوين شخصيته •

ولقد كان لحالة المعرفة العلمية والفنية أثرها البالغ الأهمية فى التقدم الاقتصادى فى الفترات الماضية • حيث كان وجود أو عدم وجود هذه المعرفة هو الذى يقرر ما اذا كان النمو يحدث • واليوم وقد أصبح ميسرا لأى مجتمع أن يحصل على مجرى من المعرفة العلمية والفنية يأخذه عن مجتمعات أخرى اذا رغب فى ذلك ، فانه يمكن اعتبار الاختلافات فى مدى توافر المعرفة ليست بسبب الاختلافات فى الانجاز الاقتصادى •

الأسواق وتهيئة رأس المال :

ان حالة السوق ومقدار المدخرات المتوافرة كرأسمال للاستثمار عاملان اقتصاديان هامان لهما تأثيرهما على النمو •

فقد يكون السوق الصغيرة أو غير النامية حاجزا للتقدم التكنولوجى • أما السوق المتسعة ، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة فتتيح عددا متزايدا من

الفرص لأنها لا تتطلب قدرا كبيرا من الابتكار والخلق من أجل النجاح وهى بهذا بيئة صالحة لأن يحدث تغيير الشخصية فيها تقدما تكنولوجيا متواصلا · ان للسوق المتسعة أيضا أهميتها من حيث أنها تكفل كلما كبرت أرباحا أكبر ، ومن ثم اذا تقدم الابتكار ، تكفل المكاسب المهيئة لرأس المال اللازم للتقدم ·

ان حجم المدخرات الذى يكونه المستهلكون والمشروعات والحكومة يؤثر أيضا فى امكانيات النمو الاقتصادى · وتتطلب التحسينات التكنولوجية عادة استخدام تجهيزات اضافية للانتاج · وكلما ازداد مقدار المدخرات المتاحة التى يجدها الرجال الذين يهمهم الحصول على هذه التجهيزات واستخدامها في متناولهم ، كلما ازدادت امكانيات التقـدم التكتنولوجى · قد تستطيع الدولة أن تزيد مقدار المدخرات المتاحة للاستثمار بالحصول على رأس المال من مصدر خارجى ، ولكن الجانب الأكبر يجب أن يأتى من داخل الدولة · وكثير من المبتكرين الناجحين يبدأون بداية متواضعة ثم يتوسعون عن طـريق استثمار أرباحهم · ومع هذا ففى كل دولة أخذت بسبيل التصنيع كان يوجد بها من قبل طبقة من كبار التجار الذين قدروا قدرا محسوسا من رأس المال المتاح للاستثمار · ولم يكن كبار التجار هؤلاء فى بعض الدول هم أنفسهم المبتكرون الصناعيون ، ولكنهم أمدوا هؤلاء المبتكرين برأس المال ·

التغير فى الظروف الاقتصادية :

ولو أن حجم السوق وحجم المدخرات المتاحة يؤثران على معدل النمو ، اذا وجد المبتكرون الخلاقون للافادة منهما ، فان التغير فى العوامل الاقتصادية لا يبدو مهما كقوة تسبب بدء النمو الاقتصادى · وفى المجتمع التقليدى الذى لم يحدث فيه بعد شىء آخر من شأنه تغيير الشخصية والحضارة التقليديتين ، لا ينتظر من اتساع حجم السوق أو زيادة حجم المدخرات المتاحة أن تسبب تغيرا مستمرا فى التكنولوجيا ، لأن الصفوة التقليدية لن يستحثها اتساع السوق على العمل ، ولن تستخدم رأس المال الا فى الوسائل التقليدية ·وبهذا لا تكون القوة البادئة بالنمو الاقتصادى والمشجعة للتكنولوجيا الجديدة هى تغير الظروف الاقتصادية ، وانما هى التغير فى الشخصية ·

الحصار الاجتماعى

المبادىء العامة :

ان حقيقة كون توافر المعرفة العلمية والفنية ، وحجم السوق ، ومقدار المدخرات فى وقت تظهر فيه الشخصيات المبتكرة ، لها أثرها فيما اذا كانت الطاقات الخلاقة تتحول الى الابتكار التكنولوجى ، ومن ثم تصور مبدءا عاما · ان الشخصيات المبتكرة المنتمية الى مجموعة سحب منها وضع الاحترام ، توجه طاقاتها الخلاقة الى مجرى أو مسار العمل الذى يهيىء لأصحابها أحسن الفرص لاستخدام قدراتهم ، واثبات جدارتهم ، ومن ثم كسب الاحترام · ويتوقف اختيارهم للمجرى الذى يوجهون اليه طاقاتهم على مدى انغلاق المجارى الممكنة الأخرى ·

وما كان لنا أن نفترض أن الشخص المبتكر الخلاق يقرر بوعى دائما أنه يستطيع أن يحقق غرضه فى الحياة فى مجال نشاط معين على نحو أفضل منه فى مجال نشاط آخر ، وبهذا يكون له الاختيار بالتالى · والأغلب عندما يجد الفرد فى مجال نشاط معين ما يجذب اهتمامه عن المجالات الأخرى ، أن يكون القرار الذى يتخذه قرارا غير واع ، وانما يكون قد اتخذ على سلسلة خطوات بدأها مبكرا فى حياته ، ان الفرد يختار كطفل الأنشطة التى ترضيه ، وهو فى مرحلة تكوين شخصيته تقوده اختياراته المبكرة لهذه الأنشطة الى طريق مستقبل حياته ·

ففى المجتمع التقليدى يقنع الفرد بنشاط عائلته أو المجموعة التى ينتمى اليها ، وفى اتباعه لهما يحتفظ بمكانه الملائم فى المجتمع ويحظى بالاحترام ، ولا يوجد ثمة ما يدعو فى نظره الى البحث عن أسلوب جديد للحياة وتغيير قيمه · انه يجد الرضا فى توجيه طاقاته فى المجارى التقليدية · ولكن عندما تغلق مجارى الاشباع هذه ، سواء نتيجة لسحب وضع الاحترام أو لأى سبب آخر ، يعانى الفرد من ضغوط الكبت · ولقد رأينا بالفعل أن مثل هذه الضغوط والمظالم اذا استمرت على مدى عدد من الأجيال ، خلقت رجالا بقيم جديدة وبنظرات جديدة للحياة ، هم من نوع الأفراد الذين يسببون تغييرا فى المجتمع ويجعلون الابتكار والنمو الاقتصادى ممكنا بتلمس مجرى جديد لطاقاتهم ·

وهكذا يكون غلق المجارى التقليدية ، وهو ما أسميته هنا « بالحصار

الاجتماعى » عاملا هاما ومؤثرا بالنسبة لخلق النمو الاقتصادى فى المجتمع التقليدى ٠

الحماية عن طريق الجماعات :

ان الفرد الذى يختار طريقا لحياته يختلف عن طرق أقرانه ، أو الذى يلفظ القيم التقليدية لأقرانه ، يمكن أن يظهر فى أى مجموعة أو أى طبقة فى المجتمع ٠ وقد يحتمل المجتمع طرقه العجيبة ولا يراه خطرا ، ولكنه اذا لفظ القيم التقليدية ، وكانت له قيم جديدة تتعارض معها ، اعتبر خطرا يهدد النظام التقليدى للمجتمع ٠ وعندئذ يقصى من أنشطة المجموعات الاجتماعية ٠ وتكون القوى الرافضة له من القوة بحيث لا يستطيع أفراد بمفردهم أن يقودوا المجتمعات التقليدية الى النمو والتقدم التكنولوجى ٠

ومع هذا ، اذا كانت هناك مجموعة بكاملها من أفراد المجتمع قد تعرضت لنفس الضغوط التى تعرض لها ، فان الفرد يجد أن قيمه وتصرفاته تعكس قيم وتصرفات الكثيرين من الأفراد من حوله ٠ وهم بهذا يؤكدون أن قيمه وتصرفاته جيدة ، ويعربون عن تأييدهم لأسلوب جديد للحياة ٠ ولئن بدا غريبا ومختلفا فى نظر المجتمع الأكبر ، الا أنه لا يبدو كالغريب أو المختلف فى نظر مجموعته ٠ انه يحظى بالتأييد والحماية من مجموعته ومن ثم يكون أقدر على احداث التغيير واستحداث وسائل جديدة فى المجتمع ٠

وهكذا اذا كانت مجموعة أو طبقة لها وزنها فى المجتمع التقليدى قد تألمت من سحب وضع الاحترام ، وأصبحت بذلك غير متلائمة ، فان أعضائها يعززون ويحمون بعضهم بعضا فى شخصياتهم الجديدة ٠ ولا يلبث هذا الموقف أن يزيد كثيرا من احتمال الابتكار الفعال فى التكنولوجيا أو فى العلاقات الانسانية ٠ واينما يحدث التحول من المجتمعات التقليدية الى التقدم التكنولوجى المستمر ، فانه لا يبدأ فعلا أو لا يلاحظ الا اذا كان الكثيرون من أعضاء مجموعة اجتماعية غير متميزة أو محظوظة قد شاركوا فى النشاط الابتكارى ٠

ومتى حدث مجرى كبير من النشاط الابتكارى فى التجارة والصناعة على يد أعضاء مجموعة غير محظوظة ، قوى ذلك من احتمال امتداد نشاط مماثل الى أفراد موزعين داخل المجموعات المقبولة المصفوة ٠ وذلك لأن ما تكسبه المجموعة غير المحظوظة من الثروة الجديدة يهدد بتجريد المجموعات المتميزة من احتكارها لبعض العناصر التى ترمز لمركزها ٠ فالفئات القائمة

المتميزة لا تلبث أن تشعر ببعض التواترات من المجموعة التى كان قد سحب منها التقبل الاجتماعى والاحترام · ولكن يظل احساس معظم الأعضاء الأعلى للصفوة بشخصيتهم المتميزة على ما هو عليه ، ويحول بينهم وبين الاشتراك فى الأنشطة الجديدة · ومع هذا فان بعض الأفراد غير المتلائمين يجـــدون أنفسهم أكثر حرية فى اتباع النموذج الذى استحدثته الفئة غير المحظوظة · وبالتدرج لا يبدو هذا النموذج غير ملائم ، وينتشر الابتكار فى سائرقطاعات المجتمع ·

الأجانب والنمو الاقتصادى :

لقد سبق أن نوهت بأن سحب وضع الاحترام من المجموعات التى كانت متقبلة من قبل هو القوة الدافعة لتغيير الشخصية ، ثم للابتكار تدريجيا · وجدير بالذكر أن أعضاء مجموعات الأجانب التى تكون من الواضح غـــير محظوظة ، وغـــير متقبلة أبدا ، لا يظهر عـــادة من بينهم قادة للابتكار التكنولوجى · وهناك سببان لذلك · أن نشاط مثل هـــذه المجموعات يكون عادة فى شئون المال والتجارة ، لأن مثـــل هذه الأنشطة بغيضة للمواطنين ومواليد البلاد ، ومن ثم متوافرة للأجانب ، ولأن مجموعات الأجانب يشعرون بالأمان فى مزاولة هذه الأنشطة · ان مجموعة الأجانب تتوقع دائما الاعتداء وتخاف الهجوم عليها · ولما كانت الأنشطة الصناعية تتطلب استثمار الموارد فى العقار مثل الأرض والمبانى ، مما لا يمكن اخفاءه ، فيخضع بالتالى للضرائب، ويسهل الاستحواز عليه ، فان مجموعة الأجانب تميل الى تركيز أنشطتها فى شئون المال والتجارة لأن الثروات فى مثل هذه الأنشطة تكون فى صورة يمكن اخفاءها بسهولة · ومن أسباب ابتعاد أعضاء مجموعات الأجانب عن قيـــادة الابتكار التكنولوجى خوفهم من المغامرة خارج دائرة نشاطهم المحدودة · وثمة سبب ثان ، وهو أنه حتى اذا حدث أن أسهمت مجموعة الأجانب فى الابتكارالتكنولوجى فى ميادين أخرى ، فان المجموعات الأخرى فى المجتمع لا تتبعها ولا تستجيب لقيادتها ·

ان تغييرا اجتماعيا رئيسيا مثل التحول من السلوك الاقتصادى التقليدى الى التقدم التكنولوجى الواسع الانتشار ، لا يمكن أن يحدث ببساطة عن طريق أنشطة مجموعة واحدة تكون قد تأثرت بسحب وضع الاحترام · فاذا كان على المجتمع كله أن ينمو ، وجب أن يقلد السلوك الجديد لهذه المجموعة على أوسع نطاق بواسطة أفراد المجموعات الاجتماعية الأخرى · ولكن اذا كان المبتكرون او المجددون أعضاء فى مجموعة أقلية أجنبية ، اكتسبت القوةمن نجاحها

الاقتصادى ، فان المجموعات الاجتماعية الأخرى لا تقلد مجموعة الأجـــانب بل تعمل على اقصائها أو كبتها • وتأخذ حريتها فى ذلك لأنهم أجانب • ولكن اذا طرحنا جانبا موضوع القوة ، فان حقيقة كون مجموعة أجنبية تمسك بالأنشطة التكنولوجية على أعلى مستوى تكفى فى حد ذاتها الى حث المواطنين الى لفظها دفاعا عن شخصيتها الخاصة • وهم كالمواطنين فى مجتمع تحت حكم الاستعمار ، لا يمكنهم أن يتقبلوا قيم مجموعة الأجانب بدون قبـــول تقييم الأجانب للمجموعات الأخرى كشىء غير ذى شأن • ولهذا السبب ، يكون التغيير الاجتماعى الأساسى ، وعلى الأخص التحول الى النمو الاقتصادى ، منطويا على سحب التقبل أو الاحترام من مجموعة لها جذورها فى المجتمع •

الفصل العاشر

اليابان : التاريخ يسخر من التوكوجاوا

ترجع اليابان كدولة متحدة كما نتناولها هنا بالبحث الى عام ١٦٠٠ فتاريخها قبل ذلك الوقت كان سلسلةمن الحروب الداخلية والصراعات على السلطة ، وقد تميز بنوعين من الحكم • ففى بعض الأوقات كانت السلطة مركزة فى يد رئيس عام قوى بمفرده ، كان يسمى كحاكم للدولة بلقب « الشوجن » Shogun • وتلت هذه الأوقات فترات حروب وتفكك للاشراف المركزى • وتجزأت الدولة بين السادة المحليين ، الذين وضعوا تحت سيطرتهم مساحات كبيرة ، وحكموا كملوك ، كل منهم فى اقطاعيته • وكان هؤلاء السادة الحكام يسمون « داميو » Daimyo (وهى كلمة تستخدم كمفرد وكجمع) • ومع أن الشوجن والداميو كانوا هم المسيطرون فعلا على السلطة ، ظل الامبراطور كرمز وكرئيس دينى •

ولم يحدث أن تحققت الوحدة القومية الحقيقية الا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر • فلقد ازدهرت التجارة بين اليابانيين والبورتغاليين الذين جاءوا الى اليابان عام ١٥٤٣ ، كما ازدهرت أيضا مع كوريا فى الصين • وفى عام ١٥٦٨ سيطر الداميو « أودا نوبوناجا » على العاصمة كيوتو • ثم أتم خلفه « هيديوشى » فتح اليابان كلها عام ١٥٩٠ • وبعد وفاة هيديوشى أسفر الصراع على السلطة عن انتصار « توكوجاوا اياسو » عام ١٦٠٠ ، وبذلك بدأ عصر التوكوجاوا • وتبدأ دراستنا للتاريخ الاجتماعى لليابان عند هذه النقطة ، عندما حققت عشيرة توكوجاوا حكومة قومية متحدة ظلت اليابان تحت حكمها لمدة ٢٦٧ سنة •

عصر التوكوجاوا ، ١٦٠٠ - ١٨٦٧

كانت عائلة التوكوجاوا من الشوجن • وقد أقاموا موطن حكمهم فى قرية أيدو ، الآن طوكيو • لقد عرفوا تماما مصاعب تكوين حكومة قومية متحدة فى اليابان • وباستخدام وسائل مختلفة عن تلك التى فشلت فى

الماضى . عزم التوكوجاوا على تجميد اليابان فى القالب الاجتماعى القائم ، وحالوا دون بروز قائد عسكرى محلى كذلك الذى كان يقضى على كل فترة من الحكم الوطنى ، وبذلك وطدوا حكمهم .

نظام التوكوجاوا :

أراد التوكوجاوا أن يقلصوا سلطة الحكام المحليين ، الداميو ، ولكن أية محاولة لتصفية الحكومات المحلية كانت ستفجر حتما ثورة ناجحة . ورغم هذا أقام التوكوجاوا حواجز بين الداميو وحولهم . لقد قسموهم الى ثلاث طبقات : الشيمبان داميو Shimpan daimyo وتربطهم رابطة الدم بالتوكوجاوا ، والفوداى داميو Fudai daimyo وقد اعترفوا ، فيما عدا قلة منهم ، باياسو Ieyasu كسيدهم الأعلى قبل حروب عام ١٦٠٠ ، والتوزاما Tozama أو الداميو الخارجيون ، وهم الذين كانوا رسميا فى نفس مرتبة اياسو عام ١٦٠٠ . وداخل هذه المجموعة كان هناك الحلفاء والمحايدون والأعداء السابقون ، الذين قد يعودوا الى العداء مرة أخرى ، ولهذا اتجهت أكثر تدابير التوكوجاوا الى المحافظة دائما على علاقات آمنة مع التوزاما داميو .

وهكذا اذا سنحت الفرصة أو الحيلة ، اتهم التوكوجاوا داميو قوى بعدم الولاء ، وأعدموه وأقصوا ورثته الى أرض تبعد عن ايدو ، تكون مساحتها عادة أصغر ، ووضعوا مكانه واحدا من عشيرتهم فى أرضه السابقة . وحرصوا على ابقاء اقطاعيات أو أراضى الفوداى داميو صغيرة فى الحجم ، حتى يعتمدوا فى قوتهم على علاقتهم بهم . ولقد أتموا بالكامل تقريبا وضع أبناء عشيرتهم فى مناطق اليابان القريبة من « ايدو » ، كما نثروهم بين « التوزاما داميو » البعيدين عن « ايدو » ليكونوا عيونا عليهم . وبينما لم يجرؤ التوكوجاوا على محاولة الهيمنة على الادارة الداخلية للاقطاعيات ، عمدوا الى تعيين مفتشين للتجسس عليها . كما منعوا أى تزاوج أو تحالف بين « الداميو » ، وحرموا عليهم زيادة جيوشهم أو اقامة أية منشآت بدون تصريح منهم .

أما عن مدفوعات الداميو الى التوكوجاوا فكانت صغيرة ، وخاضعة للعرف ، ولم تدخل عليها زيادة . ومع هذا كان التوكوجاوا يمنحون أحد الداميو الأقوياء شرف اقامة مشروع مدنى كبير أو مشروع دفاعى ، أو معاونة القوات المسلحة فى الدفاع عن جزء من الساحل لفترة من السنوات ، وذلك بغية تيسير تنفيذ المشروعات أو لالزام الداميو الأقوياء بانفاق مبالغ كبيرة . (وكان من النتائج غير المتوقعة لذلك القدرة الفنية لهؤلاء الداميو) .

ولقد عمل التوكوجاوا على ابقاء الفوارق بين الطبقات الاجتماعية ، باجبار الفلاحين على تسليم سيوفهم ، ليقيموا بذلك حدا فاصلا بين النبلاء حملة السيوف وبين العوام الذين لا يحملون سيفا · كما حرموا أيضا أنواع كثيرة من تغيير الحرف بين الطبقات الاجتماعية الأربع : الساموراى Samurai وهم الجنود النبلاء الذين كانوا حمـــاة الداميو والمحـــاربون فى خدمتهم ، والفلاحون ، والحرفيون ، والعمال · وقد حددت المراتب الاجتماعية لهذه الطبقات ، بحيث يلى انفلاحون الساموراى لأنه كان ينظر الى الزراعة كالقاعدة الاقتصادية للحياة · ووضع التجارة فى أدنى مرتبـــة لأنه كان ينظر اليهم كغير منتجين · ولم يكن تحريم التنقلات بين مهن الزراعة والحرف والتجـارة ليفرض بدقة ، ولكـــن يلتزم بالخط الفاصل بين هـــذه المجموعات وبين الساموراى ·

ولكى يكون الامبراطور بمنأى من أن يصبح مركزا لتحالف عدوانى ، كما حدث فى مناسبات سابقة وقوض سلطة الشوجونات ، حرص التوكوجاوا على ابقائه فى عزلة · لقد تركوه وبلاطه فى كيوتو ، وحاصروه ولم يسمحوا بأى اتصال به الا عن طريق ممثليهم الذين كانوا يحملون الرسائل الى الداخل ويخرجون بالردود ·

وكان الاجراء البالغ الأهمية من بين اجراءات التوكوجاوا للابقـــاء على سلطتهم ، شرط اقامة زوجـــة الداميو وأولاده فى « ايدو » تحت اشراف التوكوجاوا ، وأن يقيم معهم الداميو نفسه نصف الوقت ، وفى معظم الحالات سنة بعد أخرى · وكان « الداميو » يحجون كتقليد الى « الشوجن » ليعربوا عن احتراماتهم ويودعون عائلاتهم فى رعايته ، وبهـــذا لم يكن ذلك الشرط بالجديد · لقد كان الغرض منه بالطبع ابقاء العائلات كرهائن أو ضمانات لمنع الثورة · هذا فضلا عن تكليف الداميو نفقات سفر باهظة وافقارهم بذلك ، حيث كان الداميو الكبار يقيمون فى أماكن بعيدة فى الطرف الغربى للجزيرة الرئيسية « هونشو » ، وفى جزر كيوشو وشيكوكو البعيدة ·

وأخيرا منعا لقيام أية مجوعة معادية من التحالف مع الأجانب حـــرم التوكوجاوا مغادرة اليابانيين لليـــابان الا بموافقتهم (والا تعرضوا لعقوبة الاعدام اذا أعادوا بعد خروجهم) ، ومنعوا الصينيين والهنود · وقد احتفظوا بالهولنديين ليس لغرض الحصول على الواردات المرغوب فيها فحسب ، وانما ليأتوا بمعلومات عن الغرب أيضا ·

سحب وضع الاحترام

لقد ولد نظام التوكوجاوا فى نفوس الطبقات الاجتماعية الأربع احساسه قويا بأنهم قد حرموا من مراكزهم وحقوقهم فى المجتمع ، التى كانوا يشعرون بقيمتها وأحقيتهم لها . ويكون التجار أحد هذه الطبقات . وكان التجار قد اكتسبوا الرخاء والنفوذ خلال العهـــد الاقطاعى والآن ، وبغض النظر عن ثرواتهم مهما كبرت ، تقرر رسميا اعتبارهم أدنى الطبقات الاجتمـــاعية ، وفرضت قيود على ملبسهم وسلوكهم وعلاقاتهم بالمجمـــوعات الأخرى ، الأمر الذى جعل وضعهم الأدنى أمرا عاما .

وقد تأثرت الطبقة الثانية ، طبقة الساموراى ، من ناحيتين . ان النبيل العسكرى الحامى ، الساموراى ، كان مشدودا الى مجال ســـيده ، وكانت حياته كلها محكومة باخلاصه لسيده وخدمته العسكرية له . وأما وقد أدت الحروب الى مصرع الكثير من السادة ، فضلا عن سياسة التوكوجاوا القائمة على اعدام « الداميو » الأقوياء ، أو خفض ملكيات أراضيهم ، فلم يلبث أن فقد الكثيرون من الساموراى مغزى حياتهم بفقد سادتهم . وفى خلال الفترة من عام ١٦٠٠ الى عام ١٦٣٠ ، تحت حكم التوكوجاوا ، قدر عدد الساموراى الذين أصبحوا بلا ســـادة بنحو ٤٠٠ر٠٠٠ ساموراى . وقـــد تحولوا الى « رونين » أى مشردين . وتحت حكم التوكوجاوا فقد هؤلاء المشردون ألقابهم ورتبهم ، لأنهم لم يعودوا ساموراى فى النظام الجديد ، بل مجرد نبـــلاء فى خدمة الداميو . وكان عليهم بذلك أن يختـــاروا بين أن يهبطوا الى طبقـــة الفلاحين ، أو يهيئوا لأنفسهم وجودا متواضعا فى احدى المدن . وقد تشرد بعضهم وأصبحوا قرصانا أو قطاع طرق . والبعض الآخر هام على وجهـــه روحيا كرجال تركوا مكانهم فى الحياة أو أقصوا منه .

وكان الأثر الأشد خسفا بالســـاموراى فرض التوكوجاوا للســـلام القومى ، الذى نزع من الساموراى السبب الرئيسى لوجودهم . حيث لم تعد توجد وظيفة الحفاظ على السيد ضد أعدائه والقتال من أجله .

وثالثا كانت هناك مجموعة تسمى بالفـــلاحين الأغنياء الذين تولت عائلاتهم ادارة العزب وكانوا يعتبرون أنفسهم أعلى مرتبة من الفـــلاحين . وتحت حكم التوكوجاوا أدى التقسيم الصـــارم للناس الى أربعة طبقـــات اجتماعية الى حرمان أفراد هذه المجموعة من الارتباط بالمجمـــوعة الأدنى من النبلاء ، وعوملوا معاملة الفلاحين العـــاديين . فوجدوا أنفسهم يغطسون فى

الحياة بنقص أهمية العزب · وما أن وجدت الفجوة الجـديدة بينهم وبـين الساموراى والفلاحين ، حتى وجدوا أنفسهم فى طبقة اجتماعية أدنى ·

وأخيرا بدت المعاملة الجديدة للامبراطور لبعض الناس كمـا لو كانت نوعا صغيرا من الجريمة · لقد سحبت العزلة المفروضة على الامبراطور مركزه الأعلى على نحو لم يسبق له مثيل · فلقد عامله التوكوجاوا كرجال عمليين معاملة مختلفة عن تلك التى كان يعامل بها عنـدما تعرض للقهر فى مرات سابقة ، ولكنه مع ذلك ظل بلا صوت مسموع فى الأمور الوطنية ، وكان من المستحيل الوصول اليه ·

ولعله يجدر بنا أن نضيف مجمـوعة خامسة وهى مجموعة الداميو عموما ، وعلى الأخص التوزامادداميو · فبينما كان الداميو فى الماضى خاضعا للشوجن ، فرضت عليهم القيود التى استحدثها التوكوجاوا معاملة جديدة مذلة اجتماعيا أوجدت احساسا بفقد وضـع الاحترام ، لم يكن موجودا من قبل فى العلاقات مع الشوجن ·

لقد تسبب نظام التوكوجاوا فى تغيرات كبيرة أخرى · فهو اذ قضى بأن يترك الداميو عائلاتهم فى « ايدو » ومن ثم يعودون الى اقطاعياتهم ثم يأتون الى ايدو ، قد أدى الى انتعاش المواصلات والتجارة بين المنـاطق · وبذلك أصبحت ايدو وكيوتو وأوزاكا مدنا كبرى ، وازدادت التجـارة الـلازمة لتموينها · كما تقدم النظام المصرفى الحديث ·

لقد تزايد الانفاق نتيجة للضغط الاجتماعى على كل داميو ليبين المستوى الرفيع لمركزه بعظمة تنقلاته الى ايدو ومنها ، وبروعة ما ينشئه فى ايدو · كما زاد الانفاق أيضا بالنمو السريع لحياة المدن · ولكى يقابلوا الاحتياجات المالية عمل الداميو وحماتهم على زيادة انتاجية زراعة الأرز ، وزراعة محاصيل جديدة والتوسع فى الانتاج الحرفى ، وادخال صـناعات حرفية جـديدة · وبهذا ارتفعت الكفاية الانتاجية خلال عصر التوكوجاوا · ولكن الداميو أنفقوا أكثر من مواردهم ، على الرغم من نمو هذه الموارد · وقد حاولوا مواجهـة العناء المالى بوسائل ثلاث : بالاقتراض من التجـار ، بابتزاز الأموال من الساموراى ، وربما بمطالبة الفلاحين بما هو أكثر ·

لقد ازدادت ديون الداميو للتجار ، وازداد دخل وثروة ونفوذ التجـار على الرغم من القيود الاجتماعية · وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر استطاع بعضهم أن يغـيروا حرفتهم وأن يشتروا من الساموراى وأغنيـاء

الفلاحين مراكزهم كعائلات مالكة . واكتسب بعض التجار وضع النبلاء لبناتهم عن طريق الزواج . ولكن على الرغم من ثروتهم الجديدة ، ظل التجار فى مرتبة اجتماعية أدنى ، وما كانوا ليجدوا لأنفسهم مكانا الا حيثما تمكنهم قوة أموالهم من شق طريقهم اليه .

وكلما ازداد المركز المالى للداميو سوءا ، كلما وجدوا من الضرورى خفض مدفوعاتهم الى الساموراى . الأمر الذى هبط بمستوى بعض الساموراى الى المستوى الاقتصادى للفلاحين . وقد صدرت عدة قوانين لمساعدة الساموراى ، مثل القوانين التى ألغت ديونهم ، ورغم هذا استمر مركزهم فى السوء . كما وجد الفلاحون مستوى معيشتهم أقل مما كان عليه ، سواء لأن الداميو كانوا يزيدون عليهم الرسوم والاتاوات ، أو لأسباب أخرى مثل تقلب الأسعار والمحاصيل مع بقاء التكاليف على ما هى عليه . الأمر الذى أدى الى فقدان الكثيرين منهم لأراضيهم ، بينما تزايدت الملكيات الكبيرة . ولهذا تكررت انتفاضات الفلاحين ، كدليل حى على تبرمهم بما دفعوا أو هبطوا اليه . ولما كانت الثورات شيئا لا يجوز التفكير فيه فى الحضارة اليابانية ، فان قادة الفلاحين كانوا يستسلمون طواعية لأحكام الاعدام بعد فشل الثورات . وهم اذ كانوا يعلمون مقدما ان الاحتجاج أمر جد ضرورى ، كانوا يعلمون أيضا أن عقوبة الاعدام لا مفر منها .

وهكذا مع تصاعد عصر التوكوجاوا ، اشتد احساس التجار والساموراى والفلاحين بسحب وضع الاحترام وفى الوقت نفسه تدهور وضع الفلاحين الأغنياء الى حد أبعد . فمع تغير وظيفة الساموراى ، بالنسبة لهؤلاء الساموراى الذين كانوا منتشرين فى الاقطاعيات الكبيرة ، ثم نزحوا تدريجيا من القرى وذهبوا الى المدن المركزية . وهنالك مارسوا عادة شئون الادارة الحكومية للقرى لأنهم كانوا قد توارثوا بعض الأعمال الرئاسية والوظائف المحلية الرئيسية . وبهذا تخلى النبلاء عن استخدام أثرياء الفلاحين كرؤساء قرى بعد أن كانوا يعتمدون عليهم للنصح وللهيبة .

وانه لمن الصعب أن نجد حالات واضحة لسحب الاحترام بين الصفوة العليا ، وجل ان لم يكن كل الصفوة الأدنى ، والكثيرين من العامة مثل تلك التى أوجدتها أحداث اليابان التوكوجاوية . ومن شأن النتائج أن تعطينا حالة كلاسيكية من عمليات المسارات الاجتماعية والنفسية للانهزامية وما تمخضت عنه من تغيير فى القيم وزيادة فى الابتكار الخلاق .

مظاهر الانهزامية

اتخذت الانهزامية صـــورة فلسفة « كل واشرب وكن مرحا » • ففى أوكازا وكيوتو وايدو ، وعـــلى نطاق أصغر فى مدن القلاع وســائر أنحاء الدولة ، انتشرت موجة من الاهتمـــــام بالأسلوب وبالمسرح ، وحيــاة اللهو والمرح ، والتسلية والفن والأدب الرومانتيكى كسبيل للهروب من الطبيعـة غير المرضية لحياة كل يوم •

لقد نمت صيغ جديدة من المسرح الشعبى وبعد آن كانت المسرحيـــات التاريخية تعالج الولاء للسيد وواجب الساموراى ، عالجت المسرحيات الحديثة معاناة المحبين ، والزوجات الغيورات وما الى ذلك • وكلاهمـــــا كان يهتم بالصراع بين الواجب والعاطفة ، كلاهما كان رومانتيكيا وشعبيا الى حد كبير •

ومن الملاهى الشعبية الأخرى وجدت حياة « الأحياء المرحة » فى أجزاء من أوزاكا وكيوتو وايدو ، وذاع صيتها لطبيعة تسليتها • لقد كانت هـــذه الأحياء تكفل التسلية النسائية المرحة والخفيفة الظـــل التى ما كان الرجال ليحصلوا عليها بطريقة أخرى ، حيث كانت زوجاتهم محتجزات بشـــدة فى البيت وليس لهن أن يزاملن أو يصاحبن أزواجهن • وتعد الأحياء المرحة من معالم ذلك العصر وكانت الفوارق الطبقية والاجتماعية تختفى منها حيث كان يختلط فيها أهل المدن والتجار والساموراى بدون حواجز •

لقد كانت حياة المرح انسحابا من التوترات الاجتماعية ومشـــاكل العصر • ولا علم لنا بأثر هذه التوترات على الحياة العائلية ، ولـــكن لدينا سجل بالتغيرات الحضارية التى حدثت مع مرور الوقت • وفيها تأججت نار الثورة ضـــد النظام التقليدى ، ولم تلبث أن بلغت ذروتهـا وفجرت ثورة اجتماعية •

ما أعقب الانهزامية : تغيير فى القيم وفى معارف العالم

لعل الساموراى قد واجهوا فى أوائل عصر التوكوجاوا مشكلة شخصية أكثر شدة من مشاكل الطبقات الأخرى • فبحلول منتصف القرن السابع عشر زالت عن الوجود الوظيفة العسكرية للساموراى ، بعـــد آن كانت العنصر الأساسى لوضعهم ، ومن ثم واجهوا مشكلة ايجاد شخصية جديدة لأنفسهم • ولقد توقف كثير منهم عن محاولة فهم لماذا حلت الأيام السيئة بهم • وأكثرهم تفكرا تحولوا الى المنـــابع القديمة للحكمة ، وقد وجـــدوا فى أوائل عهـــد

التوكوجاوا فى الكتابات الصينية وصفا للأنشطة المناسبة للمحاربين ولجيل أو جيلين تحولوا الى ممارسة المهارات العسكرية بالرجوع الى القرون السابقة مثل الرمى بالقوس والسهم الذى لم يعد يستخدم فى الحرب · كما تعلموا من الكتابات الصينية الطقوس والمراسم التى تميز شخصية المحارب ·

وفى بحثهم عن مغزى الحياة ، تمسكوا بأهداب الكود القديم لسلوك الساموراى ، الذى ركز على الولاء ، واحترام وطاعة الأكبر ، واللياقة والفروسية والنظرة السامية الى التعليم · وقد ناضل الكثيرون منهم من أجل اتباع هذه الفضائل واعتبروا أنفسهم حراس الخلق اليابانى · ولكن مع مرور الوقت أدركوا أن الكتابات العسكرية الصينية لم تعد تتمشى مع عصرهم ، وأنهم وقد فقدوا وظيفتهم لا يكادون يستطيعون القيام بدور حماة الشرف والخلق اليابانى · فتحول كثيرون منهم الى حياة « الأحياء المرحة » ·

كما أن كثيرا من الساموراى وغيرهم تلمسوا تخفيف توترات حياتهم بادراك معنى جديد للتقاليد الدينية للزن بوذية والكونفوشية · فهذه التقاليد تعلم أن النظام الاجتماعى القائم على فوارق طبقية حادة نظام عادل وحق ، وأن لكل فرد وضعه الطبيعى فى المجتمع فى أى من هذه الطبقات ، وعليه أن يؤدى واجبه فيها ، وأن الحكومة العادلة التى تراعى هذه المبادىء من حقها أن تحظى بولاء كل مواطن · والأشخاص الذين يستطيعون تقبل هذه المبادىء ، هم الذين يستطيعون أن يجدوا الرضا المتزايد فى النظام الاجتماعى للتوكوجاوا ·

وقد التزمت طبقة التجار بوجه خاص بالكثير من هذه المعتقدات · فاذا كان قانون السماء هو الذى يقضى ببقائهم فى طبقة التجار وبقيامهم بواجبهم فى اطارها بدون محاولة حسودة لبلوغ مرتبة أخرى ، فان درجتهم فى الحياة تجزى الجزاء المقدس على أية حال ، وليست بحالة فرضها التوكوجاوا عليهم · وقد وجدوا فى أحد التعاليم ما يعنيهم بوجه خاص ، وهو فضيلة العمل المجد فى مهنة الفرد · لقد تقبلوا فضيلة البساطة والاقتصاد والدأب فى العمل كجوانب من واجب الفرد نحو عائلته ومجتمعه ·

لقد دعا الى هذه التعاليم الراهب ايشيدا بايجان الذى عاش الفترة ١٦٨٥ - ١٧٤٤ · ومن تعاليمه أيضا أن جميع الأفراد ساموراى ، كل طبقة تخدم فى مهمتها المحددة كما يخدم الساموراى فى مهمتهم · والتجار ، كما أكد ، هم مديرو الملكية الذين يستحقون أرباحا عادلة وجزاء عادلا · ومما

يجذبهم الى هـــذه الفلسفة الجرح في مرتبتهم الاجتماعية الذى تسبب عن اعتبارهم متساوين مع الساموراى فى المرتبة .

كذلك وجد الفلاحون أيضا فى تعاليم الفوارق الطبقية الطبيعية وفى فضيلة العمل ما يريح نفوسهم ، وبذلك انتشرت التعاليم المماثلة لتعـــاليم بايجان فى سائر القرى .

ومع مضى الحياة واستمرار التوتر ، بحث بعض الأفراد عن الحكمة فى أماكن أخرى ووجدوها فى الكتابات اليابانية القديمة وفى تعاليم « ايشنتو » دين اليابان القديم ، الذى ركز على عبادة الأجداد والأبطال القدامى ، وعــلى قدسية الامبراطور . لقد طرحوا جانبا كل الأديان الأخرى . انهم تعلموا أن الامبراطور كان فى وقت ما يحكم الوطن . ومن ثم استخلصوا ، على أساس تعاليم الشينتو أن الامبراطور يمثل ارادة الآلهة ، وعليه يصبح واجبا على كل يابانى أن يكن له الالتزام والطاعة بلا حـــدود فى المسائل الســياسية والدينية على السواء انه الحاكم الحق للدولة . وكان حكم الخلق واضحا : لقد اغتصب شوجن التوكوجاوا السلطة ، ولعل أمراض المجتمع ترجع الى أعمالهم ضد الآلهة .

كما تعلموا أيضا أن يعتقدوا فى رفض الصين كليا . وبالاضـــافة الى ولائهم وحبهم للامبراطور ، كونوا شعورا قويا بالوطنية ، وبأن اليابان أعلى من كل الأوطان الأخرى .

ولقد اتسع انتشار هذه المعتقدات فى اليابان خلال الفترة الاخيرة من عصر التوكوجاوا ، الأمر الذى يوضح فيما أعتقد ذلك الشعور العاطفى عند اليابانيين لايجاد « كبش فداء » يوجه اليه اللوم على ما يعانون من متاعب . وقد وجدوا كبش الفداء فى الأجانب وفى التوكوجاوا . وهذا ما ساعد الناس على أن يروا ، خارج أنفسهم ، أسباب الغضب والضيق اللذين يحسون بهما من غير وعى . وكان من شأن هذا الاكتشاف أن جعل هـــذه العواطف أكثر معقولية واحتمالا .

النتائج : التغيير السياسى والاقتصادى

نهاية العصر

تعرض النظام السياسى للتوكوجاوا لتحلل واضح منذ حوالى منتصف القرن الثامن عشر • لقد كان التوكوجاوا يعتمدون كل الاعتماد تقريبا على الايرادات المحققة من أراضيهم ، وقد وجدوا مواردهم منها غير كافية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر• لقد تزايد عدد الفلاحين المعدمين ، أى الذين لا يملكون أرضا ، وظهرت القلاقل فى الريف • وكان التجار يشترون طريقهم الى المراكز الاجتماعية المحرمة عليهم • واستأجر التجار والفلاحون الأغنياء الساموراى ، بعد افتقارهم ، ليعلموا أبناءهم المحرمات من المعارف مثل النظرية السياسية وفنون الحكم • وازدادت سطوة الداميو الأقوياء فتجاوزوا القيود القديمة وكان أس البلاء فى تحلل التزامات الاخلاص تحت ضغط سحب وضع الاحترام المستمر ، وفى ظل هذا التغيير شعر التوكوجاوا بالضيق واختلط الأمر عليهم •

لقد شعر الساموراى ، وغيرهم ممن كونوا مشاعر وطنية قوية ، بضعف حكم التوكوجاوا • وبدأوا يرون من الممكن قدرتهم على القيام بعمل يضعون به حدا نهائيا للظروف السيئة التى يعتقدون أنها السبب فيما يعانونه من متاعب وتوترات •

ورأى أفراد آخرون ومجموعات أخرى خلاصهم فى المذاهب الدينية الجديدة التى حثت على الدأب وفضيلة وشرف العمل • والآن قد أصبحت المعرفة الفنية متوفرة من عند « الأوربيين الهمج » الذين تبدو قوتهم واضحة• ولو أن وسائل كثيرة تكسب النفوذ الاقتصادى كانت تعتبر كريهة ، الا أن عددا متزايدا من الأفراد اعتقد أنه اذا لم يكن هناك طريقا آخر الى احترام مكانة الانسان فى المجتمع سوى الانجاز الاقتصادى ، فليركز فيه الانسان جهوده على أية حال •

لقد كان هناك سببان هامان لهذه النظرة الجديدة للحياة فقد تواجد أفراد كثيرون لديهم من قدرة الابتكار ما يكفى لينظروا الى الحياة من جوانب جديدة • وكانوا أيضا لا يجدون ثمة طريق آخر لحل مشكلة انكار وضع الاحترام • ولا شك أن العلم بما حققه الغرب من منجزات ، والهيبة التى

حققتها الدول الغربية القوية قد عجلت بظهــور عنصر جـــديد فى الفكر اليابانى ٠

وهكذا ظهرت حركة تدعو الى الدراســات الهولنــدية ٠ وبدأ بعض الساموراى وغيرهم يتعلمون اللغة الهولندية ، حتى مبكرا فى القرن الســابع عشر لكى يلموا بمعارف أوروبا ٠ لقد تزايد العدد ببطء ، ولكنه ازداد بمعدل سريع فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ٠ لقد أعدت قواعد اللغــة الهولندية ، وقواميس هولندية يابانية ، وافتتحت مدارس لغات ، وترجمت كتب كثيرة أو أجزاء منها فى الرياضيات والجغرافيا ، والتشريح ، والملاحة ، والهندسة ، والتكتيك الحربى ، والطب ، والحكومة ، وعلوم أخرى ٠ وبعــد ذلك أقيمت مدارس هامة لدراسة كتب الهمج ٠ وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر أنشئت المعامل لاجراء التجارب العلمية الواردة فى الكتب ٠ ثم أقيمت منشآت كبيرة كاملة كأفران الحديد ومصانع لانتاج المدافع والآلات ٠ لقد كان التركيز على الصناعات المعدنية والأسلحة ٠

ولقد اجتذبت هذه الدراسات الساموراى لأن الغربيين كانوا محاربين أقوياء ٠ ومن هنا كانت دراسة قوة الغرب كبديل رمزى لقوة الساموراى التى اختفت ، وكنوع من الاحتجاج الرمزى ضد ضعف التوكوجاوا ٠ وبعــد ذلك اتضحت العلاقة بين الدراسات الفنية والدفاع عن اليابان أكثر فأكثر ٠ لقد تزايد تهديد الغرب لليابان ٠ ففى النصف الأول من القرن التاسع عشر تقدمت روسيا والدول الغربية بعدد من المطالب الى اليابان التى رفضتهــا بصعوبة ٠ وفى البحث عن مصادر قوة الغرب كان الساموراى يعدون أنفسهم للقيام بما بدا فى نظرهم أنبل واجباتهم التاريخية وهو الدفاع عن اليابان ٠

ان قوى التغيير المنوعة هذه أحدثت توترات من الصعب احتمالها فى المجتمع اليابانى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ٠ لقــد اتضح تفكك النظام الاجتماعى ، أو افتقاره الى الوحدة ، أكثر فأكثر ٠ كان التجار والفلاحون والساموراى يحطمون الحواجز الاجتمــاعية ، بينما كان الداميو الأقوى يتخلصون من القيود التى فرضت عليهم ٠ وبهذا لم يعد التوكوجاوا بقادرين على ممارسة الحكم وازداد ضعفهم شيئا فشيئا ٠

وفى هذه المرحلة البالغة الأهمية من تاريخ اليابان ظهرت قوى أجنبية مرة أخرى ، وهى قوة لا يمكن انكارها أو تجاهلها ٠ لقــد ظهر الكومادور الامريكى « بيرى » ببوارجه فى خليج طوكيو عام ١٨٥٣ ، وأنذر أنه سيعود

فى العام التالى ليحصل على معاهدة تجارية ٠ وقد عاد بأربعة بوارج صغيرة كان فى استطاعته أن يغلق بها الميناء ويميت المدينة جوعا ٠ ووقع التوكوجاوا معاهدة فتحوا بمقتضاها مينائين للتجارة الامريكية مع سلطة محدودة لليابان على تنظيم التجارة ٠ وفى عام ١٨٥٧ قام القنصل الامريكى «تاونسبند هاريس» بعقد اتفاقية جديدة للتوسع فى التجارة مع اليابان ٠ كما تقدمت دول غربية أخرى بطلب عقد معاهدات تجارية مع اليابان مماثلة لمعاهدتها مع أمريكا وحصلت عليها ٠

لو جوبه اليابانيون بالسؤال العظيم ألا وهو كيف يقابلون العدوان القادم من الخارج ؟ ولقد كان جواب التوكوجاوا أن « افتحوا الموانى وساعدوا التوكوجاوا » ٠ وكان معنى هذا : « ليست لدينا القوة للصمود فى مواجهة الأجانب ٠ وان التحضير للمقاومة ليتطلب تغييرات اجتماعية بالغة ولكن من الواجب تجنبها ٠ ولهذا يجب أن نفتح الموانى » ولكن المعارضون للتوكوجاوا صاحوا « الولاء للامبراطور ٠ ثوروا ضد الهمجيين ! » وكان ما يعنونه بذلك: « علينا أن نكتسب القوة لمحاربة الهمجيين ٠ ولكى نقوم بهذا لابد من عمل اجتماعى يفرض ٠ فلنعزز مركز الامبراطور ، وبهذا نحتفظ برباط رمزى بالماضى ٠ وبالتجمع حول الامبراطور ، يمكننا أن نطيح بالتوكوجاوا ٠ ومن ثم يمكننا مواصلة العمل على احداث التغييرات الضرورية » ٠ وبهذا تناقص تأييد التوكوجاوا ٠ وفى عام ١٨٦٧ سلموا السلطة رسميا الى حكومة الامبراطور ، وسيطرت القوى الجديدة على الحكومة يتزعمها الساموراى الأعلى مركزا ٠

الا أن القادة الجدد لم يجعلوا من الامبراطور السلطة السياسية العليا ، ولكنهم أحدثوا تغييرات سياسية عظيمة ٠ لقد حطموا صرح القوى السياسية المحلية ، التى لم يجرؤ زعيم وطنى سابق على المساس بها ٠ لقد صفوا « الداميو » والأراضى التى حكموها ، وأخذوا حصة الداميو من الدخل الزراعى وضموها الى ايراد الدولة ، مع تقديم المنح الحكومية الى الداميو والساموراى٠ لقد أزالوا كل العوائق المحلية فى طريق التجارة ٠ ثم اضطروا الداميو والساموراى الآخرين الى النزول الى العمل عن طريق تخفيض منحهم ٠ وفى خلال ست سنوات بدأ القادة الحكوميون الجدد برنامجا ضخما لتشجيع الحكومة للمشروعات الصناعية والمالية الجديدة وتيسير المواصلات ٠ ولم يكن مشروع اقتصادى كبير ليظهر الا بمساعدة الحكومة ٠ وظهر المشروع الخاص أيضا فى مجالات هامة وا كانت غير براقة ٠ واتسع مجرى التغيير الفنى وازداد

عمقا ، وبدأت بذلك اليابان فترة رائعة من التقدم الاقتصادى استمرت حتى العصر الحاضر ٠

★ ★ ★

ان التاريخ البالغ الاختصار الذى قدمناه هنـــا يعطينا الجواب عـــلى السؤال : لماذا بدأ النمو الاقتصادى السريع فى اليابان قبل أية دولة غـــير أوروبية أخرى فيما عدا روسيا ؟ أرى أن الجواب يقع فى اختلافين تاريخيين هامين بين اليابان والمجتمعات غير الأوروبية الأخرى ٠ أولا لم تتعرض اليابان للآثار السيئة للتسلط الاستعمارى ٠ ثم أدى تكرار العملية المستمرة طويلا لسحب الوضع المنتظر من مجموعات هامة فى المجتمع اليـــابانى ، الى دفعهم للانهزامية التى أخرجتهم عن القيم التقليدية وزادت فى نفوسهم روح الابتكار الخلاق ٠ ولما بدت لهم الوسائل الأخرى لاسترداد اثبات الذات غير متوافرة ، توجهوا الى التقدم التكنولوجى ٠

الفصل الحادي عشر

التحول فى كولومبيا

فى كولومبيا ، ثالث أكبر دولة فى أمريكا الجنوبيـــة ، بدأ الانتـــاج الصناعى فى التزايد بسرعة فى أوائل القرن الحاضر · لقد كان التزايد من الكبر بحيث أصبح متوسط الانتـــاج القومى للفرد فى عام ١٩٥٧ ضعف ما كان عليه فى منتصف العشرينات ، أى منذ نحو ٣٠ سنة ·

لقد حدث هذا النمو الاقتصادى فى دولة تتألف من ثلاث مناطق منعزلة عن العالم الخارجى وعن بعضها البعض بسلاسل جبـــال شاهقة ، وبأرض استوائية منخفضة وشديدة الحرارة · وهكذا كان هذا المكان هو الأبعد عن أن يكون مناسبا فى أمريكا · ولهذا فان التقدم الاقتصادى لكولومبيا يعـــد خارقا ·· فلماذا حدث ؟

الوضـــع

الأرض والناس

تقع كولومبيا فى أقصى الشمال الغربى لأمريكا الجنوبيـــة · ويعترض شريطها الساحلى قطاع « الاسموث » الضيق من أرض بناما · وفى النصف الغربى من الدولة توجد ثلاثة من سلاسل جبال الانديس ، وهى التى تسمى بجبال الكورديليراس الغربيـــة والوسطى والشرقية ، الممتدة شـــمالا من الاكوادور · وتبعد الجبـــال الوسطى والغربية نحـــو ١٥٠ ميلا عن المحيط الأطلنطى ، ولكن سلسلة الجبال الشرقية تمتد الى المحيط وبين الجبال الوسطى والشرقية يجرى نهر الماجدالينا بطول الدولة الى المحيط الأطلنطى · بينمـــا يجرى نهر كاوكا جنوبا عبر الوادى الواقع غرب الجبال الوسطى ليلتقى بنهر الماجدالينا على بعد نحو ١٢٥ ميلا من المحيط ·

وفى الكورديليرا الشرقية توجد هضبة مرتفعة تسمى « السابانا » على بعد ٤٠٠ ميل جنوبا من المحيط الأطلنطى · وعليها تقع العاصمة « باجوتا » على ارتفاع ٨٥٠٠ قدم فوق سطح البحر والمدينتان الأخرتان الهامتان تقعان

فى وادى الكاوكا ، وهما « كالى » على بعد ١٥٠ ميلا جنوب غربى بوجوتا ، و « ميديلين » على بعد ١٥٠ ميلا الى الشمال الغربى . وبهـــذا تكون المدن الثلاث مثلثا متساوى الأضلاع . وتسمى المنطقة حول كالى بوادى الكاوكا ، أو ببساطة « الوادى » ، والمنطقة حول ميديلين بانتيوكيا ، وبين المنطقتين ، توجد تلال وجبال أقل شدة من الكورديليراس تخترق وادى الكاوكا وتكون عائقا شديدا للسفر الى الشمال والجنوب .

ولقد نمت المدن الثـــلاث نموا سريعا خلال القرن المـاضى . ففى عام ١٩٦٠ كان سكان بوجوتا وضواحيها المتعددة مليون أو أكثر ، بينما كان عدد سكان كل من ميديلين وكالى بنحو نصف المليون . والمدينة الرابعة فى الحجم هى « بارانكويلا » عند مصب نهر الماجدالينـــا ، وهى أصغر قليلا . وبين بارانكويلا والمدن الأخرى توجد منطقة الأراضى المنخفضة المليئة بالمستنقعات والشديدة الحرارة فى حوض الماجدالينا الأدنى ، ثم تليها منطقة الجبال . وانه لمن الصعب أن نبرز كيف كانت باجوتا وميديلين وكالى منعزلة عن العالم وعن بعضها البعض الى أن استخدمت الطائرات ومهدت الطرق الجيدة على سـفوح الجبال لتجعل من الميسور اختراقها فى عام ١٩٢٠ . وحتى بعد عام ١٩٠٠ كان كل رطل من المواد يؤتى به لأى من المدن الثـــلاث يحمـــل على ظهور الحيوانات أو الرجال . ولم تكن العربات لتستطيع اختراق ممرات الجبال . وفيما عدا حفنة من المهاجرين غير الأسبان يتألف الكولمبيون من الأســـبان والهنود الوطنيين والزنوج .

ودين الدولة الرسمى هو الكاثوليكية الرومانيـــة ، ولو أنه يوجد فى بعض القرى رهبان أو عبدة آلهة وثنية وأرواح . كما توجد قلة من المسيحيين غير الكاثوليك ، وجلهم من الأجانب .

الخلفية التاريخية

لقد نزل الأسبان أول ما نزلوا على ساحل الأطلنطى فى المنطقة المعروفة الآن بكولومبيا ، فى عام ١٥٠٠ . وفى الفترة بـين عامى ١٥٣٠ و١٥٤٠ اكتشفوا مناطق السابانا والوادى والانتيوكيا ، وقهروا القبائل الهندية فى كل منها وأقاموا مستوطنات أسبانية . وكانوا يبحثون عن الذهب والفضة فى كل من المناطق الثلاث . وهنا وهناك فى مختلف أنحاء كولومبيا وجدوا مستودعات للذهب والفضة القليل منها متوسط الحجم ، ولكنهم لم يجدوا شيئا فى السابانا والوادى . ورغم هذا أقاموا فيهما نظرا لخصوبة الأرض وجمال البيئة .

وبمقتضى المراسيم التى أصدرها ملك أسبانيا خول لكل فاتح أن يحتل مساحة من الأرض ، وأن يستعين بعدد من الهنود تحت امرته ، وله أن يكلفهم بالعمل • وفى مقابل هذا كان يطالب بأن يكفل لهم الرعاية المادية ، ويخلع عليهم نعمة المسيحية • الا أن الأراضى أصبحت ملكا للعائلات الأسبانية ، كما تحول الهنود فى الواقع الى عبيد • وكانت الأراضى الممنوحة فى السابانا كبيرة ، وكان الهنود مسالمين ومهرة فى الزراعة ، ولهذا سرعان ما تحول الفاتحون الأسبان الى ملاك نبلاء ، الى قوم لهم مركزهم الاجتماعى • وحدث نفس التطور فى الوادى ، فيما عدا أن الأرض كانت أقل صلاحية للزراعة ومن ثم تخصص المستوطنون فى تربية الماشية • أما فى انتيوكيا فكانت الأرض فقيرة جدا ، وما كانت لتصلح لزراعة مربحة أو لتربية ماشية • ولكن يوجد بها عدد من المستودعات الصغيرة للذهب والفضة وتركز الاهتمام أكثر منه فى أية جهات أخرى على جمع الثروة من مناجم الذهب • كما كان الهنود فى انتيوكيا جماعين وليسوا بمزارعين ، ولم يتعلموا كيف يزرعون جيدا •

ولمدة نحو الخمسين سنة غلت ثلاث مناطق فى انتيوكيا ثروات محسوسة من الذهب ، ولكن كان استخراجه يتطلب تشغيل الكثير من الأيدى الرخيصة ، حيث كانت وسائل الاستخراج بدائية ومأخوذة عن الهنود • ولم يلبث استخراج الذهب أن تدهور عن قمته اعتبارا من عام ١٦٣٠ بسبب استنزاف الصخور الغنية بالذهب وعرض العمل • وخلال المدة من منتصف القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر استمرت مناجم الذهب تعمل عند مستوى الكفاف • وتزايد عدد أحفاد الفاتحين ، الذين أسموا أنفسهم بالأسبان ، العاملين فى المناجم فى تكسير الصخور بالمطارق وفرز مسحوق الصخر أو الرمل بالأيدى • وكانت أكثر جماعات المنطقة رخاءا بعد بداية القرن السابع عشر فى ميديلين وريو نيجرو ، التى لم تستفد من المناجم فقط بل بتجارة تزويد العاملين فى المناجم باحتياجاتهم •

ولقد سار اشراف أسبانيا على مستعمراتها فى الدنيا الجديدة على النمط الاستعمارى المعتاد • ولم يكن ليسمح بالتجارة الا مع الدولة الأم ، وفرضت الضرائب على كل من المبيعات والمشتريات على نحو أثقل كاهل المنتجين فى المستعمرة •

ومن الناحية السياسية ، كانت السيطرة الأسبانية كاملة على حكومات الوطن والمستعمرات • ولم يكن للمستعمرين تمثيل فى أسبانيا ولا سلطة فى ادارة المستعمرة • هذا فضلا عن أنهم حرموا من الحق الكامل للتملك ومن

حرية الانتقال اللذين يتمتع بهمـــا المواطن الأسبانى وكانوا يعتبرون من الناحية الاجتماعية فى مرتبة أدنى ٠ ولقد ضاق المستعمرون بمركزهم هـذا الأقل شأنا من الناحيتين الاجتماعية والسياسية ٠ وهم اذ ينتمون إلى الدم الأسبانى ، فقد نظروا الى الأشخاص من ذوى الدم المختلط « المستيزوس » كرجال ملونين ٠

وفى عام ١٨١٠ ثار المستعمرون الذين يجرى فى عرقهم الدم الأسبانى فى منطقة السابانا وطالبوا بالاصلاح والحكم الذاتى ٠ ولكن القوات الأسبانية هزمتهم ، ومع ذلك تمسكوا بمطالبهم وتحت قيـادة الجنرال الفـانزويلى « سيمون بوليفار » والثوار ظفرت الأراضى المستعمرة بالاسـتقلال وأصبحت جمهورية مستقلة فى عام ١٨١٩ ٠

التغيير الاقتصادى : السجل التاريخى

التوسع التدريجى فى التجارة والصناعة

لم يسجل خلال القرن الثامن عشر سوى القليل من التغيير الاقتصادى٠ وفى خلال القرن التاسع عشر ، وبعد الاستقلال بوجـه خاص أصبح التغيير الاقتصادى ملحوظا بعض الشىء ٠ لقد ازداد انتاج السكر البنى غير المكرر ٠ وأهم من ذلك امتدت زراعة البن الى انتيوكيا ، بعد أن بدأت فى الأيام الأولى للدولة فى الأودية القريبة من فنزويلا ٠ ثم امتدت بعـد ذلك الى السفوح والمنحدرات على حافة السابانا ، وأخيرا الى منطقة الـكالداس ، وهى داخلة فى منطقة الوادى ولكن يقطنها الانتيوكونين ٠ ولقد أصبحت أكبر صناعـة فى الدولة وبعد عام ١٨٨٠ ازدادت زراعة البن بسرعة فى انتيوكيا وكالداس٠ وفى القرن التاسع عشر نشأت بالتدريج صناعات جديدة ، أسهمت فى زيادة متوسط دخل الفرد ٠ ولكن فى أوائل القرن أضيرت صـناعة النسيج فى منطقة السابانا من استيراد الألياف ، ولكن حدث انتعاش فى صناعات السلع الاستهلاكية خلال الفترة ١٨٣٠ ــ ١٨٦٠ ٠ وخلال العشر أو العشرين سنة التالية أدخلت صناعة الخزف وبعض صـناعات النسيج ٠ وأقيمت مطاحن القمح المدارة بالبخار ٠ كما أدخلت الانارة بالغاز فى بوجوتا عام ١٨٧٠ ٠

وفى نفس الوقت بدأت تظهر الصناعات الثقيلة أيضا ٠ فقد أدخلت تحسينات على مناجم الحديد بعد عام ١٨١٠ فى ثلاث من مناطق التعدين ٠ وبعد عام ١٩٣٠ أنشىء فرن لتنقية خام الحديد من الشوائب ٠ وفى نفس

الوقت بدأت صناعة الكيماويات . وكان أول مصرف تجارى فى كولومبيا فرعا لبنك انجليزى أنشىء فى بوجوتا عام ١٨٦٣ . وبعد عام أو اثنين أنشىء أول بنك يملكه الكولومبيون وهو بانكو دى بوجوتا . وحققت صناعة الحديد مزيدا من التقدم بعد عام ١٨٧٥ . وبلغ التقدم الصناعى فى السابانا شوطا كبيرا فى نهـــاية القرن التاسع عشر ، وأقيم فى بوجوتا معرض صـــناعى للاحتفال بذلك التقدم عام ١٨٩٩ .

وكان التقدم الصناعى فى السابانا أعظم منه فى أية منطقة أخرى خلال القرن التاسع عشر .. وفى الطرف الآخر كان التصنيع ضئيلا فى منطقـــة الوادى التى اعتمد اقتصادها على الزراعة وتربية الماشية وصناعة السكر ثم صناعة البن . وفى انتوكيا ، كانت أهم الصناعات فى أوائل القرن التاسع عشر هي صناعة البيرة والقبعات ، بالاضافة الى الزراعة والمنـــاجم . وفى النصف الثانى من ذلك القرن حدث نمو اقتصادى كبير ، ولو أنه بدأ متأخرا عن النمو الاقتصادى فى السابانا . ففى عام ١٨٦٠ أنشئت مصـــانع حديثة للبيرة ، فضلا عن بعض المصانع الصغيرة للسلع الاستهلاكية . وتلتها مصانع أخرى كثيرة خلال السبعينات والثمانينات ، فى صناعة النسيج على الأخص. وتطورت صناعة الحديد الى انتاج بعض الآلات الزراعية والتعدينية البسيطة قرب نهاية القرن التاسع عشر ، وعلى الأخص الآلات المستخدمة فى صناعـــة البن . هذا عدا صناعات أخرى دعمت الاتجـــاه الى التصنيع خـــلال القرن أو الخمسين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وربما قبل ذلك أيضا .

تقدم المواصلات ووسائل النقل

كانت وسائل المواصلات أقرب الى البدائية خلال فترة النمو الاقتصادى التدريجى . فقبل عام ١٩٥٠ كانت الحيوانات تستخدم فى النقـــل باستثناء المناطق المحيطة بالمدن مباشرة . وكانت الاشياء الثقيلة أو الكبيرة التي يتعذر حملها على البغال ، تحمل على ألواح توضع على ظهور البغال أو الادميين . والأشياء الثقيلة جدا كانت تجر بالحبال الى أعالى الجبال . وهكذا كانت تحمل شحنات البن والسكر والآلات ، بل حتى القاطرات الأولى ، وكـل شىء كان يحمل على الألواح الى الأنهار ومنها . كما تأخر انشاء الطرق والممرات الممهدة والمعبدة . فأول طريق للبغال من كالى على جبـــال كورديليرا صوب المحيط الهادى لم يتم انشاؤه الا فى عام ١٨٦٦ . ثم بدأ ادخال السكك الحـديدية فى السبعينات . ففى الفترة ١٨٧٢ ـ ١٨٨٠ أقيمت ثمانية خطوط جديدة تمتد بضعة أميال قليلة فى اتجـــاه أو آخر من المدن الكبرى أو واصلة بين

شاطئ نهر ماجدالينا وبعض المدن . وفى عام ١٨٩٠ فشلت ماليا أربعة من مشروعات السكك الحديدية وتوقفت عن العمل . ومع هـــذا كانت الخطوط الحديدية الأولى فى السابانا وانتيوكيا ، لنقل البضائع بين الماجدالينا وهذه المنطقة أو تلك ، ناجحة اقتصاديا . ولم تتقدم زراعة البن وتنمو فى انتيوكيا وكالداس الا بعد أن أصبح النقل بالسكك الحديدية واللوريات الى الماجدالينا ممكنا .

ولم يكن لمدينة ميديلين أية وسيلة حديثة للانتقال الا بعد انشاء الخط الحديدى عام ١٩٠٩ . ولم ترتبط بنهر الماجدالينا مباشرة الا بعد اتمام النفق عام ١٩٢٩ . وحتى عام ١٩٣٠ لم يكن هناك طريق على جبـــال الكورديليرا الوسطى تمر عليه السيارات الداخلة الى انتيوكيا والخارجة منها الى الشرق والجنوب . وحتى عام ١٩٥٨ لم يكن هناك خط حديدى مباشر بين ميديلين وبوجوتا .

وكالى أيضا كانت مغلقة فى الجبال ، الى أن أنشئ الخط الحديدى من « بوينا فينتورا » على المحيط الهادى الى كالى عبر جبال الكورديليرا الغربيـة عام ١٩١٤ . وفى عام ١٩٢٨ تم انشاء طريق للسيارات بين كالى وبوجوتا ، وتم انشاء طريق آخر من كالى الى ميديلين عام ١٩٤٠ أو ١٩٤١ . وآخر حلقة سكك حديد تصل بين كالى وميديلين أنجزت عام ١٩٤٢ . وحتى اليـــوم لا يوجد خط حديدى يخترق الجبال بين كالى وبوجوتا . وقد أنجز الطريق الجبلى بين كالى وبوجوتا عام ١٩٢٨ . ولكن حتى الآن يتم النقـــل بالسكك الحديدية واللوريات معا لأنه الأرخص بالنسبة للبضائع الثقيلة ، حيث تنقل البضائع بالسكك الحديدية الى مدينة ارمانيا فى الشمال الشرقى ، ومنها الى كورديليرا باللوريات ، ثم من كورديليرا الى بوجوتا بالسكك الحديدية .

القرن العشرون

بدأت الصناعات الثقيلة فى التوسع بعـــد عام ١٩٠٠ فى وقت كانت لا تزال وسائل النقل والمواصلات فيه بدائية . لقد بدأ أول معمل حديث لتكرير السكر فى الانتاج عام ١٩٠١ فى منطقة الوادى ، وبدأت أول مصانع نسيج حديثة عام ١٩٠٦ فى انتيوكيا ، وأول مصـــنع كبـير للأسمنت فى السابانا عام ١٩٠٩ . ثم ظهرت مصانع أخرى الواحد بعد الآخر . وزادت المصانع التعدينية انتاجها ، وازدادت أهمية صـــناعة آلات التعدين والآلات الزراعية البسيطة . وأنشئت مصانع للزجاج . وتعددت وانتعشت صناعات

الطاقة والكهرباء · وأصبح النظام قادرا علــى اقامة منشآت أكبر فأكبر ، وأكثر فأكثر ·

ونقصت الأهمية النسبية للزراعة ، على الرغم من زيادة حجم الانتـاج الزراعى ، وازدادت أهمية الصناعات الصغيرة بسرعة واطراد ·

لقد كان النمو الصناعى مطردا فى العشرينات · واذا كان قـد هبط فى عامى ١٩٣٠ و ١٩٣١ ، بسبب نقص الواردات نتيجة لقلة العملات الحرة ، الا أن رجال الأعمال الكولومبيين اكتسبوا مهارة فنية كافية بحيث استطاعوا بعد هذين العامين أن يعوضوا النقص فى الواردات ، الذى لم يعد عقبة بل أصبح مشجعا على استمرار النمو الصناعى ·

ومنذ قيام الحرب العالمية الثانية امتد التصنيع داخل الزراعة · فقـد أقام رجال الأعمال الكولومبيون مصانع كبـيرة للأرز وبعض المحصـولات الاستوائية الأخرى ، واللحوم فى المناطق الحارة التى ترتفع قليلا عن سطح البحر والممتدة من المنطقة الوسطى لماجدالينا بين ميديلين والمحيط الأطلنطى · ولا تزال هناك مساحات واسعة غير مستغلة وما زال جاريا تعبيد واستصلاح منطقة الأراضى المنخفضة الحارة والمستنقعات · وان التنمية فى هـذا القطاع من الاقتصاد الكولومبى لا تقل أهمية عن مواصلة التوسع الصناعى · وقد أصبح التقدم التكنولوجى اليوم عميق الجذور فى نماذج السلوك الكولومبية حتى ليمكن الجزم بأن النمو الاقتصادى سوف يستمر بلا نهاية ·

لـماذا بدأ النمو ؟

ليس للأسباب الاقتصادية التقليدية

ان شيئا واحدا جد واضح : ان النمو الاقتصادى فى كولومبيا لم يبدأ لأسباب اقتصادية يصطلح عادة على أنها تسبب مثل هذا النمو ·

ان الشركات الأجنبيـة أو الأفراد الأجانب لم يكونوا هم الذين كفلوا رأس المال اللازم لبدءه · وكان الاستثمار الأجنبى ضئيلا فى كولومبيا حتى نشوب الحرب العالمية الثانية · وعموما لم يبدأ رأس المال الأجنبى فى التدفق الى كولومبيا الا بعد أن توطد النمو الاقتصادى واجتذبت الأسواق المتوسعة المشروعات الأجنبية ·

لم تكن صلة كولومبيا بالسلع والتكنولوجيا الأجنبية أقوى منهـا فى دول أخرى كان النمو الاقتصادى فيها متأخرا أو بطيئا فى البـداية . بل بالعكس كان النفاذ الى السابانا والوادى وانتيوكيا ، وهى المنـاطق التى تركز فيها النمو ، بالغ الصعوبة حتى بداية القرن العشرين ، كمـا سبق بيانه . هذا فضلا عن أن مهد النمو كان فى انتيوكيا ، وهى التى كانت فرص اتصالهـا بأوربا وبالدول الأخرى فى أمريكا أقل من فرص بوجوتا عاصمة كولومبيا .

ان النمو لم ينتظر تحسن المواصلات والتيسيرات الأخرى التى من شأنها ايجاد السوق الوطنية التى تتخذ قاعدة للتقدم . فلقد سبق أن وصفنا حالة المواصلات البدائية جدا التى كانت قائمة قبل بدء وانطلاق النمو . لقـد تقدمت وسائل النقل والمواصلات ومصادر القوى جميعا بالاستجابة للمتطلبات التى نشأت عن نمو الانتاج ، ولم يعنى بها مسبقا كخطوات تمهيدية لارساء قاعدة النمو . لقد كان انتاج السلع الصناعية حتى نحو عام ١٩١٠ لغرض الأسواق المحلية الصغيرة ، وليس للسوق الوطنية . ومن المحتمل أن تكون الحماية التى كفلها سوء المواصلات هى التى شجعت التصنيع المبكـر ولم تعرقله . حتى اليوم ما زال انتاج الاسمنت ومنتجات الصلب والمنتجات الثقيلة قاصرا على الأسواق الاقليمية المحدودة بنفقات النقل .

وهكذا بدأ التقدم على الرغم من الحواجز الاقتصادية التى كانت قائمة ، ولم يبدأ بازالتها .

الانتيوكوينوس :

يبدو أن الجواب على سؤال « لماذا بدأ النمو » هو : بسبب روح المبادرة الاقتصادية عند الانتيوكوينوس .

ان الكولمبيين ليقرون بأن جميع المشروعات الصناعية الهامة فى الدولة هى حقيقة تحت ادارة الانتيوكوينوس . « واذا لم يكونوا قد أنشأوها ، فهم الآن يملكونها » كما يقال . وليس هذا بالصحيح تماما لأن ثمة رجال أعمال قادرين وفعالين ظهروا فى كل منطقة من مناطق الدولة . ولو أن العدد الكبير من الانتيوكوينوس منهم يلفت النظر .

لقد حصلت من نتائج التعداد الصناعى لعام ١٩٥٦ على قوائم بجميع المشروعات الخاصة غير المالية التى تستخدم أكثر من ١٠٠ عامل فى « كوندينا

ماراكا » وفى « انتيوكيا » وفى « الوادى » • وسألت الأشخاص الثقاة أن يحددوا لى مؤسسى هذه المشروعات ، من حيث الجنسية ، واذا كانوا كولومبيين من حيث منطقة الأصل •

فمن بين ال ١٤٨ منشأة التى جمع عنها البيان ، اتضح ان ١١٠ منشأة أى نحو الثلاثة أرباع قد أنشأها رجال نعتوا بلقب « كولومبيون قدماء » • ومن بين هؤلاء ال ١١٠ قيل أن ٧٥ منشأة قد أنشئت بواسطة الانتيوكوينوس أى بنسبة ٦٨٪ وفى عام ١٩٠٥ ، وهو عام مناسب لهذه المقارنة ، كان مجموع الانتيوكوينوس ٤٠٪ من جملة السكان فى مناطق كونديناماراكا وانتيوكيا والوادى الثلاث • ومع هذا قدمت هذه ال ٤٠٪ أكثر من ثلثى رجال الأعمال فى الشركات الكبرى ، بينما قدمت ال ٦٠٪ الباقية أقل من الثلث منهم • أى أنه طبقا لنسب السكان يكون احتمال أن يصبح الانتيوكوينوس أصحاب أعمال ثلاثة أمثال هذا الاحتمال بين الكولومبيين القدماء من غير الانتيوكوينوس •

وهذا يعنى أنه اذا كانت هناك ثمة عوامل مؤثرة وجدت فى انتيوكيا ، ولم توجد فى المناطق الأخرى ، أوجدت فيها ولكنها كانت جد ضعيفة ، سيما وأن أنتيوكيا كانت أفقر مناطق كولومبيا حتى وقت ما فى القرن التاسع عشر • فلماذا تفجر النشاط الخلاق فى ميدان الأعمال والتكنولوجيا بواسطة سكان منطقة واحدة بعينها ؟

لماذا الانتيوكوينوس ؟

ليس بسبب المزايا الاقتصادية :

ان السبب لا يرجع الى اتساع السوق ، والمنفذ الى المعرفة الفنية فى الخارج ، والموارد الطبيعية الأحسن ، ورؤوس الأموال الوفيرة • وبالنسبة للاثنين الأولين من هذه النقاط الأربعة ، تتمتع السابانا بهما كميزة خاصة ، فضلا عن أثرهما الايجابى على النقطتين الأخرتين أيضا • لقد كان سكان السابانا فى كل من العهد الاستعمارى والقرن التاسع عشر أكبر عددا من سكان انتيوكيا • وأراضى السابانا أجود أراضى كولومبيا وكانت زراعتها الأكثر رخاء خلال الفترة الاستعمارية ، وتليها فى ذلك منطقة الوادى والمنطقة الواقعة فى جنوبها • ولابد أن متوسط الدخل كان أعلى فى كليهما منه فى انتيوكيا • وكانت السوق المتوافرة للسابانا الأكبر بكثير فى كولومبيا ، وهو سبب كان يكفى للنمو الصناعى هنالك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر • هذا فضلا عن أن بوجوتا كانت نقطة الاتصال الرئيسية بأوروبا والعالم

الخارجى عموما خلال القرن التاسع عشر · وقبل الاستقلال كانت أهم موقع ادارى · وبعد الاستقلال اصبحت عاصمة الدولة · لقد كان الدبلوماسيون الأجانب وممثلو العلوم والآداب الذين زاروا كولومبيا ، ورجال الأعمـــال الذين يسعون للاتجار ، يأتون أول ما يأتون الى بوجوتا · وحتى أواخر القرن التاسع عشر ، وأسهمت فى زيادة متوسط دخل الفرد باطراد خلال الأربعين التاسع عشر كانت العائلات فى سابانا أكثر منها فى أى مكان آخر ثروة واهتماما بالحضارة والعالم الخارجى ، فأكثرت من ايفاد أبنائها وبناتها الى الخارج · وكانت منطقة الوادى بحكم اتصالها ببيروا واكوادور تحظى بخطوط مواصلات أكثر الى العالم الخارجى · لقد كانت انتيوكيا هى الأكثر عزلة ·

ولقد كان المورد الطبيعى الوحيد الممكن ملاحظته فى انتيوكيا بالاضافة الى الذهب هو كثرة المساقط المائية الصغيرة · وقد يسرت هذه المساقط اقامة عدد من مصانع النسيج فى المواقع المناسبة فى أوائل القرن ، ولكنها لم تعد ذات أهمية بعد تطور صناعة النسيج · ان المساقط المائية توجد وبحجم أكبر على حافة السابانا ·

الشخصية المبتكرة الخلاقة

والنتيجة التى نستخلصها هى أن الفرق بين الانتيوكوينوس والآخرين انما هو فى نوع الناس وليس فى الظروف الخارجيـــة · وبمجرد التفكير فى هذا الاحتمال تظهر لنا الأدلة المقنعة · فالفروق تبـــدو أولا فى الاختبارات النفسية التى شارك فيها عدد من قادة المجتمع ورجال الأعمال الكولومبيين · فلقد ثبت أن المبتكرين أو المجددين الاقتصاديين الناجحين من أهل انتيوكيا عام ١٩٥٧ كانوا مختلفين فى بنيان شخصيتهم عن مجموعة من قادة المجتمع البارزين فى المناطق الأخرى من كولومبيا ، والذين تمت مقابلات معهم وكانوا محلا للدراسة ، حتى ليمكن اعتبار الانتيوكوينوس من عنصر مختلف من الرجال ·

لقد كان القادة الذين تناولتهم الدراسة فى انتيوكيا مجموعة من نحو عشرين رجل أعمال فى « ميديلين » الذين تفوقوا كمبتكرين ورجال أعمال منفذين · ولم يكونوا جميعا من أغنى الرجال فى المجتمع ، حيث بدأ بعضهم حياته فقيرا ولم يكون سوى قدرا معقولا من الثروة · أما المجمـــوعة المتباينة فتتألف من بعض قادة المجتمع فى « بوبايان » وهى مدينة كانت مركزا حضاريا وسياسيا فى عهد الاستعمار والقرن التاسع عشر ، وهى تعيش الآن فى الماضى ·

وكانت الاختبارات مكونة من عرض مجموعات من الصور البسيطة على كل فرد - صور لشاب ولرجل مسن ، وأخرى لفتاة وامرأة ، وأخرى لمجموعة من الرجال حول منضدة ، وهكذا .. وبالنسبة لكل صورة طلب من كل فرد أن يتصور ويعبر عما تصوره بشأن الموقف أو الحالة فى المنظر المصور ، وماذا أوجده ، وفيم كان يفكر الأشخاص الموجودين فى الصورة وما هى مشاعرهم وماذا يمكن أن ينجم عن الموقف . وبهذا يعطى الشخص محل الاختبار فكرة عن تصرفاته هو تجاه الحياة ، حيث أنه لا ينتظر أن تأتى فى ذهنه تفسيرات حاضرة أو سريعة للصور غير تلك التى تنبثق عن آراءه الخاصة فى الحياة .

وقد دلت استجابات مبتكرى ميديلين والانتيوكوينوس على الآتى : (١) رأوا فى الموقف مشكلة تتطلب الحل ، (٢) رأوا أن المشكلة يجب أن تعالج اذا أريد لها أن تحل ، (٣) كانوا واثقين من قدرتهم على حل المشكلة ، وان كانت تثير التوتر والقلق أحيانا ، (٤) لم ينظروا الى الأفراد فى الصور كنماذج وانما كأفراد . وهكذا وجد لديهم احساس دقيق بحقائق الموقف ، وتبين انهم يرون من الممكن تنظيم الحياة بالاعتماد على الحكم الصائب والعمل الدائب .

لقد ربط قادة بوبويان بين الصورة وشيء ما من الآداب والفنون ، وفلسفوا أساليب الشباب ، وتضاربوا بشأن مجرى التاريخ ، ولكنهم فيما يبدو لم يتصوروا أية مشاكل فى المواقف المصورة . أو اذا رأوا مشاكل فكروا فى صيغ حل مثل « الرجل المسن يعرف أفضل . يجب عليه أن يستمع لوالده » أو يتصورون النجاح بدون أى ايحاء بأنه يتطلب الجهد والألم . وكثيرا ما كانوا يعطون الانطباع بأنهم يفرون هربا من احتمال مجابهتهم لمشكلة ، لكأن التفكير فى ذلك يضايقهم . لقد وجدوا من الأسهل أن يتحولوا الى الخيال والأحلام التى لا ترتبط ارتباطا وثيقا بالحقيقة . لقد نظروا الى العالم كشيء لا يمكن ادارته ، والى مركز الانسان كقدر كتب له .

لقد كان هناك مدى من التوافق داخل كل مجموعة بالنسبة لمختلف العناصر ، ولكن الفروق بين المجموعات كانت بارزة .

وجدير بالذكر ان ما صورته الدراسة ليس اختلافا فى الشخصية بين جميع الانتيوكوينوس وبين الكولمبيين الآخرين جميعا . فلقد كانت هناك بلا شك أفراد مبتكرون أو خلاقون أعملوا مواهبهم فى مشاكل التكنولوجيا والمجالات الأخرى ، فى كل منطقة من مناطق كولومبيا . وكل ما يمكن قوله هو أن الأشخاص المبتكرين يوجدون بين الانتيوكوينوس بنسبة أكبر منهم

في المنـاطق الأخرى ، وهذا سبب هام لنجاح الانتيوكوينوس العظيم كرجال أعمال ·

وجنبا لجنب مع روح الابتكار الخلاق وجد الاتجاه الى أن كل رجل ذى شأن يمكنه الدخول فى مجال الأعمال والنجاح فيه · لقـد ذكر أحد الرجال الانتيوكونيين البارزين أنه اشتغل موظفا ، عقب تخرجه عام ١٩٣٠ ، فى منشأة كبيرة ، فنظر الى مجرد قبوله العمـل كمستخدم مأجور كشىء غير عادى أو غير لائق ·

ويحتمل أيضا وجود تباين اقليمى فيما يختص باداء العمل المنخفض الأجر كبداية · لقد أخبرنى رئيس مشروع كبير له عملياته فى أربعة مراكز فى كولومبيا أن الوقت اللازم لتعلم العمل المكتبى والمحاسبى أقصر فى انتيوكيا منه فى أجزاء الدولة الأخرى ·

وأخيرا هناك اعتقاد بأن العمل الفعال فريضة اجتماعية · وهناك اعتقاد بين الانتيوكوينيين بأن الرجل الذى يفشل فى استثمار ماله فى عمل منتج هو رجل تعوزه الصفات الطيبة وعاجز عن أداء واجبه قبل الجماعة · أو كما يقول الانتيوكوينيون « انه لا يستخدم بلطته ولا يعيرها ! » ·

وأما وقد أكدنا وجود مثل هذه الاختلافات فى الشخصية ، بقى أن نحاول الاهتداء الى سبب وجودها · اذا كان هناك اختلاف فى الشخصية ، فما هو مصدره ·

اختلاف الأجناس والجماعات :

كان هناك ثمة اعتقاد سائد بأن السبب فى اختلاف الشخصية انما يرجع الى الدم اليهودى · وهذا الاعتقاد بنى على أسطورة كون المهاجرين الى أنتيوكيا كانوا من اليهود الأسبان الذين زوروا مستنداتهم وادعوا الدم المسيحى لكى يسمح لهم بالهجرة · فرجال الأعمال فى بوجوتا يفاخرون بكاثوليكيتهم وينظرون نظرة أدنى الى منافسيهم الأقوياء من انتيوكيا كمسيحيين جدد · ولكن التاريخ يؤكد عدم صحة هذه الأسطورة ، فلم تجد المحاكم الدينية التى كانت تلاحق الزنادقة والمحاربين للكنيسة يهودا فى انتيوكيا ·

ومما يفسر نجاح رجال الأعمال الانتيوكيونيين أيضـا أنهم من سلالة الباسكاس ، من رجال الجبال الأشداء فى أسبانيا · فالباسكاس كأفـراد

يتميزون بقوة الخلق ، وصهرهم الفقر ، لهم من القدرات ما يكفل لهم النجاح فى مجال الأعمال • هذا فضلا عن أنه يعتقد أن الباسكاس انما هاجروا الى انتيوكيا لأن طبيعتها تشبه تماما طبيعة بلادهم الجبلية فى أسبانيا •

والاحتمال قوى فى أن عدد المنحدرين من سلالة الباسكاس أكبر فى انتيوكيا منه فى مناطق كولومبيا الأخرى • ولكن الفرق ، ان وجد ، ليس كبيرا • ان الفرق بين أهل انتيوكيا وأهل المناطق الأخرى فى كولومبيا هو من الكبر بحيث لا يجوز تفسيره بسلالة الباسكاس ، ان هناك عوامل أخرى هامة •

تجربة التعدين كسبب :

من المحتمل أن تكون مهنة الانتيوكوينيين كعاملين فى المنــاجم هى التى هيأتهم ليكونوا رجال صناعة • ويبدو أن هذا صحيح الى حد ما • ففى النصف الأول من القرن السابع عشر كان الأسبانيون أنفسهم يعملون فى المناجم • واذا أخذنا عام ١٨٥٠ كتاريخ بداية عملية النمو الاقتصادى ، لأمكننا القول أن الانتيوكوينيين ظلوا لمدة ثلاثة قرون يديرون المناجم ، وأنهم عملوا فيهــا بأيديهم أنفسهم لمدة قرنين • لقد جاءالمغامرون الأسبان الى العالم الجديد ومعهم أحلامهم وآمالهم فى أن يصبحوا سادة الخلق وان يجمعوا الثروات ويصبحوا ملوكا رومانتيكيين فى أراضيهم أو ممالكهم الصغيرة • واذا كانت الأمور لم تجر كما كانوا يأملون تماما ، الا أن الكثيرين منهم حققوا أملهم فى السابانا والوادى • وهم اذا صمموا على تناسى ماضيهم المتواضع ، وضعوا أهمية خاصة للظهور بمظهر الطبقة العليا من ملاك الأراضى •

ولكنهم فى انتيوكيا اضطروا الى العمل بأيديهم من جديد ، العمل بأدوات وفى أعمال قذرة • ولعلهم فى أول الأمر قد استسلموا الى اللامبالاة ، ولكن بتعاقب ستة أو ثمانية أجيال ، شعروا بحاجتهم للاعتقاد فى قيمة العمل الذى أدوه وأداه جدودهم مختارين ، ولاثبات ذاتهم فيه ، فاعتقدوا فى قيمته •

ولقد نجم عن كثرة المخاطر فى عمل المناجم استحداث نظرة اجتماعية ذات أهمية • ان للروابط العائلية أهميتها البالغة عند الأسبان التقليديين ، والوحدة المنطقية للنشاط الاقتصادى هى العائلة •

الا أن المغامرة فى مشروع فردى للمناجم قد تذهب برأسمال العائلة كله وتتركها فى فقر مدقع • ولهذا ومراعاة للاعتبار الواجب للعائلة ، كأساس

للعلاقات العائلية فى الأماكن الأخرى ، اضـــطر الانتيوكوينيون الى تجزئة مخاطر مغامرات المناجم بين عدد من العائلات ٠

وفى الوقت الحـــاضر ، تملك العائلات عادة المنشآت أيا كان حجمها ، وحتى فى انتيوكيا وقلما يوجد فيها موظفون كبار لا تربطهم بها رابطة الدم ٠ ولكن هناك فى انتيوكيا من المنشآت التى لا تملكها عائلات ما هو أكثر منه فى الأجزاء الأخرى من كولومبيا ٠ ويمكن تفسير هذا بأن الانتيوكوينونيين يجزئون المخاطر فى مغامراتهم المنجمية ٠

ان رجل الأعمال المنفذ ، وهو ذلك الطراز من الرجال الذى يجرؤ على ارتياد آفاق جديدة ووسائل جديدة ، يجب أن يحسن تقدير المخاطر ٠ ولعل العمل فى مغامرات المناجم هو الذى أكسب الانتيوكوينونيين خبرة فى ركوب مخاطر الأعمال ٠ وأهم من ذلك أن تجربة المناجم هيـــأت للانتيوكوينونيين الالمام بالآلات والأعمال الميكانيكية ٠ وفضلا عن تقديرهم العالى لعملهم بأيديهم وبالآلات اكتسبوا من تجربة المناجم مهارة أكثر ، وثقة ، ودقة حكم عـــلى العمليات الميكانيكية ٠

ومع كل ، لما كانت المناجم توجد أيضا فى الأجزاء الأخرى من كولومبيا، فهذا يعنى انها بالتأكيد أحد أسباب الاختلاف ، ولكنها ليست بالمؤثر الفعال الرئيسى ٠

التجارة والتنمية الاقتصادية :

وثمة تفسير ممكن آخر، الا وهو الاختلافات الاقليميةوقت تدهورالتجارة على نطاق كبير فى كولومبيا فى أوائل القرن العشرين ٠ ففى باجوتا لجأت العائلات التى كونت ثروة كبيرة من التجارة الى أحد طريقين أو كلاهما ٠ لقد علموا أبناءهم ليمارسو المهن ٠ كما استثمروا أموالهم فى الأرض ، وسواء فعلوا ذلك أم لم يفعلوا ، دخلوا فى مجموعة الصفوة من الملاك ٠ ان المهن وحياة النبلاء كملاك أرض كانت أعلى المراكز الاجتماعية شأنا ، وقد آلت اليهم ٠

وفى كالى اتجهت هذه العائلات الى مهن منوعة ٠ بما فيها تربية وتجارة المواشى ، ولكن لم تجر محاولة لامتلاك وسيادة العزب كما حدث فى بوجوتا ٠

وفى انتيوكيا لم تكن هناك مراتع للماشية أو عزب من الأرض ٠ لم تكن هناك مجموعة من سادة الأرض لها هيبتها الاجتماعية كما كان الوضع حول

بوجوتا • كما لم يكن للمهن وضعا ممتازا فى المجتمع • وبهذا لم يكن أمام الانتيوكوينونيين الا أن يتجهوا الى الصناعة •

ولكن هذا التفسير ليس بكاف هو الآخر • انه يبين لماذا اتجه الكثيرون من الانتيوكوينونيين الى الصناعة ، ولكنه لا يفسر مهارتهم الفائقة فى مجال الأعمال ، ولا بصيرتهم الأعظم كرجال أعمال منفذين ، وقدرتهم الفائقة على التنظيم •

وعلينا أن نبحث عن سبب آخر لاختلاف الانتيوكوينونيين عن سواهم •

التوترات الاجتماعية :

هناك عامل مؤثر ، أقل وضوحا أو بداهة ، فى الشخصية فى انتيوكيا ، ولكنه يبدو أكثر أهمية من العوامل المؤثرة الأخرى التى سبق بحثها • هذا العامل المؤثر هو سحب وضع الاحترام من الانتيوكوينونيين لقد انحدر الانتيوكوينونيين مثل غيرهم من المستوطنين عن أجدادهم الأسبان • وفى أسبانيا كان وضعهم متكافئا مع وضع المهاجرين الى المناطق الأخرى ، واعتبروا أنسهم متساوين فى الأرض الجديدة • ولكن الكولومبيين فى المناطق الأخرى لم ينظروا اليهم كذلك •

لقد كان النمو الاقتصادى والتجارى بطيئا فى انتيوكيا خلال العهد الاستعمارى وفى الأعوام الأولى التالية للاستقلال • وكان الناس هناك أقل نجاحا من أقرانهم فى المناطق الأخرى الذين كانوا ينظرون الى الانتيوكوينونيين كمتخلفين • كما كان أهل بوجوتا وكالى وبوبايان يعتبرونهم بنظرتهم التقليدية أقل مكانة اجتماعية لأنهم يعملون بأيديهم • تلك النظرة الى الانتيوكوينونيين لا تزال واضحة حتى اليوم • وهى تبدو كذلك عندما يصفهم أهل بوجوتا « بالمسيحيين الجدد » • انها لا ترجع الى الحقد أو الضغينة على النجاح الحاضر للاينوكوينونيين • لقد وجدت قبل أن يتحقق ذلك النجاح كما بدت فى تلك الأسطورة المزيفة التى وصمت الانتيوكوينونيين فى القرن التاسع عشر بأن فى عرقهم دم يهودى • وكان المقصود بها انهم أجانب ، ومن ثم فى مرتبة أدنى •

ان انتيوكيا تبدو وراء المناطق الأخرى لعدة أسباب • ان وقائع التاريخ تثبت ان الأحداث السياسية تقع فى بوجوتا وبوبايان والوادى وقرطاجنة ، وقلما يشار فيها الى انتيوكيا • وعندما جاء الخبراء الفنيون الى كولومبيا لاقتراح

ادخال تحسينات على المناجم ، لم يقوموا بزيارة انتيوكيا . وأقام الأسبان المدارس والمعـاهد العلمية فى باجوتا وبوبايان وقرطاجـه ، ولكن أغفلوا ميديلين . وعندما انضمت جيوش من انتيوكيا الى الحروب الوطنية الأهلية ، كانت أقل نجاحا من جيوش المناطق الأخرى . فهم لم يحاربوا بحماس وحمية . وعندما كان زعيم سياسى ينفى أو يهرب من موطنه خلال الحروب الأهلية ، كان يلجأ الى انتيوكيا كما لو كانت أرضا أجنبية غير مشتركة فى القتال .

واذا كان الانتيوكوينونيون قد أقروا أنفسهم بأنهم من طبقة أدنى فى المجتمع التقليدى ، لما كان قد آثر فيهم سلوك الناس فى المناطق الأخرى . ولكنهم لم يقروا قط أن مرتبتهم أدنى . انهم اليوم يشعرون بسلوك الكثيرين من أهل كولومبيا نحوهم كغرباء ، ولكنهم يقاومونه . ولا شك انهم فعلوا ذلك فى القرنين التاسع عشر والثامن عشر . وأعتقد أن هذا التوتر كان بتأثيره على العائلة والبيئة سببا للتغيير فى الشخصية . وهذا التغيير هو الذى أدى الى الابتكار الخلاق . وأرى كذلك أنه مع تفاعل هذه التغييرات فى الشخصية ، كان الانتيوكوينونيون يسعون بدأب لاثبات جـدارتهم ، وأنهم وجدوا ما بحثوا عنه فى عالم القرنين التاسـع عشر والعشرين فى المهـارة الاقتصادية .

ويبدو أن الانتيوكوينونيين قد مروا بمرحلة لامبالاة وانهزامية عـلى مدى بضعة أجيال ، ثم تحولوا الى الابتكار الخلاق . وتدل السجلات الكولومبية على أنهم كانوا فى وقت الاستعمار غير أكفاء ومستهترين ومقامرين – وهى كلها صفات تقترن بالانهزامية كما عرفتها من قبل . ويفهم من تتابع مجرى التاريخ لمدة بضعة قرون أن الانتيوكوينونيين قاوموا تدريجيا وعـلى مدى بضعة قرون سحب وضع الاحترام ، وأن رد فعلهم هذا والأثر الذى أحدثه فى شخصيتهم يكون خيطا هاما من تفسير النمو الاقتصادى فى كولومبيا . كما يفسر أيضا لماذا يسود الانتيوكوينونيين اليوم على الأعمـال والصناعة فى كولومبيا .

الفصل الثاني عشر

الاستعمار والنمو الاقتصادى

ضغوط الاستعمار :

ولد الاستعمار ضغوطا نفسية شديدة على الأهالى الذين تحت نيره . ولم يكن ذلك نتيجة أعمال السادة المستعمرين فحسب ، ولكن أيضا بسبب نوعية الاداريين الاستعماريين وماذا كان يعنى وجودهم فى نظر الأهالى .

وبادىء ذى بدء ، جاء المستعمرون بدون حاجة اليهم وقهروا المجتمع بالقوة . وبعملهم هذا أعربوا عن نظرتهم الى البنيان السياسى والاجتماعى للمجتمع كشىء غير جدير بالبقاء . وفى ادارتهم أعادوا تنظيم مناطق الحكومة المحلية ، وطبقوا وسائل جديدة لاختيار الموظفين ، وغيروا التطبيقات السياسية التقليدية الأخرى . وفى حالة ترك الحكام الوطنيين فى أماكنهم ، كانوا يحكمون اسما فقط ولم تكن لهم سلطة فعلية . وما عليهم الا أن يطيعوا أوامر قاهريهم . وهكذا قلقل الاستعمار أوضاع المجتمع القديم وفرض عليه نظاما أجنبيا للحكم .

كما قلقل أيضا الحياة الاقتصادية للمجتمع الوطنى . فقد فرضت ضرائب جديدة ، ولكى يحصل العمال على الأموال اللازمة لدفعها أصبحوا مضطرين الى بيع منتجاتهم فى السوق أو العمل كاجراء عند الأجانب . وفى هذه الظروف تقلقلت العلاقات العائلية والمجتمعية مع ما كان لها من أهمية نفسية عظيمة . وأدخل النظام الأوروبى لملكية الأرض محطما الحقوق العائلية والقبلية فى الأرض بعد أن كانت هى الأساس الاجتماعى للوجود فى القرى .

لقد أدخلت قوانين جديدة تغفل أو تحطم الوسائل التقليدية لتسوية منازعات معينة . ولم يتبع الحكام الجدد الدين الوطنى ، كما لم يحرموا الطقوس والممارسات الدينية التقليدية ، ولم يتدخلوا فيها . وكان موقفهم منها موقف الانكار والازدراء .

ومما لا يقل أهمية ، أن المستعمرين الأوربيين بحكم وجودهم اليومى أعربوا بوسائل لا حصر لها عن احتقارهم للحضارة التقليدية . لقد شيدوا بيوتهم بطريقة مختلفة ، واستخدموا أنواع مختلفة من الأثاث ، وارتدوا ملابس مختلفة ، وعافوا الطرق التقليدية لتحضير الطعـام ، وهكذا فى شتى نواحى المعيشة .

وأخيرا لم يعامل السادة الأوروبيون أبناء البلاد على قـدم المساواة اجتماعيا . لقد أقصوهم بعيدا عن بيوتهم وأنديتهم ، وفرضو عليهم وسائل خطاب تعرب عن الوضع الأدنى للمتحدث . وعلموهم بوسائل شتى متعمدة ولا شعورية أنهم أدنى مرتبة وغير جديرين بالاحترام . وكان معنى مثل هذه العلاقة أن الناس أصبحوا مجرد أدوات لخدمة الأوربيين .

وما كان سلوك الغزاة ليحدث أثرا ما لم يكونوا قد فرضوا هيبتهم فى المجتمع الوطنى . ولكن لديهم الهيبة الهائلة والقوة الطاغية ، ومن ثم لا يمكن تجاهل سلوكهم . وهكذا تعرض الأهالى الذين وقعوا تحت نير الاستعمار لضغوط عاطفية بسبب نظرة المستعمرين اليهم كفئة أدنى وقلقلتهم للمجتمع التقليدى .

الانهزامية فى مجتمع المستعمرات :

اذا استمرت مثل هذه الضغوط لجيـــل أو جيلين ، ولدت الشخصية الانهزامية فى نفوس معظم أعضاء مجتمعات الاستعمار . البالغون يستجيبون لشعورهم بالغضب والضيق ، ويؤدى سلوكهم فى البيت الى الانهزامية لدى أطفالهم .

وفى سجلات المجتمعات التى ابتليت بالاستعمار يمكن قراءة اللامبالاة عند الناس ، وعدم الاهتمام بأية أمور تخرج عن الدائرة المباشرة لحياتهم . وقادة الدول الغربية يسيئون فهم هذه اللامبالاة فيظنون أن الأهالى بلا أفكار وبلا مشاعر بالنسبة للمسائل التى تجاوز فهمهم المباشر .

لهذا صدم الغربيون عندما رأوا شعوب المستعمرات عقب الحرب العالمية الثانية تصوت بأغلبية ساحقة لصالح الاستقلال .كما كانت صدمتم أشد عندما فوجئوا بعنف الغوغاء فى كثير من الدول ، وقد أعربوا عن كراهيتهم وغضبهم بمجرد تغيير الظروف على نحو أتاح لهم اطلاق عواطفهم المكبوتة . ولكن هذه الأعمال يمكن فهمها اذا سلمنا بأن اللامبالاة لم تكن بسبب عجز

المشاعر ، ولكن بسبب الانهزامية ، التى تخفى بين طياتها دائما الغضب الشديد المكبوت • لقد أدرك البالغون على مدى أجيال مدى احتقار السادة المستعمرين لقيم المجتمع • وقد تصارع فى نفوس الأهالى احترام تلك القيم من جهة مع احترامهم للحكام الاستعماريين أو خوفهم من قوتهم • وأدى الصراع الى توتر شديد والى غضب كان لابد من كبته • والأطفال اذ لاحظوا التوتر والمهانة عند البالغين ، تعلموا أن يكبتوا قيمهم • لاتقاء الألم ، ولكن الكبت ولد الغضب الذى تزايد شدة فى اللاشعور • وازداد الأثر عمقا من جيل لآخر ، وأصبحت الانهزامية أكثر شمولا •

ردود فعل أخرى :

لئن كانت الانهزامية هى رد الفعل الأغلب عند أهالى المستعمرات للتوترات التى تضاعفت فى بيئة المنزل ، فان رد الفعل اشتد حدة عند هؤلاء الأفراد الذين تأثروا مباشرة بالضغط شبه الكامل لغياب وضع الاحترام ، جنبا لجنب مع الشعور بالعجز والاستكانة •

القضية الاستعمارية : الطقوس :

يكون الأب فى ظل الحكم الاستعمارى عرضة لأقسى نوع من سحب وضع الاحترام ، ومن ثمة يشغله غضبه وترهقه حيرته ، لأنه لا يستطيع التجاوب مع الأشخاص من حوله ، ولهذا يحكمهم قسرا ويدفعهم عن طريقه • الأطفال يرونه شخصا قويا يهيمن عليهم ، ولا يقدرهم الا قليلا ، وله من الاهتمامات والمشاغل ما يكون من الحظر التدخل فيه • وفى بيت كهذا لا يشعر الطفل أنه محبوب • انه لا يشعر بأمان حقيقى • انه يعيش فى فزع •

قد يحاول الطفل الذى يمر بهذه التجربة أن يحمى نفسه بما يسمى « محاكاة المعتدى » وهو نوع من التظاهر • مثال ذلك ، وهذه قصة واقعية ، كانت طفلة تخاف بالغ الخوف من العفاريت ، وكا يفزعها أن تسير ليلا فى صالة مظلمة • وقد حلت مشكلتها بالتظاهر فى كل مرة تخترق فيها الصالة بأنها هى العفريت • وعلى نفس النمط ، يلجأ الأطفال الذين يتعرضون لضغط شديد بسبب الرعاية الأنانية وغير المحبة لوالديهم ، الى حل مشكلتهم بتقليد أحد الوالدين بالكامل ، لكى يقنعوا أنفسهم بأنهم اذا كانوا مثل والدهم تماما ، فلابد أن والدهم يحبهم •

يمكننا أن نرى كيف يحدث هذا فى حالة استعمارية كتلك التى وصفناها ، يوجد فيها مثل هذا الضغط فى البيت • ان الولد الصغير يحاول

إقناع نفسه بأنه مثل أبيه تماما . ثم لا يلبث أن يتعلم أن الحكام الاستعماريين، وفى الواقع كل الصفوة الأجنبية ، يمارسون سلطة أقوى من أبيه ، وأنه يجب كراهيتهم كما يكرههم أبوه . وربما يحدث أن يحمى نفسه ضد أبيه بالارتباط بهم بدلا من كراهيتهم . وربما يفعل الاثنين معا : يكرههم ويقلدهم . وبهذا يحدث الارتباك فى حياته العاطفية .

ولكن الطفل اذ يتحرك خارج البيت ويحتك أكثر فأكثر بقوة الصفوة الاستعمارية ، يجد انهم يشبهون أبيه من بعض النواحى . وأنهم لن يستقبلوه، بصرف النظر عما فعل بأكثر من استقبال أبيه . ومن هنا يحاول محاكاة هؤلاء المعتدين الجدد . وهو اذ يفعل هذا لايحول عنه الفزع الجديد فحسب ، بل يضعف فزعه القديم أيضا . لقد اكتسب الحماية من والديه ، لأنه أصبح الآن شبيها لشيء أقوى منهم .

هكذا، فى مستعمرة هولندية ، يحاكى الهولنديين فى ألعابهم الرياضية وملابسهم وحديثهم . وفى مستعمرة بريطانية يحاول أن يفعل مثل ما يفعل الانجليز . واذا أتيحت له الفرصة ، تعلم فى مدرسة على النمط الغربى أقامها السادة المستعمرون . وقد يلتحق بالحرفة التى يقرونها ، كأن يصبح مثلا كاتبا فى مكاتبهم . وقد يصبح مسيحيا ، وعلى الأخص مسيحيا ممتثلا . ولكن حتى مع محاولته أن يكون كواحد من المعتدين ، فانه يكبت غضبه عليهم ولا يجرؤ على اظهاره . ومن ثم هو يقلد الأنماط الاجتماعية للسادة المستعمرين ، ولكن بنصف قلب ، وبدون ارادة ، وبلا مبادءة أو قدرة على الحكم على الأشياء . انه لا يمكنه مطلقا أن يتقدم فى عالمهم ، ولكنه يستطيع المضى فى المظهريات . انه أقرب شيء الى مقيم الطقوس .

ان كثيرا مثل هؤلاء الأشخاص يوجدون اليـــوم فى المستعمرات أو المستعمرات السابقة . انهم كتبة فى مكاتب رجال الأعمال الغربيين فى المناطق الاستعمارية . انهم يتوقعون النجاح ، ولـكن هناك ثمة نقص فى أدائهم . ورجال الأعمال الغربيون يميلون الى القول « انهم لا بأس بهم ككتبة ، ولكن لا عقل لهم لادارة الأعمال » .

وهؤلاء الأشخاص الذين حاولوا محاكاة المعتدين قد يصبحون فى بعض الحالات القادة الأول للمستعمرة السابقة بعد الاستقلال . وهذا لاينطبق على القادة الوطنيين فى القمة وحدهم ، بل ينطبق أيضا على بعض الوزراء والكثيرين من الموظفين على مختلف المستويات ، والجميع من الطقوسيين الى حد كبر أو

صغر ٠ لقد دخلوا الخدمة المدنية تقليدا للسادة الأوروبيين ٠ لقد دربوا بكفاءة فى المؤسسات الأوروبية ، ولكن كثيرين منهم تعوقهم صراعاتهم الداخلية ٠ هؤلاء الأفراد يؤدون بإخلاص أعمالا روتينية أو وظائف وزراء ، ولكن حياتهم تتسم بطابع المحاكاة وتعوزهم المبادءة لمواجهة مشاكل بلادهم المركبة بفاعلية ٠

النبوءة أو التحرير :

وثمة رد فعل للضغوط النفسية للاستعمار ، أكثر تطرفا من المحاكاة ، وهو ما أسميه بالنبوءة ٠ وقد ظهر فى معظم المجتمعات التقليدية التى وضعتها دولة أجنبية تحت حكمها وفرضت عليها أساليب حياة أجنبية ٠ وتظهر النبوءة كحركة اجتماعية تبنى على الاعتقاد بأن قوة الغزاة يمكن أن تختفى وتعود الحياة الطيبة بواسطة السحر ٠ فالناس بعد أن كانوا مواطنين راشدين ، يشعرون بعجزهم عن احتمال الضغوط التى سببها الاستعمار ، فينصاعون الى تنفيذ أوامره فى سلام ، لأنهم يجدون مشاعر الكبت والضيق غير محتملة ٠ وهم اذ لا يرون طريقا حكيما لاسترداد شخصيتهم ، ولا يستطيعون العيش بلا شخصية ، يصرون على أن هناك ثمة طريق يمكن أن يوجدوه بعمليات السحر، ولو أنهم يرونها عديمة الجدوى وقتما يكون الضغط أقل حدة ٠

ففى بورما خلال عامى ١٩٣٠ و ١٩٣١ اعتقد أهل الريف فجأة أن بعض كلمات وتعاويز السحر يمكن أن تجعلهم بمأمن من مواجهة أسلحة الانجليز ٠ ولهذا حاربوا بأسلحتهم البدائية ضد البنادق ٠ وفى مدغشقر ، كان الرجال يهجمون بالمثل على المدافع الأوروبية ، وقد غرسوا بين أسنانهم تعويزة خشبية لحمايتهم من نيران المدافع ٠ وفى جنوب غربى المحيط الهادى ، عندما رأى الناس السفن والطائرات تحمل الامدادات خلال الحرب العالمية الثانية ، اعتقدوا بعد الحرب أنهم اذا أقصوا الأوربيين بعيدا ، عادت السفن والطائرات الى الظهور لاعادة بضائعهم اليهم ، أو لتزويدهم ببضائع الأوروبيين الذين قضوا على مدنياتهم ٠ ففى غينيا الجديدة أقام هؤلاء المقيمون فى الداخل مطارات داخل الغابات ٠ وهؤلاء المقيمون فى القرى الساحلية رموا أثاث وتجهيزات بيوتهم فى المحيط أملا فى أن يأتى السحر بسفن وطائرات تعيد تجهيزها ٠

ولا شك ان الاعتقاد فى امكانية الانقاذ من المتاعب عن طريق السحر يضعف من العمل الذكى والخلاق لبلوغ النمو الاقتصادى ٠ ولقد ذكرنا نبوءة السحر هنا لهذا السبب ولأنها تدل على شدة الضغوط النفسية التى يسببها الاستعمار ٠

تغلغل القيم المناوئة للنمو الاقتصادى :

هذا التحليل لبعض ردود الفعل المتطرفة ، من جانب بعض الجماعات فى مجتمعات الاستعمار ، لضغوطه الاجتماعية الشديدة ، قد يجعل من السهل فهم الآثار العامة لمثل هذه الضغوط بين أهـــالى المستعمرات والمستعمرات السابقة .

ان الفرد الذى ينظر اليه بازدراء ويعامل ككائن أحط لا يبغض الأفراد الذين عاملوه كذلك فحسب ، ولكنه يرفض أيضا الأشياء التى يقدرها هؤلاء الأفراد ، حتى ولو كان يقلدهم فى الشكل أو الخـــارج . ان الفرد الذى يمر بطفولة عادية فى مجتمع تقليدى يكون هذا رد فعله ضد السادة الأوربيين المستعمرين ولهذا فهو لا يعطى قيمة أعلى لاستخدام طاقاته فى مجابهة مشاكل الانتاج الصناعى ، أو أية أنشطة أعمال حديثة ، لأن هـــذه قيم أوروبية ، وتقترن بها حقيقة نظرة الأوروبيين اليه ككائن أدنى . انه لا يستطيع الفصل بين الاثنين . فهو اذا قبل الأولى لابد أن يقبل الثانية فيحطم بذلك احترامه الذاتى . ولهذا ولمـــا كان قبول القيم الأوروبية يهدد كيـــانه ، فانه يحمى نفســــه بالتشبث بالقيم التقليدية . وهو اذ يتمسك بفكرة أن العمـــــل البدنى وضيع ، وأن أبناء الصفوة يهتمون بالتعليم الحضارى ، وأن وضع الانسان هو الذى يقرر شأنه ، فانه يستطيع كأحد أبناء الصفوة التقليدية أن يحمى نفسه الى حد ما من احتقار الأوربيين . انه يستطيع أن يقنع نفسه ، ولو لاشعوريا ، بأن نظرة الأوروبى الى قيمة الفرد ليست حقيقة بذات أهمية. ولمثل هذا السبب ، يتشبث عضو طبقة تقليدية أدنى بمعتقداته الدينية ، وطرقه التقليدية والبناء الاجتماعى المفضل فى رأيه .

هذا هو رد فعل الانسان التقليدى العادى فى مجتمع المستعمرات تجاه القيم الأوروبية . ويماثله رد فعل الشخص المقلد . ان الشخص المقلد ، الحريص على طقوس المحاكاة ، يكون على استعداد لتقليد السلوك الأوروبى ، كما سبق أن قلد بعض الصفات التهديدية لأبيه ، وذلك ليحاول اقناع نفسه بأنه وقد أصبح مثل الغربى ، فلن يشعر الغربى نحوه بالاحتقار . ورغم هذا ، فهو لا يقنع نفسه حقا وحتى عندما يعمل ككاتب لدى الغربى لا يثق فيه، بل ويتباعد عنه بينما يقلده .

ونظرا للتهديد الذى ينطوى عليه سلوك السادة المستعمرين الغربيين ضد شخصية الأفراد فى المجتمع التقليدى ، كما سبق أن بينا ، فانه من

نصيحة فنية من أحد الغربيين . ان كثيرا من الأفراد فى الدول الأقل تقدما يخشون الأمريكيين وغيرهم من الغربيين ، وبلا شعور لا يثقون فى نصحهم حتى ولو استمعوا اليه وشاهدوه بانتباه . انهم يسألون أنفسهم : هل يمكن لفرد أن يشعر نحوهم بالاحتقار أن يسدى لهم النصح اللهم الا لصالحه ؟ وهل يمكن أن يكون أى شىء فى صالحه وفى صالحهم هم أنفسهم ؟ وعندما يتخوفون منه بوجه خاص عندما يحمل اليهم الهدايا ، لأن الادارى الاستعمارى كثيرا ما يحاول رشوة مواطن المستعمرة ليخدم أغراضه . حقيقة ان هذا النوع من السلوك ليس بعائق مطلق ، ولكنه يحد بلا شـك من فاعلية المساعدات الفنية .

حقيقة ان الكثيرين من الأهالى يسعون للعمـل عند المنشآت الغربيـة للأعمال ، ولكن سلوكهم يكون عادة طقوسيا أى مقلدا . انهم يسعون لايجاد شخصيتهم بين الأوروبيين ، ولكنهم عنـدما يحاولون ممارسة العمـل فى وظائفهم تقف كراهيتهم للقيم الأوروبية والصراع الداخلى فى نفوسهم حائلا دون تأديته بنجاح . هم « ليس لديهم عقول للأعمال » انهم يرتكبون الأخطاء ويسيئون فهم التعليمات ويعجزون عن ادراك الأعمال المطلوبة .

هكذا يبدو لنا من ردود الفعل العاطفية والنفسية التى استعرضناها ، أن الحكم الاستعمارى ، وان كان قد أرسى قاعدة مادية للنمو الاقتصادى فى دول كثيرة ، الا أنه ربما يكون قد أوجد عوائق نفسية أكثر أهمية وأبلغ أثرا .

ومع هذا فيجدر بنا أن نشير الى استثناء ممكن وهام لهذه النتيجة ، وهو أن الأفراد فى المجتمع التقليدى يعجزون عن المشاركة بفاعلية فى قيم السادة المستعمرين . ففى بعض المجتمعات التقليدية حدثت صراعات السلطة قبل دخول الأوربيين بين المجمـوعات ، فقد هـؤلاء الذين كان لهم وضعهم المعترف به فى المجتمع ، والذى كانوا يعتقدون أنه وضعهم الحق . وعندما أطاح الأوربيين بالمجموعة التقليدية المتسلطة ، رحبت بعض المجموعات المستذلة بالأوربيين كمحررين . ولو أنهم فعلوا ذلك حقا لكانوا قد قبلوا القيم الغربية طواعية . هذا فضلا عن أن المجموعات التى سحب منها وضع التقدير قد تتحول الى ارتياد التقدم التكنولوجى ، بعد أن تكون قد مرت بمرحلة الانهزامية واكتسبت روح الابتكار الخلاق .

المغزى للمستقبل :

اذا كان حكم الاستعمار قد أحدث من الآثار ما سبق بيانه ، فماذا يمكن أن نستخلصه بشأن امكانيات النمو الاقتصادى فى المستعمرات ، سواء تلك التى استقلت منها أم تلك التى لا تزال تحت نير الاستعمار ؟

اذا كان حكم الاستعمار قد تسبب فى تفشى الشخصية الانهزامية بعد عدة أجيال ، فان بعض الأفراد المبتكرين الخلاقين قد يظهرون فى الأجيال التالية • وانه لينتظر من هؤلاء الأفراد المبتكرين الذين يظهرون بينما لاتزال المنطقة خاضعة لحكم الاستعمار ، أن يحجموا عن تقليد الأنشطة الاقتصادية للسادة المستعمرين لأن هذا التقليد انما يعنى قبول قيم المستعمر • انهم قد يواصلون تجديدا اقتصاديا من نوع جد مختلف ، ولكن الموقف الذى يعيشون فيه يميل لأن يوجه طاقاتهم الى أنشطة أخرى ، مثل السعى لتحقيق الاستقلال •

وحتى قبل أن ينتهى حكم الاستعمار ، لا يتجه النمو الاقتصادى الى الانتعاش الا اذا حدث تغير فى الشخصية • ومع هذا فان الفترة بين طفولة ونضج جيل واحد مثلا قد تتمخض عن ظهور الابتكار الخلاق منبثقا عن الانهزامية على نطاق واسع ، وقد يرى الأشخاص المبتكرون فى المهارة الاقتصادية أعظم فرصة لاثبات جدارتهم •

واذا صح هذا التحليل ، فهو يوحى بأنه لابد من مرور ٣٠ سنة على الأقل بين الوقت الذى يتأكد فيه الاستقلال وبين انتعاش النمو الاقتصادى واتساع نطاقه ، ما لم يكن طبقا لتاريخ الدولة قبل الحكم الاستعمارى قد وجد بالفعل تقليد من ادارة الأعمال • وهذا صحيح بالنسبة للهند ، ولكنه ليس صحيحا بالنسبة لاجزاء كثيرة من أندونيسيا •

الفصل الثالث عشر

قضية فى الموضوع : بورما

المجتمع التقليدى

التاريخ المبكر :

كان التاريخ المبكر لبورما محكوما بالأعمال الداخلية لمجتمعها أكثر منه بالاتصالات الخارجية • ان سلاسل جبال عالية تكون حدودا طبيعية بينها وبين جيرانها ، ومن ثم تساعد على عزلتها • ومما ساعد على تلك العزلة أن البورميين عندما غزوا البلاد واستوطنوها جعلوا عاصمتها فى الداخل بعيدا عن البحر • وبهذا كان اتصالها قليلا بجيرانها وبالعالم خلال الألف سنة السابقة لدخول الانجليز •

وان الجانب الأكبر من تاريخ بورما يدور حول الصراعات على السلطة بين المجموعات العنصرية والحضارية التى يتألف منها سكان مختلف منـــاطق الدولة • وكان هؤلاء البورميين وهم المجموعة الأكبر ، وانكارتيين ، والاركانيين والمونيين والشان • وينتسب الشان الى الصينيين •

وفى الأزمنة الأولى أقصى المونيون انكارنيين من بورما الدنيا الى الجبال فى شرق بورما • وفى القرن التاسع بعد الميلاد • احتل البورميون بورما العليا تحت ضغط هجوم الصينيين الذين دفعوهم الى جنوب جبال الهملايا • وفى منتصف القرن الحادى عشر كانوا قد توطنوا فى كل بورما • وبعد ذلك جاء الشان من هضبة يونان فى جنوب شرق الصين ليتوسعوا الى الغرب والجنوب الغربى وتوطنوا فى شرق وشمال بورما • وقد تنازع الشان مـــع المونيين والبورميين على السيطرة على بورما طوال الفترة من أواخر القرن الثالث عشر الى منتصف القرن السادس عشر• ثم استطاع البورميون أن يفرضوا سيطرتهم مرة أخرى وظلوا محتفظين بها حتى نهاية عهد الاستقلال • وذلك باستثناء ثورة المؤنيين لفترة قصيرة حوالى عام ١٧٥٠ •

ولقد تخلل فترات سيادة بورما وكذلك فترات الحكم المنقسم حروب قبلية وحشية • فنقرأ مثلا عن احتجاز بلاط الملك بكامله فى الأسر ، وتدمير المدن أو نهبها كعقوبة على المقاومة ، وتنفيذ أحكام الاعدام بالجملة هذا فضلا عن الأعمال الفردية الاجرامية التى صحبت هذه الأعمال الرسمية • فالحرب الأخيرة بين البورميين والموينيين فى القرن الثامن عشر قضت على نسبة كبيرة من سكان بورما الدنيا فضلا عن عودة الكثيرين منهم الى الغابات • ثم تحولت الدولة الى السلام تدريجيا بعد عام ١٧٥٠ ، ولكن ظلت راسخة فى أذهان كل مجموعة الفظائع وجرائم النهب التى ارتكبتها المجموعات الأخرى ، حتى وقتنا الحاضر •

ومع هذا فقد وجد الانجليز فى بورما نظاما مزدهرا من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والزراعية ، عندما احتلوها فى القرن التاسع عشر • ولقد تشرب الموينون البوذية وبعض عناصر الحضارة الهندية عن التجار الهنود ، بينما امتصها البورميون معدلة فى حضارتهم ونشروها فى سائر أنحاء بورما •

المجتمع التقليدى : الشخصية :

لقد كانت شخصيات أعضاء المجموعة المسيطرة فى ذلك المجتمع سلطوية الى حد كبير • فطفولة البنات كانت تحضرهن لتولى مسئوليات أكثر ، وللعمل مع قسط كبير من الاستقلال عن الرجال ، ولكن مع التسليم بقوامة الرجال • وكان للرجال البورميين شخصيتهم السلطوية كما سبق أن بينا فى حديثنا عن مميزات المجتمع التقليدى • وهم وقد أعوزتهم الثقة فى رجولتهم ، واستبد بهم الخوف حول علاقاتهم بالآخرين وما سببه من توتر ، اتجهوا الى وضع أهمية بالغة على المركز الاجتماعى فكانوا ينحنون لارادة رؤسائهم • كما سبب خوفهم الغضب ، معبرا عنه بالنزعة العدوانية التى تظهر عادة فى التسلط على كل من هم أدنى مركزا • وعملا على ضمان تجنب خطر افلات زمام هذه النزعة ، تشبث أهل بورما بالبوذية مع فلسفتها فى تقبل المهانة ، وحرموا على أنفسهم طلب الهدايا أو المساعدة المادية من الغير ، أو تحمل أية مسئولية بالنسبة لأمور الآخرين • لقد عنوا بالمظهر الخارجى كمسالمين وهادئين ، المظهر الذى خدع الغربيين فنظروا الى شعب بورما كشعب سعيد لا يحمل هموما •

البنيان الاجتماعى والحضارى : أوجه الاختلاف عن المجتمعات التقليدية الأخرى:

ولو أن المجتمع البورمى يشبه أساسا المجتمعات التقليدية فى كل مكان ،

الا أنه توجد بعض أوجه الاختلاف الهامة فى بورما جديرة بأن نتناولها هنا بالبحث ٠

ان النساء يتمتعن بحرية شخصية كبيرة فى كل منطقة جنوب شرقى آسيا ، ولكنهن فى بورما يتمتعن بقدر أكبر من الحرية بالنسبة للمناطق الأخرى ٠ وهذا صحيح على الرغم من اعتناق البورميين للبوذية التى تؤمن بأن المرأة أدنى مكانة من الرجل ٠ وهكذا فرغبات البنت البورمية تابعة وأقل أهمية من رغبات الأخ ، كما هو الشائع فى المجتمعات السلطوية ، وعلى المرأة البورمية أن تسير وراء رجلها فى الطريق ٠ ورغم هذا فعندما تتزوج البنت البورمية لا تغير اسمها ولا ملابسها اظهارا لتبعيتها لزوجها ، كأنه لا يهم من هو زوجها ٠

وأكثر من هذا فالنساء فى بورما هن عادة اللاتى يتخذن القرار ٠ فمن الناحية التاريخية كانت النساء البورميات يقمن بالدور الهام ، بل والحاسم أحيانا ، فى قرارات العائلة ٠ وخلال الحكم البريطانى ، قيل انهن يمتلكن كل متاجر التجزئة فى بورما ٠

ومع أن المجتمع التقليدى البورمى لم يكن عريقا كبعض المجتمعات التقليدية الأخرى ، الا أن طرق انتاجيته لم تكن بالبدائية ٠ فلقد كانت هناك نظم للرى تنقل الماء الى الحقول فى المناطق التى لا تسقط فيها الأمطار ، وكانت هذه النظم تتيح زراعة محصولين ، ان لم يكن ثلاثة محاصيل فى السنة ٠ ومع أن الصناعات الوحيدة الموجودة كانت صناعات يدوية ، الا أنه وجد من الاخصائيين من كانوا قابلين للتحويل الى مهندسين ٠ كما أظهرت بعض المعابد مهارات هندسية عظيمة ٠ وكانت هناك أيضا مدارس للتدريب على ممارسة الطب ٠ وقد ثبت من الوثائق البريطانية أنه لفترة ما بعد دخول الانجليز كان الأطباء الوطنيون أنجح من الأطباء الأوربيين فى علاج الأمراض المحلية ٠

لقد كانت الأرض وفيرة فى بورما ، ولهذا لم تتضاعف قيمتها كما حدث فى الدول التى تعانى ندرة الأرض ٠ ولهذا لم تكن هناك أراضى للايجار ، ولم توجد طبقة عليا من كبار الملاك ٠ وبعكس ذلك كانت الأسرة التى تزرع الأرض هى التى ترث حق ملكيتها واستخدامها ٠ والشخص الوحيد خارج المزارع وأفراد عائلته الذى كان يشارك فى انتاج الأرض كان هو الملك ! وقبل قيام الحرب العالمية الثانية كان حجم ملكية الأرض الأكثر شيوعا نحو

١٥٠ فدانا ، وربما كان هذا هــو الحجم المتوسط لملكية الأرض فى القرون السابقة • وبالمقارنة بمساحات الملكية فى الدول الآسيوية الأكبر ، تبـدو هذه المساحات كبيرة ، ومن ثم كان مستوى المعيشة فى بورما أعـلى منه فى الهند والصين •

ولم تصل الروابط العائلية فى بورما الى ما وصلت اليه من قوة فى معظم المجتمعات التقليدية • لقد كانت هذه الروابط من الضعف بحيث لم تمنع هجرة جزء من مجموعة العائلة ، واذا تزايد سكان قرية بما يزيد كثيرا على حجم الأرض المتوافرة حولها وبالقرب منها ، فان مجمــوعة من أعضاء القرية قد تهاجر لتبدأ قرية جديدة •

المساواة والتسوية

ولعل حقيقة كون امتلاك الأرض ليس بذى أهمية ، وعدم وجود طبقة من كبار الملاك تفسر لنا وجه اختلاف آخر ــ وهو لماذا سمى مجتمــع بورما التقليدى بمجتمع المتساوين • ان العائلات لم تحاول تجميع مظاهر الثروة • لقد أنفقوا الأموال الفائضة ليكتسبوا التقــدير • انهم لم يكونوا ليعطوها للفقراء ، لأنه من الذنب قبولهم للصدقة ، وانما أعطوها للرهبان فى المعابد • وكان بناء المعابد يكسبهم تقديرا خاصا •

وفى نظامهم السياسى لفظ البورميون فـكرة وراثة الفرد لمركز رسمى فى السلطة بدون اثبات مقدرته •

لقد كانت أكبر وحدة حكومية هى « الميو » أو « الدائرة » وهى تتألف عادة من ١٠ الى ٥٠ قرية • وكانت كل دائرة يقودها رئيس • وسلطات هذا الرئيس ، كمــا هو الحال فى المجتمعات التقليدية الآخرى ، يحدها العرف وقدرته على القيادة ، ولكنه متى أخذ رأى الكبار ووصــل الى قرار معين ، يصبح قراره نهائيا • ولم يكن هناك ما يحمى الناس من سوء استغلال رئيس لسلطته الا الاجراء الصارم •• وقد يصل هذا الاجراء الى حـد الاغتيال • وكان منصب الرئيس يتوارث فى عائلته ، ويرثه عادة الابن الأكبر ، ما لم يقرر أهل القرية أن يتولاه عضو آخر من العائلة لأنه الأقدر • وبهذا يمكن أن ينتقل المنصب الى ابن أصغر أو الى ابن العم •

وكان الرئيس مسئولا من الناحية النظرية أمام مندوب الملك • وكانت سلطات الملك مطلقة أيضا من الناحية النظرية • فمن حقه أن يعاقب عــلى

الجرائم التي تقترف ضده بالطريقة التي يختارها ، بل وكان يحق له أيضا ازهاق أرواح المواطنين الأبرياء تنفيذا لطقوس جرى بهـــا العرف وبدون أن يقترفوا ذنبا · لقد كان يشرف على كل عمليات التجارة الخارجية ويديرهـا باسمه · ولكن من ناحية التطبيق ، كانت سلطاته محدودة بما يستطيع أن يكسبه من تأييد الشعب · ولما كان لا يملك أرضا يستطيع من ريعهـــا أن يكون جيشا ، فان قواته المسلحة كانت قاصرة على ما يستطيع جمعـــه اذا تجاوب الناس مع قيادته · وكان له مجلس من المستشارين الذين لهم مركزهم وحيثيتهم حتى لقد خولهم العرف أن يناقشوا السياسات المقترحة للملك · وبالنسبة لوراثة المملكة ، لم تكن الوراثة للابن الأكبر ولـكن لأى عضو فى عائلته يمكنه أن يمسك بالعرش ويحافظ عليه ·

وكانت المراكز الهامة الوضع ، فيما عـــدا مركزى الرئيس والملك ، مفتوحة لأى كان تبعا لقدرته وحظه · وعندما يصل الطفل الى سن الثامنة يخدم مع الرهبان فى المعبد لمدة أسبوع على الأقل ، وعادة لمدة ثلاثة شهور ، عليه بعدها أن يتلقى العلم فى مدرسة المعبد لمدة ٦ أو ٨ ســـنوات · وقد يختار الولد مهنة رجل الدين بالبقاء فى المعبد · كما يحق له أن يعود اليه وقتما يريد لتعلم أقصى ما يريد من المعرفة · وللملك أن يختار مستشاريه من أية طبقة ، ويمكن أن تصبح أى بنت فلاحة يعجب بها الملك واحـدة من الملكات وأما للملك · وكما سبق أن ذكرنا يعتمد الارتقاء الى المناصب الأعـــلى مثل الرئيس والملك فيما يعتمد على القدرة والمكر · أى أن مرتبة الرجـــل لا تعتمد على انتمائه الى مجموعة ذات وضع أعلى أو أدنى ، ولكن على علاقاته بالأفراد الآخرين ممن لهم مرتبة مماثلة ·

ومع هذا فقد كان التركيز على المرتبة فى هـــذه العلاقات الشخصية عظيما ، شأنه شأن احترام المرتبة فى أى مجتمع سلطوى · وفى داخـــل الأسرة ، ظل الاختلاف فى الوضع قائما على الجنس والسن والمركز كوالد · بينما هو يتوقف على السن وعلى منصب الرئيس · أما على مستوى الجماعة فيتوقف الاختلاف فى الوضـــع على الرهبنة ، والتعليم الدينى ، وتفضـيل الملك · ولقد أتيح للكاتب أن يلمس شدة احترام السن فى العائلة البورمية المعاصرة فى اجتماع حضره · فقد خاطب رجل بورمى تعلم تعليما عاليا وفى مدينة هامة ابن عمه الأصغر منه بسنتين فقط والذى تلقى العلم فى جامعات الخارج ويشغل منصبا هاما ، بأسلوب المخاطبة الذى يستعمل مـــع الأفراد الأدنى مرتبة · والكبار فى القرية ينظر اليهم نظرة ممتـازة · وهكذا يعطى للسن والمرتبة أهمية خاصة فى كل نواحى الحياة فى بورما · وحتى اليـــوم

عندما يتعامل الفرد مع شخص في مرتبة أعلى يجد حرجا فى أن يفكر باستقلال ويصل بتفكيره الى نتيجة ما لم يشعر باقرار هذا الشخص الأعلى .

مقاومة التغيير الفنى

وأخيرا يجب أن نذكر فى عرضنا للملامح الشخصية والحضارة التى كانت لها أهميتها الخاصة فى بورما ، أنهـــا تضمنت من الملامح المنـــاوئة للتغيير والوسائل الحديثة مثل تلك التى وجدت فى المجتمعات التقليدية الأخرى . الا أن هذه الحواجز فى طريق التغيير التكنولوجى كانت فى بورما أضعف منها فى الدول الأخرى .

لقد رأينا أن الاعتقاد الدينى التقليدى فى القوة الخارقة للعالم الطبيعى والخوف من اغضاب القوى الروحية قد عوقا التغيير وأخافا الناس من وسائل الحياة الحديثة . ولما كان هذا الاعتقاد قد وجد فى صورة رقيقة فى البوذية ، فقد اتجه الرأى أحيانا الى أن المذهب البوذى وملامح الحضارة المرتبطة به هى التى كونت أقوى عائق ضد التقدم الاقتصادى . وليس هـــذا بصحيح فى اعتقادى . ان البوذية لم تحل بين البورميين وبين خوض حروب وحشية لغزو جيرانهم ، أو بينهم وبين انشاء نظم قنوات الرى لتوصيل المـــاء الى مناطق الجفاف . انها لم تمنع « ميندون » ، آخر ملوك بورما ، من ادخال صناعات جديدة ، أو من ايفاد أبناء بورما الى الخارج لدراسة التكنولوجيا الأوربية . انها لم تعوق « أونو » ، وهو بوذى مخلص ، عن قيـــادة برنامج للتنميـــة الاقتصادية ، وقت أن كان رئيسا للوزراء .

ومن نواحى أخرى كانت القوى العاملة على استقرار المجتمع التقليدى والمشكلة حاجزا ضد التغيير التكنولوجى أضعف فى بورما منها فى أى أماكن أخرى . وجدير بالذكر أن البنيان السلطوى لم يكن قائما على فوارق طبقية موروثة ، ولم يكن هناك تمييز بين الطبقة العاملة وطبقة ملاك الأرض .

وهذا لا يعنى أن ملكية الأرض لم تكن بذات أهمية كبيرة . فلقد كانت أساس الانتماء الى القرية ، حيث كان البقـاء فى القرية بدون امتلاك أرض أمرا مستغربا فى نظر البورميين . ومن هنا وجدت مقاومة لترك الأرض الى مهنة جديدة فى الصـــناعة أو التجارة . ومـــع أن مالك الأرض فى معظم المجتمعات التقليدية كان يواجه حاجزا آخر لتغيير مركزه ، باعتباره عضوا فى الصفوة . لقد كان ينظر بازدراء الى كل عمل يمارس باليـــد ، ولا يرى

صالحا الا للطبقات الأدنى • ولكن لم يكن الأمر كذلك فيما يختص بالبورميين• حيث كان الملاك البورميون هم الذين يزرعون الأرض بأيديهم ، وكانوا يعتزون بعملهم وينظرون الى الحرفى الماهر نظرة الاحترام •

وباختصار يبدو أن مقـاومة التغيير التكنولوجى لم تكن بالكبيرة فى بورما التقليدية ، كما هى كبيرة فى المجتمعـات التقليدية القديمة • وكان انطلاق النمو الاقتصادى فى بورما أقل حاجة الى القوة الدافعة منه فى الدول الأخرى •

التاريخ السياسى الحديث

لعله من المفيد قبل بحث مشاكل التغيير الاجتماعى والاقتصادى أن نلم أولا وباختصار بتاريخ بورما السياسى •

فترة الاستعمار

فى أواخر عام ١٨٢٤ وعلى أثر تكرر الاشـتباكات على حـدود بورما والهند ، قام الانجليز زاحفين من الهند باحتلال أراكان ، وهو القطاع المجاور للهند ، وتيناسيريم وهو الاقليم الضيق الممتد جنوبا الى شبه جزيرة الملايو • وبسبب عجز الانجليز عن استيعاب ملوك بورما ، قاموا باحتلال بورما الدنيا عام ١٨٥٢ وبورما العليا عام ١٨٨٥ • وبهذا انتهت المملكة • وظل الانجليز يحكمون بورما كجزء من الهند ، الى أن فصلت كمستعمرة قائمة بذاتها عـام ١٩٣٧ •

وقد اتخذت نكسة بورما تحت نير الاستعمار مظهر اللامبالاة كما حدث فى أراضى المستعمرات فى المناطق الأخرى • وفى أواخر القرن التاسع عشر ثار أهالى بورما مطالبين بالحكم الذاتى ثم بالاستقلال • واسـتجابة لمطالبهم أنشىء مجلس استشارى عام ١٩٢٣ وهيئة تشريعية بسلطات محـدودة عام ١٩٣٧ • ومع هذا لم تشارك فى هذه الأجهزة سوى أقلية صغيرة من أهـل بورما وهم الذين يستطيعون التصويت فى انتخابات هذين المجلسين • وكان الاداريون الانجليز قادرين عادة على الهيمنة على الانتخابات ، وعلى شراء عدد كاف من أعضـاء المجلسين بمنحهم وظائف مجزية ، وبذلك سـيطروا على المجلسين • وكان فى ذلك ما يبرر اللامبالاة السياسية بين البورميين • فلو كانت هناك أغلبية لهـا حق التصويت لاسـتطاعت انتخاب ممثلين يعجز

الانجليز عن السيطرة عليهم . ولكن تلك اللامبالاة كانت على السطح فقط ، كما ثبت في جهات أخرى كثيرة . وعندما سنحت الفرصة ، اشتدت المعارضة لحكم الانجليز . وبمقتضى اتفاق سرى مع اليابانيين تكون « جيش الاستقلال البورمى » من ٣٠٠٠٠ رجل ، وساعد على دخول اليابان عام ١٩٤٢ فى مقابل وعد بالاستقلال فورا . ولكن اليابانيين تلكأوا فى تحقيق الاستقلال حتى نهاية الحرب ، وكان حكمهم فظا . وقد تألفت حركتان للمقاومة احداهما بقيادة الشيوعيين وقد ساعدت الجيوش الانجليزية والامريكية التى هاجمت اليابانيين من الهند . وقد اعتبر الانجليز مساعدة البورميين لليابان خيانة وسحبوا منهم الكثير من صلاحيات الحكم الذاتى التى منحت عام ١٩٣٧ .

الاستقلال

تألفت جبهة التحرير الشعبية المضادة للفاشستية من بعض أعضاء الحركتين المذكورتين وقامت بحرب العصابات ، أو بالهجمات المباغتة التى تقوم بها أعداد صغيرة من الجنود المتطوعين . وقد استجابت بريطانيا لمطالب البورميين للاستقلال الذين أعربوا فى استفتاء عام ١٩٤٧ عن رغبتهم فى الانفصال عن الامبراطورية البريطانية . وأعلن استقلال بورما فى ٤ يناير ١٩٤٨ .

وأنشئت بعد الاستقلال حكومة برلمانية ، وكانت أيضا فيدرالية الى حد ما . حيث كونت ولايات تتمتع بالحكم الذاتى للشان والكاشينيين ، والكاياهنيين والكالينيين . وكانت الحكومة المركزية تشارك فى السلطة مع هذه الولايات . أما فى باقى أراضى الدولة فكانت الحكومة المركزية تمارس سلطاتها بالكامل ولم تكن الولاية الكارينية لترضى الكارينيين الذين انتشروا كأقليات فى مناطق أخرى من الدولة ، بل وزعموا أنهم الأغلبية فى بعضها . ولو أن الاركانيين كانوا حقا هم الأكثر عددا ونفوذا فى بعض المناطق الجغرافية الأخرى ، الا أنه لم يعترف لهم بولايات أخرى ذات حكم ذاتى . ولهذا لم يكن الطريق سهلا بعد الاستقلال لدعم الوحدة الوطنية ودفع التنمية الاقتصادية . فقد حدثت ثورات بزعامة الكارينيين وبعض الأقليات الأخرى ، وثورات أخرى بزعامة الشيوعيين . وعلى الرغم من قمع الجيش لهذه الثورات الا أن الفوضى وعمليات حرب العصابات لا تزال قائمة فى الريف . وهنا وللمرة الثانية لم يلبث الحكم المدنى أن أسقط لتحل مكانه حكومة عسكرية .

التنمية الاقتصادية قبل الاستقلال

التقدم الفنى فى عهد ميندون

سبق أن ذكرنا أن بورما كانت ضعيفة الاتصال بالعالم الخارجى وبمعرفة التفوق الفنى الأوروبى حتى دخول الانجليز فى القرن التاسع عشر • ورغم ذلك فان الملك ميندون ، تحت صدمة الهزيمة العسكرية ، صمم على أن يجدد دولته ويأخذ بالأساليب الاقتصادية الحديثة ، فحدثت فترة قصيرة من التغيير الاقتصادى الرائع •

لقد بعث ميندون ببعض الشبان ورجال البلاط الملكى الى أوروبا للتدريب • لقد تعلموا الانجليزية وأتقنوها ، وتعلم القليل منهم التحدث بالفرنسية جيدا • لقد أدخل العملة المعدنية ، وبنى أسطولا من البواخر النهرية ، وأنشأ خطوط التلغراف للربط بين العاصمة فى ماندالاى وبين بورما الدنيا • لقد زاد مساحة الأرض المنزرعة أرزا فى بورما العليا ، وأقام مصانع بآلات أوروبية ، وتحت ادارة مديرين أوربيين فى بعض الحالات ، لانتاج المنسوجات القطنية والحريرية وبعض المنتجات الأخرى • كما نمى بنجاح تجارة الصادرات والواردات • هذا فضلا عن الأخذ بنظام الرواتب الثابتة للموظفين ، وفرض ضريبة جديدة عادلة صادفت من النجاح ما أغرى الانجليز على الاستمرار فى جمعها عندما سيطروا على بورما العليا •

ولو أنه عاش مدة أطول ، لكان حكمه الرائع قد أنجز تغييرات عظيمة فى بورما ، ولكن موته وضع حدا لادارته الحديثة لمشروعات بورما • الا أن ابنه تركها تنهار أو تهجر أو توضع تحت اشراف الانجليز •

ان لنجاح ميندون أهميته من حيث أنه يكشف عن شخصية بورما وحضارتها • ومن الواضح أن أعضاء البلاط الملكى لم يكونوا قد دربوا فى ظروف تقليدية ، حيث كان من بينهم رجال رحبوا بالتغيير وجازفوا بادخاله • لقد كان هناك رجال لديهم شخصية المبتكرين الخلاقين ورجال الأعمال المنجزين ، وقد حركت المشروعات الجديدة التى أقامها الملك طاقاتهم ومبادءتهم • وقد توقف نفوذ هذه الشخصيات الخلاقة أو كبت تحت نير الاستعمار •

فترة الاستعمار : تنمية واستغلال موارد بورما

سارت تنميـــة الموارد الطبيعية لبـــورما بخطى أسرع تحت الحـــكم البريطانى ، وقام البريطانيون ببناء وســـائل النقل والمواصلات وخـدمات العمران التى يعتبرها الاقتصاديون قاعدة ضرورية للنمو الاقتصادى .

وكانت أسبق الموارد الى الاستغلال الأراضى الخصبة فى الدلتا والغابات الغنية بالأخشاب . وكانت أشجار بورما أحسن أخشاب العالم ، ولهذا كانت تصدر الى العالم أجمع .

وأبدى البريطانيون اهتماما بل وشغفا بزراعة الأرز فى الدلتا ، وذلك لتشجيع الاستيطان بها من جهة ، ولادخال النظام الغربى لملكية الأرض من جهة أخرى . وكان متوسط ما يصدر من الأرز سنويا نحو ٤٠٠ر٠٠٠ طن خلال السبعينات من القرن التاسع عشر ، وفى نهـــاية ذلك القرن ارتفعت صادرات الأرز الى ٢ مليون طن فى السنة ثم الى ٣ ملايين طن قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية .

وقد أدت تجارة الأرز والزيادة فى حجم التجارة الداخليـــة الى ازدياد الحاجة الى تحسين المواصلات . وقـــد ربط الانجليز بين مختلف أجزاء الدولة بشبكة من السكك الحديدية والنقـــل النهرى وأخيرا بالتوسع فى الطرق الممهدة . كما أدخلت تحسينات على نظام البريد والتلغراف والتليفون ومدت خطوطها بين المدن الرئيسية .

وفى التسعينات من القرن التاسع عشر أصبحت بورما احـدى الدول المصدرة للبترول . وفى خلال الحرب العـــالمية الأولى بدأ استغلال مناجم القصدير والتنجستين فى جنوب بورما . وفى العشرينات جرى اســـتغلال الرصاص والزنك والفضة وبعض معادن أخرى عـــلى نطاق كبير فى بورما العليا . ورغم هذا ظل الأرز على قمة الصادرات .

وهكذا كان الاقتصاد البورمى معتمدا على غابات الأخشـــاب والزراعة والمناجم ، ونميت كلها لأغراض التصدير . ولم تكد تظهر صناعة حديثة . كما كانت تجارة التصـــدير خاضعة تماما لهيمنة الانجليز ، مـــع بعض الأوربيين القلائل والشركات الصينية والهندية المشتغلة بالتجارة الخارجية .

دور البورميين خلال العهد الاستعمارى :

لم يقم البورميون حتى بداية الحرب العالمية الثانية بدور هام فى التطورات الجديدة ، اللهم الا فى مجال الزراعة وصناعة الأخشاب • وما أيسر أن ندرك لماذا كان هذا صحيحا فى بداية حكم الانجليز • فعندما فتح الانجليز بورما ، كان البورميون أعداء ثم تحولوا الى رعايا لا ينتظر منهم الولاء • انهم يتكلمون لغة غير معروفة ، ولم يتدربوا على مهن الغرب ووسائله الفنية • انهم لم يعرفوا شيئا عن نظم الحكم البريطانية • وبعكس ذلك ، كان الهنود يتحدثون ويكتبون بالانجليزية ، أو كان يمكن التحدث اليهم بلغتهم التى عرفها الانجليز الذين عاشوا فى الهند أو كانت لهم تجربتهم فيها • لقد تدربوا فى الغرب واكتسبوا خبرة من العمل مع الادارة البريطانية • ولهذا جاء بهم الانجليز الى بورما لشغل الوظائف الادارية والمهنية والفنية على المستويات الأدنى من الوظائف العليا القاصرة على الانجليز •

وحتى العشرينات كانت ادارات التليفون والبريد والتلغراف تدار من الهند • وكان كتبة البريد وموزعوه من الهنود • وكانت الانجليزية لغة التلغراف • وما كان البورمى ليستطيع ارسال برقية الا بعد ترجمتها الى الانجليزية ، وما لم يكن يستطيع التحدث بالانجليزية أو الهندوستانية • كما لم يكن ليستطيع العمل فى التليفون ، أو حتى استخدامه •

ولما كان الأيسر للادارة الحكومية البريطانية هو استخدام الهنود ، كذلك كان الأمر بالنسبة لرجال الأعمال الانجليز والأوربيين ، وللشركات الصينية والهندية التى مارست العمل فى بورما ، حيث كانت تأتى من الهند بالمساعدين والفنيين والملاحظين والكتبة وعمال البيع والعمال الفنيين •

كما استخدم الهنود الحرفيون والعمال الهنود غير الفنيين لسبب آخر مختلف • لكان العمال الهنود يقبلون العمل بشروط يرفضها البورميون ، وبأجور أقل لا يمكن أن يعيش عليها البورميون • وفى أول الأمر كانت الشركات الخاصة تتحمل نفقات استحضار العمال الهنود الى بورما • ولكن بعد ما جعلت البواخر الانتقال من الهند رخيصا استطاع العمال الهنود أن يتحملوا مصاريف الانتقال ، وبذلك بدأت هجرة من أعظم هجرات التاريخ • ففى عام ١٩١٨ فقط دخل ٣٠٠٫٠٠٠ عامل هندى فى بورما •

ولم يتقدم من البورميين الى الوظائف الطيبة فى مكاتب الحكومة

وادارات الأعمال الا العدد القليـــل ، بعـد أن أتيح لهم الحصول على التعليم الضرورى · وحتى فى عهد الاستقلال لم يكن هنــاك بورميون يتولون ادارة الصناعات الهامة كتصدير الأرز والتعدين · وكان رجال الأعمـــال الانجليز يقولون ان البورميين تعوزهم القدرة على تولى المراكز الهـــامة ، ولكن تاريخ بورما يبين أن قولهم غير صحيح · ولابد أنه كان هناك ثمة سبب آخر ، وهذا ما سأناقشه فيما يلى ·

لا شك أن الفترة الاستعمارية جاءت بميزة ارتفاع مستوى المعيشـــة لأهل بورما ، وقد أرسيت قاعدة لاستمرار التنمية الاقتصادية تحت الحـــكم البريطانى · ولكن البورميين لم يفسح لهم مجال مهن جديدة ومراكز مثـــل مراكز المديرين والقادة ، أو أية أدوار هامة فى عملية التغيير الفنى ·

التنمية الاقتصادية فى بورما المستقلة

لقد عانت بورما الكثير من الدمار خلال الحرب العالمية الثـــانية وهبط انتاجها الى أدنى مستوى · وعندما بدأت اعادة التعمير بعد عام ١٩٥٠ ، ولما كان النمو الاقتصادى هو هدف زعماء بورما ، فقد كان من المنتظر حـــدوث زيادة سريعة فى حجم الانتاج · ولكن هذا لم يحدث · ويرجـــع السبب الى حد كبير الى تصرفات ومواقف الناس والى سوء ادارة الزعماء الوطنيين ·

نواحى الفشل فى القيادة والادارة

عندما نفحص أعمال الرجال الذين أعربوا عن رغبتهم العظيمـــة فى التنمية ، نجد أن كثيرا من الأعمال الهامة للحـــكومة التى كان من المنتظر أن تساعد على التنمية أنزلت ضررا بالدولة وعوقت التنمية · لقد كان عددا من الزعماء الوطنيين غير أمناء ، وكان آخرون كثيرون غير صالحين لتولى المناصب ·

وقد نجد مثل نواحى القصور هذه فى دول أخرى · وانى اذ أناقشها هنا فذلك لأن ما حدث فى بورما ان هو الا مثل لأداء المجتمعات التى تقلقل فيها النظام الاجتماعى التقليدى ، وحيثما يكون الأشخاص الذين تعرضـــوا لضغوط حكم الاستعمار غير فعالين فى الحكم على الأشياء وفى العمل ·

وفيما يلى بعض أمثلة :

عندما أنشئت أنابيب التصريف لخزانين للرى بواسطة مصلحـــة الرى انهارت فى منتصف الخمسينات بسبب أخطاء فى الانشاء وتحتم أن يعـــاد

تشييدها ، لم تستأجر المصلحة مهندسين آخرين ، أو تسعى للحصول على مشورة جديدة • وكل ما حدث هو انها توقفت عن انشاء مشروعات كبيرة أخرى •

لقد وضع برنامج لتنمية القرية والنهوض بالزراعة ، ودرب فى عام ١٩٥٨ نحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ عاملا قرويا ومثلهم فى الأعوام التالية ، وتم توزيع نحو ١٧٠٠ عامل على سائر أنحاء الدولة • ولكن لم تهيأ لمعظمهم وسائل مواصلات ، حتى ولو دراجات •

وفى عام ١٩٥٢ ابتدأ مشروع مبشر بالخير يعطى معاونات مالية للمجتمعات المحلية ، من الحكومة المركزية ، لتشجيعها على المبادءة المحلية فى اعادة بناء وتحسين المجتمعات • وشكلت لجان محلية لادارة اعتمادات المعونة • ولكن اللجان أثارت نقمة الأهالى باستخدام أعضائها للأموال فى مصالحهم الخاصة • ولم يحاول رئيس الوزراء اصلاح مثل هذا المشروع الهام ، بل ألغاه ببساطة •

وبلغ سوء الادارة أقصاه فى تخطيط وبناء المشروعات الصناعية الجديدة • لقد عين رئيس الوزراء ثلاثة رجال لا يعرفون شيئا عن ادارة الأعمال ليتولوا مسئولية اقامة مصنع للعقاقير الطبية • وقد مضوا فى عملهم بدون بحوث وتحاليل خبراء طبيين وخبراء فى الصحة العامة • كما لم تعد أية تقديرات لنفقات الانتاج أو للأسواق ، وكذلك لم تعد خطط لتوزيع المنتجات• انهم لم يسعوا لأخذ مشورة المهندسين بشأن نفقات البناء الذى قامت به شركة أجنبية • لقد عانت الوكالة العامة التى شيدت المصنع خسائر كبيرة •

كما أنشىء مصنع للصلب على الرغم من افتقار بورما الى الفحم وحجر الجير وعدم توافر خام الحديد بعد الحرب للاستمرار فى الانتاج •

وبدأ انشاء مصنع للطوب والفخار عام ١٩٥٤ وبعد أن أوشك المصنع على التمام ، اتضح أن أفران خبز الطوب ، وبيوت المديرين ، والأبنية الأخرى قد أقيمت فوق أقرب مصدر للفخار • وأصبح من الضرورى انشاء طريق طوله ميلين للوصول الى مصدر آخر • وبسبب أخطاء التخطيط تطلب الأمر أربعة أعوام أخرى لاتمام التشييد •

وكان من الأسباب الرئيسية لسوء الادارة فى المشروعات الحكومية أن الموظفين على المستويات الأدنى كانوا غير قادرين أو غير عازمين على اتخاذ

القرارات • وكانوا يحيلون المشاكل التى تتطلب عملا ايجابيا على رؤسائهم ، وهؤلاء بدورهم يحيلونها على من هم فى منصب أعلى •

وهكذا أثقل كاهل السلطة الأعلى ، وهى المجلس الاقتصادى والاجتماعى الذى كان مسئولا عن برنامج التنمية الاقتصادية بالكامل ، وأغرق المجلس فى عديد من الأمور التى كان واجبا على المديرين وأعوانهم أن يتخذوا قرارا بشأنها • وبهذا لم يبق للمجلس سوى القليل من الوقت لمناقشة أمور السياسة العامة • وفضلا عن مناقشته لمسائل جارية غير هامة ، أمضى وقته فى اقرار ما اذا كان يوافق على المشروعات الجديدة أو العقود الجديدة • واذا لم يكن فى الأمر تساؤلات ، أقدم رئيس الوزراء على اتخاذ القرار ، ولكن اذا أثير ولو سؤال واحد خطير اتجه الرأى الى تجنب اتخاذ قرار • واذا استمرت مناقشة مشروع وقتا بدون الوصول الى قرار ، يدث عادة أن ينتقل الرئيس الى مناقشة موضوع آخر • ويبقى الموضوع السابق معلقا ، وتستمر الأوضاع على ما هى عليه • ولم يعط المجلس أى اهتمام لتنفيذ قراراته ، أو لاتمام المشروعات ، وكذلك ادارة المصالح الحكومية وادارة مشروعات القطاع العام •

النجاح – الاستثناء

ومع هذا فقد كانت هناك استثناءات قليلة لسوء الادارة • فقد تحقق الانجاز بنجاح فى بعض المشروعات الحكومية وفى بعض تدابير مساعدة القطاع الخاص • فالمصارف والسياسات المالية عملت بكفاءة • كما سارت الأمور سيرا طيبا فى استخراج وتكرير البترول وفى مناجم الرصاص والزنك والفضة فى منطقة المناجم الشمالية ، لأنها كانت تحت ادارة شركة بريطانية خاصة مارست العمل قبل الحرب • وفى أماكن أخرى سارت الأمور على ما يرام هنا وهناك لأن المدير الذى تولى الأمر كان فعالا • وقد حقق مشروع محطات توليد قوى صغيرة فى المدن نجاحا متواضعا ، وكذلك مشروع انعاش انتاج الأخشاب • وفى عام ١٩٥٦ اختير رجال قادرون وأقوياء لادارة الهيئة العامة لتنمية الأرض والموارد •

وأنشئت مستشفيات هنا وهناك ، بدون تهيئة الكفاية من الأطباء والممرضات فى بعض الأماكن • وقد نفذت عدة مشروعات عامة للاسكان • وتزايد عدد مدارس الدولة وتزايد عدد التلاميذ بسرعة ، وحدث تقدم عظيم فى مجال التعليم • وفى مجال الصحة العامة طلبت حكومة بورما معاونة الأمم المتحدة ومعاونة الولايات المتحدة الامريكية • وبفضل تعاون الموظفين

البورميين أحسن ادارة الحملات ضد الملاريا والالتهاب الرئوى وبعض أمراض أخرى ، وحققت هذه الحملات نجاحا عظيما ٠

الا أن هذه الأمثلة من الأعمال الفعالة ان هى الا استثناء لعجز الانجاز وسوء الادارة فى برنامج الحكومة للتنمية الاقتصـــادية على العموم ٠ وكان مجرد تواجدها مثارا للدهشة بالنسبة للسلوك العـــام السائد ٠ وما كان تفسير أغلبية الزعماء الوطنيين ليكون مرضيا ما لم يقترن بتفســير السلوك العكسى لأقلية صغيرة ٠

التناقض

ليس السؤال المحير أكثر فى تواجد هـــذين النوعين المتناقضين من السلوك ٠ وانما هو فى التفانى الواضح لبعض الزعماء الأذكياء فى التنمية الاقتصادية ، جنبا لجنب مع عدم تقديرهم للمسئولية فى انجاز التدابير المؤثرة فى التنمية ٠ هذا فضلا عن حقيقة عدم احتجاج الأهالى وتقبلهم بهدوء للسلوك الحكومى ٠ وعلينا أن نتناول بالبحث كل من سوء الادارة وعـــدم الاكتراث بهـــا ٠

ونحن اذا فهمنا سلوك القادة الوطنيين ، وموقف الأهالى منه ، يمكننا فهم العوامل المركبة المؤثرة فى المجتمع البورمى ٠ انهـــا لا يمكن أن تفسر بافتراض أن البورميين كشعب تعوزهم الصناعة والقدرة الفنية أو القدرة على الادارة ٠ لقد أثبتوا تفوقهم وجدارتهم أولا فى الزراعة وثانيا فى العمـــارة والهندسة ، وثالثا فى الكثير من الانجازات فى تاريخهم العسكرى والدينى ٠ ولو أن بعض كبار الموظفين أعوزتهم المقـــدرة الا أن الوزراء الأكثر نفوذا فى الحكومة المدنية (قبل الانقلاب العسكرى) كانوا رجالا خارقى الذكاء ٠

لقـــد كان أغلب قادة بورما فى المناصب العليا رجالا أمناء يبغضـــون الفساد ، والسؤال البالغ الأهمية هو كيف أســـاء مثل هؤلاء الرجال ادارة برنامج التنمية الاقتصادية ، وكيف سمحوا بكل نوع من التصرف غير الفعال والسلوك غير الأمين للموظفين فى المناصب الأدنى ٠

ولعل الجانب الأكبر من السلوك الذى وصـــفته يفسر بأن شخصيات الأفراد بحكم تكوينها تقليدية ٠ ان تكريس الجهـــود فى المشاكل الفنيـــة والاقتصادية والتخطيط وفى ادارة مصنع أو أفران صلب هـــو أمر فى حكم المستحيل بالنسبة لأفراد ذوى شخصية تقليدية ٠ ومع هـــذا فالقول بأن

الشخصيات كانت تقليدية ببساطة ، لا يعطى تفسيرا مقنعا ، لأن شخصيات الأفراد لو كانت تقليدية تماما لما شغلوا أنفسهم بمشروعات صناعية · والرجال الذين نبحث أمرهم هم أشخاص أذكياء وكانوا راغبين بقوة فى انجاز اقتصاد حديث فى أسرع وقت ممكن ·

ومن المحتمل أن يكون الموظفون على كل من مستوى القاعدة والقمة غير مدركين لسير الأمور على نحو سيء · فالموظفون الأمناء وغير الأمناء على السواء ، كانوا فيما يبدو غير شاعرين بمدى تفشى السلبية وعدم الشعور بالمسئولية والفساد وبتأثيرها السلبى على النمو والرفاهية العامة · ان المشاكل الاقتصادية التى واجهوها لم تكن لتبدو لهم كحقائق حياتهم · لقد تصرفوا كما لو كانت هذه المشاكل ليس لها سوى دلالة أو أهمية جانبية · لقد كانوا فيما يبدو منهمكين بشواغل باطنية جعلتهم يعيشون فى عالم أحلام لا تتدخل فيه الحقائق الاقتصادية · بل كان تصرفهم يوحى بأنهم انما يتجنبون التحليل النقدى خوفا من أن يقلقل عالم أحلامهم · كانت تلك فيما يبدو هى المشكلة الرئيسية ·

ولكى نفهم هذا السلوك ، أرى أن نعود القهقرى لنفحص العلاقات بين القاهرين والمقهورين خلال الفترة الاستعمارية ، العلاقات التى تفسر أيضا فشل البورميين فى دخول مهن جديدة أثناء تلك الفترة ·

الآثار الاجتماعية والنفسية لحكم الاستعمار

لقد فرض الاداريون الانجليز فى بورما على المجتمع البورمى مبادىء وتطبيقات العقود ، وحكم القانون غير الشخصى ، والفصل بين الكنيسة والدولة · لقد ظنوا أن ما هو طيب لانجلترا يكون طيبا لبورما · ولاخضاع الأهالى لاشرافهم المباشر فرضوا الحكم المركزى وهيمنتهم المباشرة على الادارة الداخلية لمستعمراتهم بدلا من تركها فى أيدى الرؤساء المحليين ·

وهم اذ فرضوا حكمهم المباشر ألغوا حق القرويين فى اختيار رؤساء الدوائر · وكانت كل دائرة تتألف كما سبق أن ذكرنا من عدد يتراوح بين ١٠ و٥٠ قرية · لقد قرر الانجليز تعيين رؤساء الدوائر بمعرفتهم ، مع تخويلهم مسئولية تنفيذ قوانين وأوامر الحكومة المركزية · كما غير الانجليز حدود ومكونات الدوائر المتباينة الأحجام بغية زيادة الكفاءة الادارية · وفيما بعد حمل رؤساء الدوائر مسئولية تنفيذ أوامر الادارة الاستعمارية فأصبحوا

مجرد أدوات وتلاشت وظيفتهم بالتدريج • لقـــد غيرت مساحات القرى وحدودها • ثم مدت سلطات موظفى الحــكومة المركزية ، وكان معظمهم من الهنود ، تدريجيا الى القرى :

لقد حطمت هذه التغييرات المتعاقبة الصرح السياسى والاجتماعى لحيـاة المجتمع البورمى • فلم تعد القرى تعمل كأجهزة أو تكوينـــات اجتماعية • واختفت الأراضى المشـــاع ، التى كانت ضرورية لتوريد الخشب ، وللــكلا وللاجتماعات القروية ، لأنها لم تعد فى بعض المنـــاطق فى خدمة الوحـدة الادارية ، أو لأن الرئيس لا يملك السلطات الكافية لحمايتها من وضع اليد ، الذى جعلته القوانين الجديدة لملكية الأرض ممكنا • كما اهملت صيانة آبار القرى ، وأصبحت مياهها غير نظيفة ، وتدهورت طرق القرى لعدم الاصلاح • هذا فضلا عن تفشى اللامبالاة •

وحدث تغيير بالغ الأثر فى المؤسسات القانونية بفرض الانجليز لقانون موحد ينظم الأعمال الصناعية والتجارية • ولم يعد الرؤساء يقومون بتسوية المنازعات ويحكمون على الأخطاء أو الجرائم بالطريقة التقليدية ، اذ حل محلهم قضاة يحكمون بمقتضى القانون •

ومن أمثلة التغيير القانونى الذى بدا شرا للبورميين القوانين المنظمـــة لملكية الأرض • فالانجليز ، بدون أن يفهمـــوا ماهية الاستخدام العـــائلى التقليدى للأرض وحيازتها العائلية ، جعلوا فى استطاعة أى فرد أن يملك الأرض ويشتريها ويبيعها • وعندما احتل الانجليز بورما العليا قضـــوا بأن كل فرد يتولى زراعة قطعة بعينها من الأرض هو مالكها الوحيد • واذا لم تكن الأرض مزروعة ، تركت ملكيتها محـــلا للتسوية • الأمر الذى أتاح لبعض الأفراد غير الملتزمين بالمبادىء الأخلاقية أن يضعوا أيديهم على الأرض المشاع أو الأراضى غير المنزرعة • وكانت بعض أراضى العائلة تركت غير منزرعة لعدة سنوات • وهكذا كان الفرد الذى يضع يده عـــلى الأرض ومن ثم يقضى له بملكيتها ، يحرم العائلة من ثمار الأرض التى كانت دائمـــا أساسا للحياة العائلية • حقيقة أن هذه اللوائح قد تجوهلت لفترة طويلة فى أجزاء كثيرة من بورما العليا ، ولكن القرى والعـــائلات التى تجاهلتها كانت عرضـــة لاغتصاب أرضها بواسطة أفراد بلا مبادىء • وبهذا حطم الانجليز أســـاس الحياة العائلية وحياة الجماعة ، وشجعوا فساد العلاقات العائلية والقروية •

لقد أقرت المحاكم اللوائح الجديدة لملكية الأرض وحكمت بمقتضاها •

ولهذا اعتبر البورميون هذه اللوائح شرا واعتبروا المحاكم غير عادلة . ولم يكن عجبا أن انتشرت الجريمة وتزايد الفساد في عهد الاستعمار ، لأن البورميين شعروا بأن الأخلاق والعدالة لم تعد هي التي توجه الحياة .

كما لم يحترم الانجليز أيضا القيم الدينية لأهل بورما . لقد كان في البلاط الملكي البورمي بطريارك ، أو رجل مسن له مكانته ، يعمل كرئيس ديني أعلى . كما كانت هناك مجموعة من المسئولين الدينيين الرسميين لضمان ارتفاع المستوى الخلقي للرهبان ولتنظيم الحياة في المعابد . وقد كانت هذه المعابد بالغة الأهمية في حياة بورما كما سبق أن أشرنا ، لأن كل ولد كان يقضي وقتا في المعبد وكان يتعلم النظام والعقيدة الدينية من الرهبان . وتحت حكم الانجليز ، ألغي البلاط الملكي ، وتطبيقا لمبدأ الفصل بين الدولة والكنيسة ، لم يعد هناك بطريارك أو موظف ديني مسئول لممارسة سلطة الاشراف على الرهبان . وبهذا تدهور مستوى علم وخلق الرهبان ، حتى لقد ظهر في صفوفهم جهلة ورجال غير أمناء ، بل وبعض المجرمين . وفي معظم المجتمعات الجديدة التي نشأت في عهد الاستعمار ، لم يوجد رهبان أو معابد ، أو مدارس دينية . وكثيرا ما كان الانجليز في تصرفاتهم الخاصة لا يخفون احتقارهم للرهبان ، وانتهكوا شعائر البورميين برفض خلع أحذيتهم عند المرور في الأماكن التي يعتبرها البورميون مقدسة .

ان الانجليز لم يخفوا تجاهلهم لكل ما هو بورمي حتى في علاقاتهم الشخصية مع البورميين . لقد كان معظم الانجليز يتحدثون الى البورميين بلغة متعالية كأفراد أدنى منهم ، كما كانوا يصرون على أن يخاطبهم البورميون « كتاكين » أي أسياد . وقليل جدا من الانجليز كانت لهم علاقات اجتماعية حتى مع البورميين الأكثر تحضرا . وكانت العلاقات الشخصية تنم عن أن نظرة السادة المستعمرين الى البورميين كانت مبنية على اعتبارهم كجنس أدنى ، والاستخفاف بمعتقداتهم وقيمهم ومميزاتهم . ولكان الحكام الاستعماريون قد قالوا بالفعل : « سنلقي جانبا بعلاقاتكم العائلية والجماعية ، ونهزأ من معتقداتكم الدينية ، وننكر عليكم الحق في الكرامة الشخصية . وعندما تتعارض أشخاصكم والأشياء التي تقدرونها مع راحتنا ، فانها تصبح غير جديرة بالمراعاة » .

تفسير

نتائج الضغوط الاستعمارية

يبدو لي أن آثار هذه العلاقات الاستعمارية على الشخصية البورمية

التقليدية ، تفسر مختلف جوانب السلوك البورمى ، حتى ليستحيل فهمها بدونها ٠

لقد سبق أن نوهت بأن البورميين كانوا غير مبالين تحت حكم الاستعمار ولكن لامبالاتهم على السطح فقط ٠ وقد كشفت أعمال البورميين خلال الحرب العالمية الثانية عن بغضهم الحبيس للحكم البريطانى ٠ وكان تصرفهم انهزاميا ، وكان غضبهم الشديد راجعا لازدراء الانجليز للكثير من الأشياء التى يقدرونها ويعتزون بها ، فازدادوا تشبثا بشخصيتهم التقليدية ، لكى يتلافوا التقييم البريطانى ، وازدادت كراهيتهم لكل شيء يمت الى الغزاة بصلة ٠ وفى اعتقادى أن هذه التصرفات والاحتياجات هى التى ولدت فى نفوس البورميين كراهية شديدة للمهن الأوروبية الطابع ، وأن هذه الكراهية كانت سببا هاما لفشل البورميين فى الالتحاق بأعداد كبيرة فى المهن الجديدة خلال المعهد الاستعمارى ٠

كما تفسر أيضا لماذا تقبل البورميون بهدوء تصرفات زعمائهم بعد الاستقلال ٠ ان البورميين ما برحوا يشعرون ببغض شديد لأساليب الحياة التى جاءت مع الاداريين ورجال الأعمال الانجليز ، مع ما كانت تعنيه من استخفاف بحضارتهم وسلوكهم ٠ ومن أجل هذا لم يشعروا بالمهانة عندما لم يقم قادتهم بدورهم بكفاءة فى مجال الأعمال الحديثة ٠ وما كان ليعنيهم كيف يتصرف قادتهم فى هذه الأعمال الأجنبية الطابع ٠ بل كان الأهم عندهم أن يعكس قادتهم الاحترام للقيم التقليدية والعلاقات الشخصية ٠

وأرى أيضا أن تأثير العلاقات الاستعمارية يفسر سلوك قادة بورما الوطنيين خلال الخمسينات ٠ وفى اعتقادى أن سلوكهم يعكس نزعة المحاكاة ، أى محاكاة المعتدى ، كما وصفتها فى الفصل السابق ٠ فلكى يقتنعوا بجدارتهم فى نظر الأوروبى القوى والمهدد لكيانهم ، أقنعوا أنفسهم بأنهم هم أيضا عصريون ٠ ولهذا شعروا بحاجتهم الى رموز العصرية ــ ممثلة فى المصانع وأفران الحديد والصلب ــ ولا يهم أن تكون المصانع على مستوى منخفض من الكفاية ٠ لقد رفضوا بحث نتائج التحليلات التى قد تكشف عن عدم صلاحية مواردهم الطبيعية لبعض أنواع المصانع ، لأنهم كانوا فى حاجة الى مصانع لاشباع احتياجاتهم العاطفية ٠

وفى نفس الوقت ، استمروا فى تشبثهم بأساليب حياتهم التقليدية وبالعلاقات الشخصية التقليدية ، وهى مطلوبة ومقدرة فى ظروف تقليدية ،

ولكنها لا تساعد فى حل المشاكل الفنية • وقد نتج عن ذلك الصراع الداخلى الذى أدى الى السلوك غير المعقول •

كلمة ختامية

ينظر كثير من أبناء الدول المتقـــدمة فنيا ، من حيث لا يشعرون ، الى الدول النامية كما لو كانت قطعا من الاســفنج ، يمكن أن تمتص أو تتشرب التكنولوجيا ، وحتى مؤسسات الدول المتقدمة فنيا ، بدون تغيير كما تتشرب الأسفنجة السائل الذى تغمس فيه • والواقع أن سلوك الدول النامية لا يخلو من رد الفعل • ويكون رد فعلها عادة قوى المد ، حتى لقد يحمل الدولة بدون مقاومة فى اتجاه معين •

ان هذا الكتاب ، كما لمس القارىء ، يركز بوجه خاص على مدى تأثر عملية التنمية بسلوك أهالى الدول النامية ، وبالمؤسسات التى نشــأت عن هذه التصرفات • ان المعرفة المستوردة من الخـــارج ، والقيــادة المنبثقة من الداخل لا غنى عنهما للتغيير الاقتصادى والاجتماعى السريع • ولكن التغيير يتوقف جزئيا أيضا على تاريخ الدولة النامية وأثره على تصرفات أفرادها • ان جوانب كثيرة من هذه التصرفات لا تدخل فى اطار اشراف من يدخلها من الأجانب ، أو فى دائرة سيطرة القـــادة الوطنيين أنفسهم • ويصنع هـؤلاء الأجانب وهؤلاء القادة الوطنيون خــيرا بمحاولة فهم القوى الاجتمـــاعية ، وتكييف أعمالهم بالنسبة لها •

ومن شأن هذه الحقائق أن تحد من طموح الفرد وتجعله أكثر تواضعا عندما يحاول التأثير فى تنمية دولته ، أو عندما يحاول المساعدة على تنمية دولة أخرى • واذا كان هذا الكتاب قد زاد ولو بقدر يسير من تواضع بعض قرائه ، فهو يكون قد نجح فى تحقيق غرضه •

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٥٠٩٩/١٩٧٩

الترقيم الدولى ٢ - ٣٥٢ - ٢٦٦ - ٩٧٧

مطبعة أطلس

١١ - ١٣ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة